رحلة المئة سؤال وجواب

الجزء الثاني

د. أسماء غريب
Dr. Asma GHERIB

رحلة السّلام الرّوحيّ
من الفَحم إلى الألماس

Il viaggio della Pace spirituale
dal carbone al diamante

رحلة المئة سؤال وجواب
الجزء الثاني
Il viaggio delle cento domande e risposte

حوار أجراه من ستوكهولم
الأديب والنّشكيليّ
صبري يوسف

Intervista
del letterato ed artista
Sabri Yousef
Da Stoccolma

2019

هوية الكتاب

اسم الكتاب: رحلة المئة سؤال وجواب

الجزء الثّاني

حوار أجراه من ستوكهولم الأديب والتَّشكيليّ صبري يوسف

تأليف: الدكتورة أسماء غريب

الطباعة: دار الفرات للثقافة والإعلام – بابل – العراق

السنـــة: ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٠٥٦) لسنة ٢٠١٨م

Al-Furat House for Education and Information

Iraq – Babylon

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

لوحة الغلاف: (من الفحم إلى الألماس)، من إنجاز د. أسماء غريب إيطاليا، ٢٠١٩م

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

"طُوبَى لِصَانِعِي السَّلَامِ، لأَنَّهُمْ أَبْنَاءَ اللهِ يُدْعَوْنَ"

إنجيل متى ٥: ٩

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾

سورة الأحزاب: الآية ٤٤

الإهداء

إلـــــــــى

زوجـــــي بـــاســـم

شعلة السّلام المضيئة

في قلبي

*** * ***

وإلـــيـــكَ

أيّها القارئ في كلّ مكان

لأنّك تستحقُّ أن تكونَ إنسانَ سلامٍ

يسعى بثقة واعتزاز إلى نشر كلمة المحبّة

والاحترام والوئام

ليس بيْن بني البشر فحسب

وإنّما في كلّ الأكوان.

د. أسماء غريب

إيطاليا/ ٢٠١٩م

المئة سؤال:

١) كيف تعرِّفين السَّلام من خلالِ تجربتكِ في الحياة ومن خلالِ حاجة الإنسان للسّلام والأمان؟!

٢) أعتقد أنّ القارئَ سيجدُ صعوبة كبيرة في استيعاب فكرة العُزلة التي تتحدّثين عنها، وسيسألكِ عن كيفيّة تحقيقها في زمنٍ لا يسمح للإنسان بالانعزال عن أيّ شيء تماماً، لربّما فاتكِ أنّ الإنسانَ عليه أيضاً أن يسعى إلى رزقه، ويخرجَ للعمل، ويختلط بالنّاس، وإلّا فإنّ حياته ستتوقّفُ، أليس كذلك؟

٣) هل لكِ أن تُوضّحي للقارئ أكثر فكرةَ الخوف هذه أو ما اتّفقَ النّاسُ على تسميّتهِ بإبليس، أوَلَيْسَ اللهُ من خلقَهُ وبإمكانهِ أن يحُدَّ من سيْطرتهِ على الإنسان، ومِنَ الأضرار النّاجمة عنهُ؟

٤) كم من الأنبياء والقدِّيسين والأديان جاؤوا ولم يتحقَّق السَّلام على الأرض، على مَن يقع الحق؟!

٥) ماذا تقصدين بأهل العَمَل وأهل العِلم، وهل لكِ أن توضّحي فكرتكِ عن النّار المقدّسة وعلاقتها بطاقة الإنسان؟

٦) مفارقة عجيبة عندما نرى السَّلام والتّنوير يحلُّ في دولة غير دينيّة مثل اليابان، وهي في أوج تحضُّرها وسلامها مع ذاتها ومع الكون، ونرى حروباً مدمِّرة تقوم ركباً في دنيا الشَّرق، في أرضِ الأديان؟!

٧) هل تريدين القول إنّنا تجاوزنا مرحلة الجنّة والنّار والنّعيم والعذاب؟

٨) لماذا نرى نسبة كبيرة من البشر، ترتكبُ فعل الشّر أكثر من فعل الخير والفضيلة والسّلام؟!

٩) هل فهمَ رجالُ الدِّين جوهر ما جاء في الأديان، أم كل واحد منهم يفسِّره كما يفهمه، وبالتَّالي جاء فهمه قاصراً وولّد خلافات في الدِّين الواحد عبر المذاهب والطَّوائف، وخلافاتٍ مع الأديان الأخرى؟!

١٠) ما هي أكثر المشارب في طفولتكِ الّتي ساهمت في أن تجنحي نحو السَّلام والصَّفاء والتَّأمُّل؟!

١١) لو استعرضْتِ طفولتكِ الّتي ترعرعتِ فيها، كيف تبدو لكِ أهمّ فضاءات الطُّفولة حول السَّلام؟!

١٢) كيف للسّلام أن يحمل بين ثناياه الحرب أيضاً، هل يُمكنُكِ أن توضّحي هذه الفكرة الّتي وردت في جوابكِ السّابق؟

١٣) ماذا تقصدين بالإيمان الصّافي الزّلال ولماذا فصلتِ بينه وبين العقيدة؟

١٤) أنتِ كائن مفطور على الفرح، والصّفاء وبهاء الرّوح، كأنّك شجرة وارفة الظّلال، تحوَّلت إلى إنسانة تظلِّل الحياة بأغصان السَّلام، كيف تنظرين إلى هذه الرُّؤية، وهل يتواءَمُ التَّحليل مع عجينِ كينونتِكِ؟!

١٥) هل يُمكنُ للإنسانِ أن يتحوّلَ بعد الموتِ إلى طبيعةٍ كينونيّةٍ أخرى تخالف طبيعته الأولى، كأن يُصبحَ شجرةً على سبيل المثال؟!

١٦) ماذا تقصدين بعدم عودة الموتى إلى الأرض على الرّغم من أنّ تاريخ البشرية الفكريّ حافل بالتّجارب التي وثّقتْ لدى مختلف الشُّعوب لقاء العديد من النّاس بمن ترك الأرض منذ زمن بعيد؟

١٧) يدهشني العقل وطاقته في تخزين واستذكار آلاف بل ملايين المواقف والذّكريات، كيف يتشكَّل العقل؟!

١٨) هل أنتِ راضية عن الهيئات الدّوليّة الّتي ترعى السَّلام وحقوق الإنسان، أم لديك تحفظُّات ومآخذ؟

١٩) فوضى العالم وهمومه ويأس النّاس المرير فيه، كيف السَّبيل إلى التَّخلّص من كلّ هذا؟

٢٠) هل يفهمم المرء ذاته المستبطنة في الأعماق، أم يحتاج لتجربة طويلة كي يفهم ما يجولُ في أعماقه؟!

٢١) هل فاجأتكِ اللّغة، الكلمة، الحرف مثلما فاجأتني، كيف استقبلتِ اللُّغة بكلِّ مدلولاتها منذ طفولتكِ؟!

٢٢) ماذا ينتابكِ وأنتِ وسط الغابة تنظرينَ إلى بهاءِ الفراشة وروعةِ الطَّبيعة، وتسمعين إلى تغريدِ البلابل؟

٢٣) كيف يُمكنُ للمبدع أن يُحقّق السّلام مع ذاته ومع روحه ولماذا على الرّغم من كثرة المثقّفين والمبدعين من حولنا لم يتحقّق بعد هذا السّلام المنشود؟!

٢٤) أهل السّلام هُم أصحاب التَّجلّيات الحلميّة بامتياز، كيف يُمكن تفسير هذا الأمر، وما معنى التَّجلّي ولماذا يحدث؟!

٢٥) إذا مرضَ الإنسان، هل تتوقّفُ التَّجلّيات؟ وهل يحرمُ المرضُ إنسانَ السّلام من التَّوغّل أكثر فأكثر في عوالم الملكوت البهيّة؟

٢٦) ما رأيكِ بما ترينه على السّاحة من فوضى وعلاقات مخلخلة بين البشر، وبين الدُّول والدَّولة الواحدة مع مواطنيها، كيف يُمكن والحالة هذه أن نعالجَ كل هذه الخلخلات في العلاقات بين الدُّول والأفراد؟

٢٧) هل توافقيني الرّأي، لكي نحقِّق السّلام، نحتاجُ لسنِّ قوانين جديدة تساهم في تحقيق السَّلام في العالم؟

٢٨) هل قادكِ السَّلام مع ذاتِكِ إلى السَّلام مع الطَّبيعة، مع البشر، مع الكلمة على إيقاعِ هديلِ اليمام؟

٢٩) لماذا هناك عدّة أديان وليس ديناً واحداً يوحّد البشريّة، ويقضي على الخلافات النّاشبة بين الأديان؟!

٣٠) ما الّذي دفعكِ عندما ترجمْتِ ديوان: السَّلام أعمق من البحار، أن تعتكفي في دير كي تعيشي حالة تأمُّل وخشوع، وتترجمي هذا الدّيوان، وكيف بدأتِ بترجمة الدِّيوان من العربيّة إلى الإيطاليّة؟!

٣١) ماذا عن الحبّ كمعراج يبلغ به الإنسانُ حالةَ السّلام الكامل؟

٣٢) من الحبّ البشريّ يُمكن للفرد أن يصل إلى الحبّ الإلهيّ الأكبر، ماذا عن دور الجنس في هذه الرّحلة الرّوحيّة الكبرى؟

٣٣) ماذا عن الزّواج، هل يقيّدُ الإنسانَ ويحرمُه من الوصول إلى حالة الصّفاء والسّلام؟

٣٤) أرى أنَّ من أهم أسباب تراجع السَّلام في العالم، هو تراجع الحس الأخلاقي، كيف ممكن أن نعالج هذه المشكلة العويصة، ونعيد للأخلاق الرَّاقية دورها الرَّائد، وبالتّالي نعمّق عبر الأخلاق ثقافة السَّلام؟!

٣٥) ما هي أفضل السُّبل لتوعية المرأة بدورها الجديد؟!

٣٦) لماذا لا نستغلُّ تقنيّات العصر في ترويج ثقافة الحب والسّلام والوئام بين البشر، ويتمُّ التَّركيز على الأفكار الاستهلاكيّة والمتع الفضفاضة، ولا يتمُّ التَّركيز على قضايا جوهريّة تهمُّ حياة ومستقبل الإنسان؟

٣٧) هناك ثقافة استهلاكيّة تهيمنُ على أغلبِ وسائل الإعلام في العالم، لماذا لا يتمُّ نشر الثَّقافة والفكر الرَّصين عبر منابر الإعلام المختلفة، أين دور المسرح والسِّينما والأدب الرّاقي لنشر الفكر الخلّاق؟!

٣٨) بمَن تأثَّرتِ من الأنبياء والقدِّيسين والرُّسل ورجالات الفكر والحكمة ممَّن كرّسوا حياتهم للسَّلام؟!

٣٩) ماذا يراودكِ وأنتِ تنظرينَ إلى ملايين ملايين البشر وهم غائصون في حياة استهلاكيّة فاقعة، وهم بعيدون كلَّ البعد عن كلِّ ما فيه حكمة وسلام ووئام وكأنّهم لم يفهموا حتَّى الآن لماذا جاؤوا إلى الحياة؟!

٤٠) ماذا تقصدين بالعالم الجديد؟

٤١) إنَّ السَّلام هو أكثر حاجة يحتاجها الإنسان على وجه الدُّنيا، ما هي أنجع الطُّرق لتحقيق السَّلام؟!

٤٢) هذه نقلة نوعية كبيرة في الفكر أساسها الغذاء السّليم، كيف برأيكِ ممكن تبنّيها من أجل إحلال السّلام في العالم؟

٤٣) يبدو لي أنّكِ تتحدّثين عن ثورة صناعية جديدة، أليس كذلك؟!

٤٤) الفكر الخلَّاق، التَّطوُّر وتراكم تقنيّات كلّ العصور، الإنسانيّة بكلِّ سموِّها وأخلاقيّاتها، إلى أين؟! هل الكرة الأرضيّة، في خطر ممّا يموج في فكر الإنسان، أم أنَّ هناك تآلف فيما بينهما لحلِّ المفارقات؟!

٤٥) عمر البشرية ملايين ملايين السِّنين، والحروبُ تزدادُ عاماً بعدَ عام وقرناً بعد قرن، متى سيحلُّ علينا عصر السَّلام وتعمُّ علينا ثقافة السَّلام في كلِّ أرجاء المعمورة وتصبح الحروب من الماضي الغابر؟!

٤٦) تشتغلينَ بهدوءٍ عميق وصبرٍ عندما تكتبين، تترجمين، تقيّمين وتحلِّلين النُّصوص. من أين تستمدِّين هذه الخصوصيّة والفرادة في تواصلكِ مع الحرف والكتابة والتّرجمة والإبداع؟!

٤٧) ماذا ينتابُكِ وأنتِ تشاهدينَ تفاقم الحروب في الكثيرِ من البلدانِ، وما هو موقفكِ من الحروب؟!

٤٨) ما رأيكِ، باللُّغة، الكلمة؟ مندهشٌ كيفَ لا يستطيع الإنسان التّفاهم مع بني جنسه وهو الكائن العاقل؟

٤٩) كيف ممكن أن يعيشَ المرء من دون لغة، أم أنّه حمل اللُّغة في مشاعره الدَّفينة وتشرّبها مع الزّمن؟!

٥٠) لغتكِ حيرى، إنها تخترق الأُلْفَة وتدفع بالحرف نحو أفق الغرابة والدّهشة، كيف تفسّرين ذلك؟!

٥١) كثيراً ما تتحدّثينَ عن ضرورة معرفة النّفس كوسيلة يتحقّقُ بها السّلامُ الرّوحيّ، هل برأيكِ يحتاجُ الإنسانُ بعدَ هذه المرحلة إلى مُعلّمٍ أو مُرشد روحيّ يُكمِلُ معه وبهِ طريق الحياة نحو الكمال والسّموّ الذّاتي والفكريّ؟

٥٢) نحن في زمن وإنْ كثُرَ فيه المعلّمون والأطبّاء الرّوحيّون، فإنّ الحروب مازالت مندلعة في كلّ شِبْرٍ من الأرض، أينَ يوجدُ الخلل؟

٥٣) إنَّ تبنِّي ثقافة السَّلام تتشكّل منذ الطُّفولة، لماذا لا تزرع الأسرة هذه الثَّقافة في نفوس البنين؟

٥٤) كيف يُمكنُ أن نحثَّ الإنسان على السّعي نحو آفاق السّلام وتشجيعه بالتّالي على تفادي الحروب القادمة والحيلولة دون وقوعها؟

٥٥) كيفَ تنظرين إلى ذكريات الطُّفولة، هل ممكن ربطها بما يحدث لاحقاً، وكيف نسترجع الذّكريات؟!

٥٦) هل كنتِ تتخيَّلينَ أنَّ مجموعة حروف وكلمات ممكن أن يترجمها العقل ويحوِّلها إلى فكرٍ وإبداع؟!

٥٧) من هو الإنسانُ إذن من وجهة نظركَ؟

٥٨) ما هي المنابع الّتي رافقت تشكيل وعيكِ وخيالكِ وسموّ روحك نحو آفاق السَّلام والكلمة الخلّاقة؟!

٥٩) كيف تموسقين إبداعيّاً: توهّجات الخيال، انبعاث الذّكريات، صفاء الرّوح وتجلِّيات ألق السَّلام؟!

٦٠) كيفَ تشكَّلَ سموُّ الحرفِ وصفاءُ الرّوحِ كأنّك مجبولة من أجنحةِ سلامٍ ترفرفُ فوقَ طينِ الحياةِ؟!

٦١) متى تكتبين، هل تسمعين خلال الكتابة إلى موسيقى على إيقاعِ هدوءِ اللّيلِ وسكونِ الصَّباح فيولد حرفكِ من مخيالٍ جامح نحو ألق السّماء، كأنّكِ تترجمين تجلِّيات الرّوح في أصفى حبورها معَ السّماء؟!

٦٢) لماذا مازال الإنسانُ غارقاً لليوم في خوفه من الآخر المختلف عنهُ لدرجة أنّه قد يجدُ نفسه مدفوعاً دفعاً إلى ارتكاب أبشع الجرائم والحروب في حقّه؟!

٦٣) نصوصُكِ حافلة بألقِ السَّلامِ والسُّموِّ، من أينَ تستمدِّينَ انبعاث تجلِّيات السَّلام والوئام بين البشر؟!

٦٤) كيف تنظرين إلى الرُّؤيا، الحلم، فيما إذا ظهرتِ لصديقة في الحلم، وأنتِ في كاملِ وئامكِ ووداكِ معها، تتفرغّين لها لبعض الوقت وهي في أوجِ فرحها، هل تتعانقُ وتتواصلُ الأرواح عبر تجلِّيات الأحلام؟

٦٥) ماذا تقرَئِين، وما هي أكثر الكتب الّتي عمّقتْ رؤاكِ في السَّلام والحب والصَّفاء والعدالة الإنسانيّة؟!

٦٦) ما رأيكِ بأدب الحوار حول السَّلام وترويج أدب وثقافة السَّلام وتعميمها في كل أنحاء العالم؟!

٦٧) هل الشِّعر أقرب شموخ إبداعي إلى السَّلام، لأنّه ينبعُ من جوانحِ الرّوح، ويحلِّق نحو مآقي السّماء؟!

٦٨) لديك طاقة روحيّة في استكناه ما في أعماق النّص الّذي تحلّلينه، كيف تشكّلت لديك هذه الطّاقة الخلّاقة، وأنت تسبرين عميقاً ما تدرسينه، كأنّك على علاقة وطيدة مع فضاء المبدع الّذي تدرسينه؟!

٦٩) أدعو كل مبدعي ومبدعات هذا العالم إلى تأسيس مؤسّسات وهيئات دوليّة لرعاية السَّلام وفرضه على كل دول العالم، وتحقيقه عبر هيئات ومنظّمات دوليّة بقوَّة القانون، ما رأيك بهكذا دعوة وهكذا تطلُّع؟

٧٠) كيف ممكن أن يحقِّق الإنسان صوتاً موحّداً مع بني جنسه المجنّح نحو السَّلام ويطلق موقفاً واحداً لإغلاق معامل السَّلاح كي ينقذ البشريّة من كلِّ هذا الخراب والدّمار، ونحن في القرن الحادي والعشرين؟!

٧١) من أينَ تستمدّينَ شعركِ، كيفَ تكتبينَ نشيدكِ وتترجمينَ ما يعتري في مخيالك وتجلِّيات روحك؟!

٧٢) هل تدفُّق الشّعر أقرب من انبعاث الحلم ـ الرُّؤيا، منه إلى تجلِّيات الخيال، أم ينبعث من كليهما معاً؟

٧٣) كيف تسترجع الذَّاكرة ما هو في خضمِّ الذّاكرة البعيدة ومتناثر مثل الغمام في متاهات الخيال؟!

٧٤) كيف وصلتِ إلى حالةِ صفاءٍ ذهني، وقدرة فائقة على تحصين الذَّات والرُّوح من مغبّاتِ الحياة؟!

٧٥) عندك ثقافة موسوعيّة روحيّة دينيّة وفكريّة وأدبيّة، هل رؤيتكِ الموسوعيّة قادتكِ إلى مرامي السَّلام؟!

٧٦) لكِ طقوس في الكتابة تنمُّ عن تشرُّبٍ روحاني عميق، كيف تشكَّلَ هذا النُّزوع الوئامي معَ الكون؟!

٧٧) إذا كل إنسان انطلق من ذاتِهِ وكان مسالماً ونشرَ ثقافةَ السَّلام، سيعمُّ السَّلام في العالم، أليس كذلك؟

٧٨) عندما تترجمين، أو تحلّلين نصّاً، شعراً، روايةً، تبحرين في أعماقِ الحرفِ كمَن يبحثُ عن الدُّررِ المتناثرة في فضاء الكتابة، ما هي الأسس الّتي تنطلقينَ منها أثناء ترجماتك وتحاليلك النّقديّة؟!

٧٩) ماذا يعني لكِ الرّسم جنباً إلى جنب مع الحرف، متى ترسمين، هل ترسمين بحثاً عن تجلّيات الرّوح؟

٨٠) ما هي علاقة صفاء وتجلّيات الرُّوح بالكتابة، هل تنعكس مكنونات الرّوح عبر الكتابة والتّرجمة؟!

٨١) ماذا تعني لكِ الولادة، ولادة طفل، بزوغ الشّمس، نمو زهرة، ولادة فكرة، ... كيف تولدُ أفكارُكِ؟!

٨٢) كيف تقيّمين إلى اليوم القراءات النّقدية التي كُتبتْ بشأن تجربتكِ الإبداعيّة؟

٨٣) مَنْ أنتِ، كيف تلخّصين أسماء غريب، الطّفلة، الشّابة، الأديبة، الشّاعرة، المترجمة، النّاقدة، المفكّرة، التّشكيليّة، مبدعة في فضاء مفتوح على كلّ ما هو رهيف وتصبُّ في مروج السّلام بأبهى صوره وتجلّياته؟

٨٤) كيف تنظرينَ إلى جغرافيّة الكون، الكائنات، الطّبيعة، علاقة الكائن الحي مع الطّبيعة ومع الحياة؟!

٨٥) عندما تتوارى بعض التّدفُّقات الإبداعيّة أثناء الكتابة، هل تستطيعي استرجاع ما توارى عنكِ لاحقاً؟!

٨٦) ماذا يعني لكِ الزّمن، العمر، رحلة الحياة، كيفَ تنظرينَ إلى دقائق الحياة بكلِّ تفاصيلها؟!

٨٧) أيُّهما أكثر تأثيراً على البنين، ثقافة الأسرة أم ثقافة الشّارع والأصدقاء والمدارس والجامعات؟!

٨٨) هل توافقيني الرّأي أن هناك تقصير كبير في نشر ثقافة السّلام عبر المناهج الدّراسية في الشّرق والغرب أيضاً عبر كافّة المراحل الدّراسية ابتداءً من المرحلة الإبتدائيّة حتّى المرحلة الجامعة وما بعدها؟!

٨٩) هل أنتِ قادرة على تجسيدِ رؤاكِ وما يجولُ في مخيالكِ عبر الكلمة أم أنَّ الخيال أكثر رحابةً؟!

٩٠) كتاباتُكِ تمنحُني الفرحَ والسَّلام والهدوء والأمل، هل تكتبينَ من أجلِ أن تمنحي قرّاءك الفرح والأمل؟!

٩١) كيف تفسّرين هذا التنوّع في بوحك الرّوحي لدرجة أنّهُ يُخيّلُ للقارئ أنّكِ تنتمين إلى كلّ الأديان، ولربّما إذا قرأكِ المسيحيّ اعتقد أنّك مسيحية، وإذا اطّلع على أشعارك وترجماتك ونصوصك النقدية العبريّ اعتقد أنّكِ على ملّته، والمُسلمُ قبلهما معاً؟!

٩٢) هل تستطيعُ اللُّغة أن تترجمَ ما يجيشُ في دواخلنا من جنوحٍ نحوَ أعمق فضاءات السَّلام؟!

٩٣) اللُّغة صوت، موسيقى، غناء، فكر، تواصل، كيف ممكن أن نسخِّر هذه الإمكانيّات لخيرِ البشريّة؟!

٩٤) ماذا يتنابكِ وأنتِ تقرَئين أو تترجمين نصّاً عن حيثيات السَّلام، مثلاً: السَّلام أعمق من البحار؟!

٩٥) كيف ممكن أن يكون للأدب والإبداع دور في استنهاض ونشر ثقافة السَّلام في أركان المعمورة؟!

٩٦) هل ممكن استخلاص دين واحد للبشريّة، مستنبط من الأديان كلها أم هذا ضرب من المستحيل؟!

٩٧) إنَّ كل رجل دين لديه استيعاب وفهم دينه بحسب ثقافته وعمق رؤاه، بهذه الحالة نكون بحسب فهم وتحليل رجالات الأديان، أمام ملايين التّفاسير والتّحاليل لِمَا جاء في الأديان، كيف نحلُّ هذه المعضلة؟!

٩٨) يراودني أنَّ الإنسان لم يفهم حتّى الآن الأديان بكل عمق، وهو مايزال بعيداً عن جوهر الدِّين وإلّا لماذا هذا البعد عن جوهر الدِّين ونرى كل هذه الخلافات فيما بين رجالات الدّين؟!

٩٩) كيف نروِّج ثقافة الفرح والحب والسَّلام بين البشر عبر الإبداع والعطاء، وتصبح هدفنا في الحياة؟

١٠٠) كلمة أخيرة، تريدي أن تقولينها حول السَّلام، وأدب الحوار حول السَّلام لتحقيق إنسانيّة الإنسان!

***

كلمة صبري يوسف

لو كانَ منهج البشر في العالم العربي من طينة الأديبة والمترجمة والنّاقدة المبدعة، التَّنويريّة الصّوفيّة المغربيّة د. أسماء غريب، لكُنّا بألف ألف خير، ولما نشبت حربٌ أو صراع ولا تمَّ إطلاق رصاصة واحدة في الشَّرق أو الغرب أو في أيّةِ رقعة جغرافيّة في العالم، فهي مبدعة صوفيّة ولها قلب عفيف رهباني وئامي ومتنوِّر بالمحبّة والعطاء الخلّاق، وروحها صافية صفاء المطر ومبلَّلة بخيرات نعيم السّماء. كم نحن البشر نحتاج هكذا إنسانة بهذا الصَّفاء الرُّوحي والإنساني والعطاء الصُّوفي الرّاقي، كم يحتاج العالم العربي والغربي إلى التَّشبُّع بهذه الثَّقافة الرّوحيّة الرّاقية باستلهام وترسيخ رحيق جوهر الأديان، فقد تمعّنَت المبدعة الخلّاقة أسماء غريب بالأديان السّماويّة، واصطفَتْ من هذه الأديان أرقى ما فيها من تجلّيات السَّلام والوئام والمحبّة بين البشر، وتستشهد بكتاباتها وتطلُّعات آفاقها بما قاله الرُّسل والأنبياء والقدِّيسون من سائر الأديان حتّى يخّيل لمتابعيها أنّها متشرّبة من كلِّ الأديان وكأنّها (يهوديّة مسيحيّة مسلمة) مستنيرة بروحانيّة منقطعة النّظير، إنسانة صافية صفاء نور الصَّباح المنبعث من الشّمس والَّذي يضيء العالم، قرأتِ الأديان السّماويّة والأديان الأرضيّة والآداب العربيّة والعالميّة والفلسفة الشَّرقيّة والغربيّة، ووصلت إلى مرحلة الصّفاء الرّوحي والفكري الخلّاق فيما يخصُّ علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقته بربِّ الأرضِ والسّماء، تدهشني شفافيّة روحها ونقاء قلبها وصفاء فكرها وروعة انفتاحها على كلِّ ما هوَ خيِّر وسلام ومحبّة في الحياة، وتبدو لي كأنّها رسولة المحبّة والكلمة الطّيّبة والسَّلام والوئام بين البشر كلّ البشر، ورأيت فيها مؤمنة كونيّة بكلِّ ما هو إبداعي جميل وروحي وسماوي بطريقة هادئة شفيفة رحيمة حنونة مضيئة مثل شمعة للبشر كلّ البشر، فلا يشعر من يتابع كتاباتها وقراءة أفكارها ومقالاتها وأشعارها وقصصها ونصوصها، إلّا وأنّه أمام طاقة روحيّة فكريّة إبداعيّة صافية ومشبّعة لفعل الخير والفضيلة والمحبّة والتَّواصل مع الخالق

ربّ السّماوات بكلِّ صفاء، وجلّ اهتمامها منصبّ على ترسيخ قيم السَّلام بين البشر.

إنّي أتوسَّمُ بالمبدعة الرَّاقية أسماء غريب كأنموذجٍ راقٍ عن تآخي الأديان، إنسانة منفتحة بروحانيّة عالية على رحابة آفاق الأديان وتستشرف منها رحيقها الأسمى وجوهرها الأنقى وتسير بموجب ما يقنعها من رؤية روحيّة وئاميّة خلّاقة، كأنّها تنتمي إلى دين الإنسان ودين الأديان السَّماويّة المتناغمة مع آفاق ربِّ السّماء، فكم نحتاج إلى تكريس وترويج ثقافة السَّلام بهذه الشّفافيّة والرُّوحانيّة الرّاقية، بعيداً عن تعصّبات دينيّة ورؤية أحاديّة، لأنَّها مبدعة مجبولة بروح العفاف والسَّلام والمحبّة إلى درجة تبدو وكأنّها تبشِّر بدين الأديان والمحبّة والصَّفاء الرّوحي من خلالِ تبنّيها أسمى ما جاء في الأديان، وهي الطّريقة الأرقى في تعامل البشر مع بعضهم بعضاً بتناغم الآفاق الدِّينيّة، بعيداً عن أيِّ صراعٍ أو خلافٍ، متوقِّفةً عند كلِّ ما هو روحيّ وإنساني ووئامي لتعميق ثقافة السَّلام والمحبّة بين البشر كلّ البشر على مدى كلِّ الأزمان!

***

تكتب الأديبة المبدعة د. أسماء غريب، حرفها بماء الذّهب الصّافي، بالنَّدى، بالماء الزُّلال، بهفهفات هبوب النّسيم، بإشراقة الشَّمس، بانبعاثات أحلام الطُّفولة، بصفاء زرقة السّماء، ببسمة النّجوم وهي تضيء حنين الرّوح إلى البيت العتيق، تكتب وكأنّها في حالة حلمٍ مفتوحٍ على فراديس النَّعيم، رحلات حرفها تموج بغبطة الرُّوح وهي في أرقى تجلِّياتها، تموسق حرفها على إيقاع المحبّة والسَّلام والفرح المنبعث من نور الأزل، تنسج حبورها بحرفٍ مكتنز بماء الحياة، لأنّها تجسّد عبر غوصها في دنيا الحرف الحياة بعينها، بكلِّ جوهرها وصفائها، أشعر وكأنّني عثرتُ على جوهرة نادرة في هذا الزّمان، جوهرة متلألئة بأزاهير الوئام بين البشر، ترفرفُ مثل يمامة بيضاء فوق وجنة الحياة، مفروشة الجناحين وهي تعبر البحار

بحثاً عن ضياء الرُّوح المبرعمة في كينونتها منذ الأزل، أسماء غريب رسالة فرحٍ وحبٍّ وعشقٍ للحياة، للحرف، للسماء، للكون، لأجيالٍ قادمة على مدى الأزمان، روحها ترفرفُ فوق قبّة الحياة مثل شجرة وارفة الأغصان، تظلّلُ أحزان الدُّنيا، تناجي حزانى هذا العالم كي ترسمَ بسمة الحياة فوق وجوههم التَّائهة في تلافيف الغمام، يرتشفُ حرفها حبره من نسغ المحبّة المتهاطلة من لدنِ السَّماء، تكتبُ حلماً ساطعاً فوقَ خدودِ اللّيل، أسماء غريب قصيدة مفتوحة على أجنحة الكون، مجنّحة نحو أقاصي حنين السّماء، رسالة مبرعمة من هدوء اللّيل ومن شهقة الصَّباح ومن زخّات المطر، مطرٌ منساب فوق طين الحياة، تكتب حرفها وهي في أوج شموخها مع ضياء السَّماء، كأنّها في حالة حبورٍ مفتوح على جنان الخلد، تشبه أشجار الجنّة، يتناثرُ حرفها مثلَ ينبوعٍ صافٍ فوق خدود الأطفال، طفلةٌ من لون السَّوسن والياسمين الدِّمشقي، أسماء غريب غابة فرحٍ مسكونة بأزاهير مهجة الرُّوح وهي تتصاعد نحو بركات الأعالي، هي بركة السّماء عبر حبر القصيدة، لونُ المحبّة الصَّافي صفاء الحلم المنساب من مآقي السّماء، تنسجُ حرفها من طين السَّلام وهي في أوجِ صفائها الرّوحي، يرقص قلبها ألقاً وضياءً كلّما تبرعمَ حرفها فوقَ خميلة اللَّيل في صباحٍ باكر، تناجي الكائنات بلغةِ أريجِ الزُّهور، وخيوط الشّمس وهدهدات المطر عبر اخضرار القلب، وتجسِّدُ حرفاً من لون الحلم الغافي فوق أهازيج الرّوح الملأى ببخور المحبّة المنبعثة من جفونِ الأعالي، أسماء غريب مبدعة نادرة من لونِ المحار المزهرة في أعماق البحار، هديّة من نورِ الشَّمس إلى زمنٍ يزدادُ انشراخاً، كأنّها جاءت كي تخفِّفَ من حدَّةِ الانشراخ، وترسمَ في أوج تجلِّياتها طريقَ القصيدة المنساب نحو أبهى مرامي الوئام بين البشر!

***

رحلة موفّقة حافلة بالتّجلِّيات الإبداعيّة في تدفُّقات رؤاك الصَّافية صفاء المطر المتهاطل من مآقي زرقة السّماء، أتمناها لكِ في غوصكِ العميق في التَّعبير

عن آفاقكِ الشّاهقة المجنّحة نحو أبهى يراعِ الصّفاء والسُّموِّ والرّقي ودقّة التّحليل والولوج إلى أعماق ما يجول في خاطرك من أفكار ورؤى وتحاليل تصبُّ في آفاق السَّلام والمحبّة والفرح والوئام بين البشر كلّ البشر، لعلّنا عبر هذا الحوار نحقِّق الأهداف المنشودة في أدب الحوار ونقدِّم معاً الفائدة المرجوّة للقارئ والقارئة، ونعمِّم فكرة أدب الحوار، لأنّنا الآن أحوج ما نكون للحوار مع ذواتنا ومع بعضنا ومع الكون، لأنّني أرى أنَّ البشريّة غائبة كليّاً عن أدب الحوار مع الذَّات ومع الآخر، فهي أي البشريّة والبشر في معظم الأحوال منغلقين على ذواتهم ولا يعبِّرون عمّا في دواخلهم، بحثاً عمّا يفيد الإنسان والإنسانيّة وعمَّا يفيدهم أفراداً وجماعات، ممّا أدى هذا التَّجاهل إلى كل هذا التَّداخل والتَّناحر بين الشّعوب والمذاهب والأقوام والقارّات، فولدت الصِّراعات وتنامت الحروب بين البشر، لعدم تفهُّم البشر لذواتهم أولاً ولذوات الآخرين ثانياً، ونحن كبشر برأيي ذاتٌ واحدة منشطرة ومبرعمة إلى ملايين ملايين الذَّوات، لهذا عندما نتواصل مع الآخر كأنّنا نتواصل مع ذواتنا المنشطرة والمبرعمة عنَّا أو عن البشر أنفسهم عبر ملايين السّنين، ونَحُنُّ لهذه الذّات مثل حنين الطّفل إلى صدر أمه وطفولته وحياته في كنف محبِّيه.

هذا الحوار حول السَّلام العالمي، حوار مع الذَّات ذاتي، لأنّني أشعر وأرى وأقرأ إجاباتكِ، كأنّكِ تحلِّلين ما في أعماقي في الكثير من الأحيان، وأعماق ملايين البشر ممَّن لا يستطيعوا بطريقة أو بأخرى أن يعبِّروا عن أنفسهم، لهذا أشعر بغطبة وفرحٍ وسعادة عميقة، كلّما أقرأ لكِ ردّاً على كلِّ سؤال أسألك إيّاه، حتّى أنّني أشعر في قرارة نفسي أنّ هناك عشرات بل مئات الأسئلة ممكن أن أسألها إيّاك من خلال إجاباتك، وما ينسحب علي ممكن أن ينسحب على الكثير من المتابعين والمتابعات، فيراودهم عشرات الأسئلة أيضاً، وهكذا نكون عبر حوارنا قد خلقنا تفاعلنا مع أنفسنا ومع الآخر ومع الكون المحيط بنا، لأنّنا الآن وغداً وفي كلِّ حين، أحوج ما نكون لهكذا حوار، لأنّه يفتح آفاقنا على ما كان غائباً عنّا على

مدى قرون من الزَّمان! فلماذا لا نغوص في أعماقنا الرّهيفة ونقدِّم تساؤلاتنا وإجاباتنا على طبق من فرح ومحبّة وسلام للبشر كلّ البشر وبطريقة وئاميّة، لعلّنا نحقِّق الأهداف المنشودة لإنسانيّة الإنسان، ونترك بصمةً على وجه الدُّنيا تليق بنا كبشر بطريقة إبداعيّة وخلّاقة قبل أن نحلِّقَ عبر أرواحنا في زرقة السّماء؟!

صبري يوسف
أديب وتشكيلي سوري مقيم في ستوكهولم
رئيس تحرير مجلّة السَّلام الدَّوليَة

١) كيف تعرِّفين السَّلام من خلالِ تجربتكِ في الحياة ومن خلالِ حاجة الإنسان للسّلام والأمان؟!

السّلامُ حالة سامية من حالات الموتِ الأكبر، وربطي لهُ بالموت لمْ يتأتّ أبداً من فراغ، فعلى الإنسانِ؛ كلّ إنسان أن يموتَ لكيْ يصلَ إلى مقام السّلام الحقّ. وأقصدُ هنا بالموت: الموتَ عن الماضي، والموتَ عن الحاضر، والموتَ عن النّفس، والموتَ عن الموت نفسه، لأنّ السّلام هو قيامة اللهِ داخل الجسد الإنسانيّ، وداخلَ القلب والعقل والرّوح. فقط بهذا النّوع من الموت يمكنُ أن تتحقّق هذه القيامة أو الولادة. كلّ إنسان يولدُ جنيناً واللهُ بداخله، فيأتي الأبُ والأمّ، ثم الأسْرة والمجتمع، والقبيلة والعشيرة، ثمّ تُجّارُ الدّين واللّاهوت فيقتلون جميعهم هذا اللهَ الحيّ بداخل الوليد الجديد، يقتلونَه بأفكارهم وبتعاليمهم وقوانينهم وتشريعاتهم ويجعلون منه مسخاً، يصارع نفسَه بنفسه، وينفصمُ عن روحه بين ما يفرضُه عليه الآخرون وبين ما يريده هو أن يكون حقيقة.

الموتُ الذي أتحدّثُ عنه شيء رائع حقّاً، وإذا كنتَ تعرفُ عزيزي القارئ كيف تتحدّثُ إليه وتتواصلُ معه فستراه حالةً من الاسترخاء والعودة إلى مركز الوجود، هناك حيث توجد تلك الحياة التي لم يتعرّفْ عليها سوى القلّة القليلة جدّاً من البشر، حياة بِكر، لا خوف فيها ولا حزن، والإنسانُ فيها هو سيّد الكون، هذا الإنسان الذي أدعوك إلى التّواصل معهُ من جديد، لأنه هناكَ منذ زمن بعيد، ينتظر منكَ أن تلقي عليه نظرةَ عطف ومحبّة وحنان، فلتنظر إليه معي الآن، إنّه بداخلك وفكّرْ بصمتٍ وصبر في حالك ونفسكَ، كيف أنّك ذات يوم كنتَ طفلاً، ثم شابّاً ثم أصبحتَ شيخاً، وكيف أنّك قاسيتَ كثيراً في هذه الحياة، وكيف أنّ كلّ التَّجارب تمرُّ وأنتَ مازلتَ بداخلكَ، أنتَ أنتَ، لم تتغيّرْ، انظر إلى ذاتك الواعيَة، إنها لا تشيخ أبداً، إنَّها الطّفلةُ أبداً الّتي لا تعرفُ كمْ بلغتَ من العُمر، لأنّ في داخلكَ لا يوجدُ عُمر ولا زمانٌ ولا وقت، فأنتَ الوعيُ والفكر، وأنتَ الرّوح والحياة، وأنتَ الّذي خلقهُ اللهُ

على صورته، وقال بشأنه: كلٌّ من عليها فانٍ ويبقى وجهُ ربّكَ ذو الجلال والإكرام. أنت هُو هذا الوجه، وهذه الصّورة، وهذا الَّذي قال فيه المولى وهو في موقف الملائكة: إنّي أعلم ما لا تعلمون. لأجلِ هذا أقول لك، لا تخَفْ من أفكاركَ، ولا تخَفْ من عمركَ، ولا من تجاربكَ وآلامكَ، فكلّ شيءٍ إلى زوال، كالضّيوف يدخلون إلى البيْتِ ويغادرونه، ويبقى صاحبُ البيْت كما هو: أنت البيتُ إذن، والأفكار وتجاربُ الحياة هُما الضّيوف، فاحذر أن تصبحَ وضيوفَك شيئاً واحداً، لا بدّ لك من مسافة تضمنُ لك الحفاظَ على كينونتك الإلهيّة، فأنتَ الثّابتُ الّذي لا يتغيّر، وأنت المُتفرّج الّذي يرى كلّ شيء، والباقي ليسَ أنتَ أبداً، لا جسدك، ولا حزنك، ولا جوعُك، ولا دمعُك ولا مرضُك يدوم، كلٌّ شيء يزول وتبقى أنت: وهذا هو السّرّ الّذي أدركَهُ بعض المتصوِّفة الكبار، وإذا أدركتَهُ أنتَ أيضاً فقدْ عرفتَ السّلام.

السّلامُ حالة من النّقاءِ والعذريّة، يستدعي العُزلة حتّى يمكنكَ أن تطّلِعَ على ذاتكَ من الدّاخل وتصلَ إلى السّرّ، دعني أضربْ لكَ مثلاً عن عذريّة السّلام: الكلّ يعرفُ مريم العذراء، أليس كذلك؟ لكن قلّة هُم أولئك الّذين يعرفون جيّداً معنى عذريّتها، حتّى أنّ هناك لليوم من لا يعترفُ بها، ويعتبرها وابنَها قصّة من نسْج الخيال الدّيني أو اللّاهوتيّ أو الكهنوتيّ. نعم، هناك من لا يعترفُ بعذريّة مريم، لأنه يربط العذريّة بالمفهوم السَّطحيّ المتداول لدى الجميع، ومازال هناك من يسألُ مريمَ عن ابنها كيف أتتْ به بدون أبٍ؟ وهناك أيضاً من ينسبُ عيسى إلى يوسف النّجار. كلُّ هذا يحدثُ لأنّ الناسَ لا يعرفون معنى السّلام، ولو عرفُوه ما اتّهموا مريم أبداً، ولفَهموا أنّ بلوغ مريم أقصى حالات السّلام هو سرُّ عذريّتها. لقد اعتزلتْ مريم النّاسَ، وخلت بنفسِها فحلّ المسيح في أحشائها، وهي لهذا أراها سيّدة السّلام الأولى بدون منازع. عذريّة الرّوح لا تتأتّى أيّها السّادة الكرام إلّا بالعزلة، ولا فرق في هذا بين امرأة أو رجل، ومريم كانت تجلسُ بصمتٍ في عزلتها، وحينما غشيَها شعاع النّور حُبِلَتْ. لقد كانت عذراء بكلّ ما في الكلمة من معنى. والمسيح لا

يمكن أن يكون أبداً ابن يوسف، إنّما هو ابن مريم فقط، لأنّها عرفت كيف تصلُ إلى أعلى درجات السّلام، أيْ كيف تنعزل من أجل أن تستقبلَ ضيفاً عزيزاً. يهمّني جدّاً أن تعرفَ أيُّها القارئ العزيز، أنّك إذا عزلتَ نفسك، ستصبحُ أنتَ في داخلك، واعلم أنّه إذا تحقّقتْ لكَ هذه العزلة، جاز لك أن تسأل نفسكَ: من أنتَ؟ صدّقني ستعرفُ الجوابَ بدون شكّ، إلّا أنّكَ سوف تحتفظُ به لنفسكَ، لكيْ لا تُنعتَ بالجنون:

((حلَّ اللّيْلُ
يا قلبي الدّرويش
وتوقّفَ كُلّ شيْءٍ عنِ المسير
فتمهّلْ أنتَ أيضاً
وأصخ سَمْعَكَ
لألحانٍ تعزفُها العُروقُ،
تمهّل وأغلقْ عينيْكَ
لترى جمالاً مكتوماً بداخلكَ
تمهّلْ واتركْ نفسَكَ،
لأمواج الذّكريَاتِ العبقة
تدغدغُها وتسامرُها،
انظُرْ هناك
من دواخلكَ البعيدة
تترامَى أنوارٌ
شموسٌ وأقمارٌ
تقِفُ وتستَجْدِي
لحظةَ اكتشافٍ مِنْكَ

تأمّلها يا قلبي الدّرويش
ولا تُدِرْ إليهَا ظهركَ
فهي عيونٌ تتلألأُ
عشقاً لكَ
وهي أيْدٍ تفيضُ
عطاءً منكَ ولكَ.
تأمّلها ولا تنمْ
وإن عانقَ النَّومُ خاصرتكَ
وانظُرْ هُناكَ
مِنْ دواخِلِكَ البعيدة
يترامى وجهُكَ
مُنيراً، مُشْمِساً ومُقْمراً
وابتسامةٌ تصاحِبُكَ
حتّى صباحَ اليْومِ الآخَر)).

***

٢) أعتقد أنّ القارئَ سيجدُ صعوبة كبيرة في استيعاب فكرة العُزلة الَّتي تتحدّثينَ عنها، وسيسألكِ عن كيفيّة تحقيقها في زمنٍ لا يسمحُ للإنسان بالانعزال عن أيّ شيء تماماً، لربّما فاتكِ أنّ الإنسانَ عليه أيضاً أن يسعى إلى رزقه، ويخرجَ للعمل، ويختلط بالنّاس، وإلّا فإنّ حياته ستتوقّفُ، أليس كذلك؟

هذا سؤال مهمّ ومنطقيّ للغاية، والعزلة الَّتي أتحدّثُ عنها عزلة فكريّة، عزلةُ مبدأ وقضيّة. والسّلامُ هو قضيّة القضايا الكبرى، ومن الطّبيعي أن يرى القارئُ أنّ الوصولَ إليه عبر العزلة الفكريّة سيكون صعباً أو مستحيلاً، وخطابي هنا أوجّههُ لمَنْ يعرفُ معنى أنْ تكونَ قابضاً على الجمْر: فالحياة كلّها مطالب ومغريات وتحدّيات، لكن عليكَ أن تختار عزيزي القارئ في أيّة جهة تريد أن تقفَ؟ حينما ستطّلعُ على ذاتكَ من الدّاخل وتعرفُ نفسَكَ من هيَ، ستكون مضطرّاً إلى الاختيار الصّعب بين خياريْن: إمّا أن تكون من أهل السّلام، أو تكون من أهل الغفلة والاحتجاب عن الحقيقة. وإنّي لأعتقدُ أنّه حان الوقت لأقول لكَ بأنّ التّاريخَ الرّوحي للإنسان هو تاريخ كسلٍ وتواكلٍ: لا أحد يريدُ أن يتعبَ من أجل الرّقيّ بنفسه، لأنّ الأمرَ صعبٌ للغاية ويقتضي الكثيرَ من الجُهد والصّبر، ولأجل هذا عملَ الإنسانُ خلال الحقب والسّنين الماضية على اختيار أشخاص مُعيّنين جعلهُم أنبياء وقدّيسين وكهنة وأولياء ورجال دينٍ يتولّون أمور الرّوح والإصلاح والإرشاد بدلاً عنه، هذا أسهل بالنّسبة إليه، أسهلُ من أن يكون كلّ إنسانٍ نبيَّ نفسه ووليّ روحه، قادراً على التّغيير والتّطوّر إلى الأفضل من أجل ختم مسار الحياة بالنّجاة. وهذا يعني أنّكَ عزيزي القارئ في سبيل تحقيق الإصلاح والإرشاد والسُّموّ بالوكالة قرّرتَ حتّى عدمَ الاستماع إلى كلمات الخالق –غير تلك المخطوطة في الكتب المقدّسة–، على الرّغم من أنّه في تواصلٍ مُستمرّ كلّ يوم وفي كلّ لحظةٍ معكَ، وهي الحقيقة التّواصليّة الَّتي تخشى تصديقَها، لأنّك بالرغم ممّا تبديه من إيمان ويقين فإنّك مازلتَ تشكُّ في نيّة الله تجاهكَ، وهذا الشّكُّ سببه الخوفُ، الّذي أراه يتضخّم كلّ

يوم أكثر فأكثر إلى أن أصبح قوّةً تسدُّ كلّ السّبل نحو اكتشافكَ لحقيقتكَ الإلهيّة. وهذه القوّة ذاتُها الّتي تسمّيها أنتَ بالشَّيطان، فهل ستصدّقني إذا قلتُ لكَ إنّ إبليس لا يوجد، وإنّ الإنسانَ بسبب خوفه يخلقُه في كلّ يوم وبأكثر من شكلٍ، ويمدُّه بالطّاقة اللّازمة لتحريكه وتفعليه وتجسيده!

سأختارُ لكَ آيةً قريبة منكَ، وسأنتقيها من القرآن وذلك حتى تتأكّدَ من صحّة ما أقوله لكَ، وهي الآتية: ((إنّما ذلكُم الشَّيطانُ يُخوّفُ أولياءَهُ، فلا تخافونهم وخافونِ إن كنتُم مؤمنين)). ألا ترى أنّ الخوفَ في هذه الآية مرتبط بالشَّيطان، وأنّ هذا الأخير هو الخوف عينُه؟ وهو لهذا السَّبب يصفه اللهُ دائماً بالعدوّ المبين.

كل فشل وكلّ هوانٍ في حياة إنسان إنَّما هو بسبب الخوف. تذكّر هذه القاعدة جيّداً. وانزع عنكَ الوساوسَ وأنتَ في حضرة ذاتكَ العليا، وتذكّر أنّكَ إذا تخلّصتَ من خوفكَ ستصبحُ كما الأنبياء، في سلامٍ دائمٍ. ألا تستحقُّ السّلام؟ فلتسْعَ إليه إذن بيديْن منفرجتين وقلبٍ باسم.

لكن حتّى هنا عليك أن تنتبهَ جيّداً، لأنّ السّلام ثمنه باهظ جدّاً، وقد يصل إلى الموت. تذكّرْ أن أهل السّلام الأوائل فيهم من عُذّب وفيهم من قُتل، بسبب خوف النّاس من الحقائق الكبرى. ستجدُ الكثير من النّاس حولكَ يستغربون كيف أنّكَ تعيشُ هذه التَّجربة الرّوحيّة وهُم لا، وستسمعُ الكثير منهم يقولون في ظهركَ وغيابكَ إنّكَ على ضلال بيّن، وإن كلامكَ يشبهُ كلام الملحدين والمجانين، ولكن عليكَ أن تعلمَ أنّ هذا يحدث لأنّهم لا يستطيعون مقاسمَتكَ الفرحَ والسّلام الدَّاخليَيْن. إنّها نسبيّة الأفكار الإنسانيّة الّتي لا تقومُ على قيمة محدّدة ومطلقة، هي المسؤولة عن كلّ هذا، وهذه النّسبيّةُ لا بدّ لها دائماً من قُطبيّة تقوم على محورَيْنِ متعاكسيْنِ، الأوّل موجب هو الحبّ والسّلام، والثّاني سالب هو الخوفُ والحرب: واعلمْ أنّهُ كلّما أحبّ الإنسانُ شيئاً سعى إلى تدميره بسبب الخوف. عيسى مثلاً أحبّه النَّاسُ، ثمَّ حينما ظهر لهم في صورة ملكوتيّة خافوا منه فكان ما كان، الشّيءُ نفسه حدث مع

عليّ ومع الحسين (ع)، ومع غيرهم جميعاً من أهل المحبّة، وعدمُ قدرة الإنسان على تصديق الذّات الإلهيّة هي سبب الدّمار الّذي يعيشُ فيه النَّاس إلى اليوم. الإنسانُ يخافُ من الذّات العليا باستمرار، ويشكُّ فيها وهذا يعني أنّ مصير الإنسان نفسُه يُصبح مشكوكاً فيه. إذا شككتَ في ذاتكَ العليا وابتعدتَ عن حقيقتكَ الإلهيّة، فأيّ سلامٍ تريد؟!

((حينمَا جلسَ يسوعُ إلى المائدةِ
لمْ يكنْ ذاكَ عشاءَه الأخير
وإنّي حقّاً لا أعرفُ لماذا تصرّونَ إلى اليوم
على إشاعةِ هذه الكذبة الكبيرة
أَلَمْ يكْفِكُم ما فعلَهُ بهِ الفريسيّون؟!
هيّا، قُمِ الآنَ يا يهوذا وانطقْ بالحقيقة؛
قُل لهُم إنَّ المائدةَ لمْ تزَلْ منصوبةً
ويسوع لمْ يَزَلْ جالساً إليْها!

*

أعلمُ جيّداً أنّكَ لنْ تفعلَ ما آمُرُكَ بهِ
فمازال رؤساءُ الكهنةِ يشترونَكَ كلَّ يومٍ
بثلاثينَ مِنَ الفضّة!
وإن كنتَ تُنْكِرُ هذا أيضاً فقُلْ لي إذن:
مَنْ قطّعَ جَسَدَ جدّي رَعْ
ورماهُ للكلابِ في كلّ أرضِ مصر؟
ومَنْ ألقى بيوسُف فِي البئر،
ومَنْ سرقَ قصورَ أمِّي نفرتيتي،
ومَنِ استولى على شجرةِ مريم؟

بلْ مَنْ قطَعَ رأسَ أخي يحيى،
ومَنْ بَاعَ أرضَ الكنعانيّين إلى الذّئابِ،
ومَنْ أشعَلَ فتيلَ الحروب في بلاد آشور وسومر
أَلَسْتَ أنتَ منْ فعلتَ
ومازلتَ تفعلُ هذا كُلَّ يوم؟
*
عبثاً تستمرُّ في الكذب يا سمعان
فالمائدةُ منصوبة شئتَ أمْ أبَيْتَ
ومازال يسوع حيّاً يُرْزَقُ بَيْنَنَا
شِئْتَ أمْ أبَيْتَ
والعشاءُ مازال هُوَ هُوَ لا حَمُضَ ولا تعفّنَ
فعلومُ الحقّ لا تحمُضُ، ولا تجفُّ أنهارُها أبداً
وهيَ وحدها خبْزُنَا وعسلُنا وخمرُنا
ولبَنُنَا الّذي بهِ نُذْهِبُ ظمَأنَا
ومائدتُنا إنْ كنتَ لا تعرفُ
هي جسدُنا وأرضُنَا وسماؤنا الوهّاجة
ويسوعُ مازال يؤَذِّنُ فيهَا
قائماً بكلمةِ الحيّ القيّوم الدّيموميّ الأزليّ
ومريمُ مازالتْ تُرَفْرِفُ حولنا تُضَمِّدُ جراحَنا،
وتمسحُ دمعَنا وتُشْعِلُ شموعَ المحبّة في قلوبنَا
شئتَ أمْ أبَيْتَ
ولتذهبْ أنتَ ومَنْ معكَ إلى الجحيم
وخُذْ معكَ هواتِفَكَ الذكيّة ومحطّاتكَ الفضائيّة

وأقمارِكَ الصّناعيّة وجواسيسَكَ الآليّة
وحروبَكَ البيولوجيّة
ولا تنسَ قبلَ هذا وذاكَ،
أنّني مازلتُ جالسةً إلى المائدة
أحملُ الشّمسَ فوقَ رأسي
وأشربُ مِنْ عطرِ أبي يسوع
وآكلُ مِن خبزه الحيِّ الّذي لا يموتُ أبداً
شِئْتَ أمْ أبَيْتَ!))

***

٣) هل لكِ أن تُوضّحي للقارئ أكثر فكرةَ الخوف هذه أو ما اتّفقَ النّاسُ على تسميّتهِ بإبليس، أوَليْسَ اللهُ من خلقَهُ وبإمكانهِ أن يحُدَّ من سيْطرتهِ على الإنسان، ومِنَ الأضرار النّاجمة عنهُ؟

سأعطيكَ مثالاً من خلال تجربة بسيطة جدّاً: تخيّلْ نفسكَ الآن في غرفة مكتبِكَ، والوقتُ مازال مبكراً عندكَ، ولأنَّ الشَّمسَ مازالتْ لمْ تبسُطْ بعدُ أشعّتَها الكاملة على المدينة، فإنّك ستُشعلُ ضوء المصباح في الغرفة لتتمكّنَ من الرّؤية بشكل أوضح والكتابة بتركيزٍ أكبر. سأطلبُ منكَ طلباً وما عليكَ سوى أنْ تنفّذه: قُمِ الآن وأطفئ ضوء المصباح. لقد حلّ الظَّلام، أليس كذلك؟

أشْعِلِ الضّوء مرّة ثانية وقل لي ماذا ترى؟ النّور طبعاً، وبه ظهرتْ كلُّ الأشياء في غرفتكَ وأصبحتَ تراها بشكل أوْضَح. جميل جدّاً، فالظّلام إذن شيء وهميٌّ، لا يَنْوَجِدُ إلّا إذا غاب النّور، وهذا يعني أنّه الحالة المضادّة للضّوء. وأنّه إذا أراد الإنسانُ أن يطرد الظَّلام، ما عليه سوى أن يلجأ إلى النُّور. هكذا هو الخوف؛ لحظةُ ظلامٍ يغيبُ فيها النّور، وهذا هو إبليس في مفهومه الحقّ. النّور موجود

ودائم وأبديّ، والظّلام لا وجود له إلّا في غياب النّور، وبمعنى أكثر دقّة ووضوحاً، النّور هو الحبّ والسّلام، والظّلام هو الخوف والحرب، ومن الخوفِ تنبع كلّ المشاعر السّلبيّة بما فيها الحقدُ والكراهيّةُ والغيرة والحسد وهلمّ جرّاً. هناك طريقتان للعيش: أن تكون مسكوناً بالخوْف، أو أن تكونَ في صحبة الحبّ والعشق والسّلام، وما عليكَ سوى أن تختارَ طريقكَ الأنسب. لا يمكنُ أن يتوقّفَ الإنسانُ عند الخوف، ويقول إنّني سأحاربهُ، لأنّه لن ينجح في كلّ الأحوال، وأنّى له ذلك وهو المنشغلُ بمحاربة شيء لا يوجد بتاتاً، وبهذا فإنّ خوفَهُ سيُصبحُ مركّباً، وقد يقودهُ ولا شكّ إلى الجنون، لأنّه يصبحُ خائفاً من كلّ شيء، بل خائفاً من الحياة بأسرها. الوسيلة الوحيدة للخروج من هذا المأزق، هيَ الحُبّ الكامل والسّلام الحقيقيّ، الحبّ وحده يطردُ الخوف أو الشّيطان. الحبُّ يُعلّمكَ كيف تنفتحُ مع نفسكَ أولاً، وكيف تنفتحُ على الآخرين، وكيف تعيشُ في أمان دون أن يهاجمكَ الخوفُ من الغد ومن نتائج الأشياء، لأنّكَ ستعيشُ الزّمانَ والمكان، وتكونُ هنا وهناك وفي أيّ وقت تشاء. ستقول لي إنّ الإنسانَ فشل فشلاً ذريعاً فيما أسمّيه بدرس الحبّ والسّلام، وسأمدّكَ لإيضاح هذا الدّرس بمثال آخر قريب من لغتكَ وواقعكَ اليوميّ: في علاقة "الحبِّ" بين العديد من الأزواج لا يوجدُ سوى الحبِّ الكاذب؛ وإن كانوا يدّعون العكس أمام الجميع. لماذا أقول هذا؟ لأنّ معظم المحبّين اليومَ يعيشونَ في خوف مستمرّ؛ فالرجلّ يخاف من زوجته ويشكُّ في سلامة نيّتها، وهي كذلك تخافُ منه ولا تأتمنه على نفسها وحياتها وأسرارها، وهذا ليس بحبٍّ بتاتاً، وما هو سوى عقدِ زواج مُبرم بين شخصيْن خائفيْن، لا قدرةَ لهما على كسر العوائق والحواجزِ، ويتخاصمان بشكلٍ مستمرّ، ويستغلُّ الواحدُ منهما الآخر، ويراقبُ الواحدُ منهما الآخر، ويغارُ الواحد منهما على ومِنَ الآخر، ويصبو كلّ واحدٍ منهما إلى تَمَلُّكِ الآخر بشكل كاملٍ ومطلق. وهذا كله يجلبُ التّعاسة للجميع. لا يحتاجُ الحبُّ إلى صلاةٍ أو معبد. يحتاجُ فقط إلى التّخلّص من الخوفِ، وإذا ما وقع الإنسانُ في

الحبّ حقيقة، فإنّه يجدُ الطّريق إلى السّلام بشكل تلقائيّ، لأنّ الله هو الحبّ، والنّور الّذي بهِما تتحرّكُ الأكوان. وهو الحرّيّة من كلّ التّبعيّات والأغلال، فأنتَ خُلقتَ حرّاً، ولا يريدُ الخالقُ أن يتدخّل في أمورك وحياتكَ، وإلّا فما قيمة صنعتهِ فيكَ ولكَ؟ أليسَ لتكون حرّاً وتعيش جسدك وروحك ونفسك كما تريد، ولتختار الطّريق الّذي تريد؟! فالحرّيّة هي أن تشعرَ بعظمة الله كخالقٍ لك، والشّعور بهذه العظمة هو الّذي سيحقّقُ لكَ الوجودَ والسّلام:

((حبيبي،
يا فارسَ النّورِ والنّار
إنّني أنا الرَّبّةُ أوشُونْ
فاترُكْ ما أنتَ فيه
واخرُجْ إليّ
واستمِع لما يُلقِيهُ الماءُ
بيْنَ يديْكَ ويديَّ:
لأجلكَ أوْجَدْتُ نفْسِي بنفْسِي
طبيبةً لروحكَ الباحثةِ عنّي
في الغيْبِ مُنذُ الأزل.

*

حبيبي،
يا فارس الكهوف والوديان
إنَّني أنا سيّدةُ الرّيح والجِياد
فاتركْ جبلَ التّيه والحَيْرة
واخرج إليّ
ولتتذكّر أبداً

أنّكَ حينما قلتَ لي اظْهَرِي
بزغتُ في سمائكَ
نجماً سَنيّاً
وسقيتُكَ منْ ثدْيِي
حليباً طاهراً زكيّاً
وحينما حبوتَ عندَ بابِ الحرفِ
حملتُ الرّبيع إليكَ
وأريتُكَ كيفَ تنمو الأقاحِي
وتُزْهِرُ أشجارُ البلّوط والصّنوبر
وكيف من بينِ دمعةٍ وبسمة
تَخْرُجُ اليمامةُ ضاحكةً
لتهدلَ بأجمل التّسابيح والتّرانيم
عند قدميْكَ وقدَمَيَّ
*
حبيبي
يا فارسَ المحبّة والعشْق
إنَّني أنا سيّدةُ المناجلِ والحصاد
فاترُكْ بحرَ الوهْمِ والغرقِ
واخْرُج إليّ
فلّاحاً كنتَ أو نجّاراً
طبيباً كنتَ أو حدّاداً
شاعراً كنتَ أو صيّاداً
تعال،

أينما كُنتَ وكيفمَا كُنْتَ
ولن يهمّني أبداً
من أيّ زمانٍ أتيتَ
فكلّ الأزمنةِ عندي واحدة
ما دمتُ أنا صاحبتُها
تعال،
واشرحْ صدرَكَ لنورِي الأزرق
وَضَعْ جبهتكَ بين يديّ
لأفتحَ بنفخٍ منّي
عينَ قلبِكَ الأخضر
وأُذُنَهُ البيضاء
كيْ ترانِي كما أراكَ
وتسْمَعنِي كما أسمعُكَ
*
حبيبي
يا فارسَ اللّيل والنّهار
إنّني أنا سيّدةُ السّفن والبحار
فاتركْ فيافي الجوع والعَطش
واخرجْ إليّ
لأعطيكَ سلطانَ الكواكب والنّجوم
وأُطْلِعْكَ على حدائقِ جسدِكَ السّرّيّة
علّكَ تكتشِفُها رُكناً ركناً
كما لم يكتشفْهَا أحدٌ

من قبلكَ بعْدُ
ولتَعْلمْ يا حبيبي
أنّني أمُّ الأبِ
وأُخْتُ الزّوج وابنتُهُ
وأنّني النّون والقلمُ
وحوتُ يوشع وعصَا موسى
واللّبؤة والأفعى
والبقرةُ والنّاقة
والنّحلة والعنكبوت
وأنا الدّمُ والنَّبيذ
والعسل والقطران
والأيّام والأعوام
تعال،
فأنا الرّبّةُ الَّتي وُلِدتْ
في الثَّامن من آذار)).

***

٤) كم من الأنبياء والقدّيسين والأديان جاؤوا ولم يتحقَّق السَّلام على الأرض، على مَن يقع الحق؟!

الأديان مؤسّسات ناموسيّة، قائمة على منطق القانون، والثَّواب والعقاب، وهي لأجل هذا لمْ ولن تستطيعَ أن تنجح أبداً في تحقيق السّلام على الأرض وفي قلوب النَّاس. إنّ كلّ شيء يقوم على القانون ينبعُ من منطق الخوف، وكلُّ شيء يقوم على الخوف لا يمكنه أن يعرف الطّريق إلى الحبّ أبداً. معظمُ المعتقدين في

الأديان والمؤمنين بها، تتعلّقُ قلوبهم بالجنّة وتخشى النّار: لا يوجد أحدٌ يحبّ الله من كلّ قلبه ومن كلّ نفسه، لأنّه يفتقرُ إلى منطق الحياة الّذي تكبته الأديان في قلوب النّاس. الدّين كالقانون، يفرض الخوف، والحبُّ تعبير واضح وصريح عن عدم الخوف. كثيراً ما نسمعُ في حياتنا اليوميّة أنَّ القانون هو سيّد المجتمع، لكنّنا لا نتساءل أبداً عن المعنى الحقيقي لهذه العبارة، ولو تأمّلناها للحظة واحدة سنجدُ أنّها تعني أنّ كلّ المجتمعات تعيشُ في خوف مستمرّ من العقاب، لكن لك أن تتخيّل معي كيف لو كان الحبّ هو سيّد المجتمع، لا شكّ أنّ حياة النّاس ستكون آمنة وسالمة من كلّ المنغّصات والآلام.

مشكلة النّاس اليوم أنّهم يكثرون الحديث عن الحبّ دون أن يعرفوا ماهيّته وحقيقته أبداً: الطّفل في البيت يجد أمّه صباح مساء توصيه بأنْ يحبَّ أباه وأقاربه، كذلك في المدرسة يحدثُ الشَّيء نفسه، لكن لا أحد يقول لهؤلاء الأطفال إنّ الحبّ لا يحتاجُ إلى تعليم، فهو إمّا ينبعُ من داخلك وإمّا لا. من يعلّمُكَ الحبّ يجني عليك دون أن يدري، لكن من يتركُ لك حرّيّة الإحساس بالحبّ والاطّلاع على نبعه الفيّاض في داخلك، يكون حقّاً قد دلّك على الطَّريق السَّليم. الحبّ لا يحتاج إلى وصايا، أو تعاليم أو نواميس وقوانين، وإنّما يحتاج إلى حلول السّلام في القلب، وهو السّلام الّذي لم تستطِع الأديان أن تحقّقه لأنّها حينما شغلتِ النّاسَ بالجنّة أنتجتْ لنا جماعات هائلة من الطّامعين، فظهر من يعلنُ الحروبَ ويشعلُها من أجل هذه الجنّة، وحينما شغلهتم بالنّار أنتجتْ لنا جموعاً غفيرة من الخائفين والمرعوبين! أرأيتَ عيسى يا عزيزي القارئ؟ هل وصلكَ خطابُه؟ هل تعرف من هو حقيقة؟ دعني أعرّفكَ به إذن: إنّه الرّجل الوحيد الّذي جاء ليقلبَ نواميس الأديان رأساً على عقب. لأنّه لم يأتِ بقانون أو شريعة أو ناموس، وإنّما جاء فقط بالمحبّة، لأجل هذا لم يتقبّله تُجّارُ الدّين حينما ظهر، وحاكموه بمنطق القانون واعتبروه مجرماً وعاقبوه على درس المحبّة، ولعلّ طريقته في تعامله مع تلك المرأة الزَّانية

أصدق مثال ودليل على ما أقول: إنّه لا يُدين أحداً، لأنّ الدَّيّان الحقيقي هو الله ولا أحد غيره. ألّا تُدِينَ أحداً يعني أنّكَ أصبحتَ مُعلِّماً، وليس رجلَ دين متنوّر فقط، لأنّ الفرقَ بين الاثنين شاسع جدّاً. من الممكنِ أن تُصبح متنوّراً، لكنّه من الصّعب جدّاً أن تكون مُعَلِّماً، لأنّ مسار الحالتيْن أو الصّفتيْن مختلف تماماً. المتنوّرُ وإن كان رجل دين مقيّدٌ بالأطماع، والمُعلِّمُ متحرّرٌ بالحبّ والعطاء والكرم. وسأعطيك عزيزي القارئ مثالاً على هذا الفرق بين المتنوّر والمُعلّم، فالرّاهبُ الشّابّ مثلاً قد يكون مجرّد متنوّر يحفظ الطّقوس، ويحافظُ على العبادات، ويحرِمُ جسدَه وعقلَه من المغريات، لكنّه على الرّغم من ذلك لم يحدث بداخله التَّنوّرُ الحقيقي الَّذي يرفعُه إلى صفة المعلّم، لأنّ الطّاقة الّتي بداخله قد تحوّلتْ إلى كبتٍ يستحيل معهُ أيّ تحوّل أو تفتّح صادق وفعّال.

الرّاهبُ أو السّالكُ (بغض النّظر عن عقيدته أو ديانته) الّذي لا يتزوّج مثلاً، أو لا يعرف النّساء أبداً، قوّتُه أو نارُه الجنسيّة تتحوّل إلى كبتٍ يعوقه عن العروج إلى سماوات الملكوت، لأنّ الأنثى ضرورية جدّاً لهذا النّوع من العروج، إنّها المرآة الّتي تُحقِّقُ التَّعرُّفَ على النّفس، والشَّيء نفسه ينطبق على المرأة "الرّاهبة" أو العارفة أو السّالكة في الطَّريق. واسألْ عزيزي القارئ أهلَ الفيزياء عن هذا الأمر يخبرونَك بأنّ كلّ طاقة لا تنتهي أبداً وإنّما تتحوّلُ، والطَّاقة الجنسيّة الَّتي أنا بصدد الحديث عنها الآن، إذا لم تُوَجَّه بالشّكل السّليم فإنّها تتحوّلُ إلى كبتٍ، وكلّ كبْتٍ هو مدمّر للطبيعة البشريّة، وثمّة من رجال الدّين من يستخدمُ هذا الكبتِ في الدّخول إلى باب الطّمع وتحقيق الغايات القصوى من الحياة الكهنوتيّة أو العرفانيّة، وهذا ما يُفسِّر ما سجّله تاريخ الدّيانات من تطاحنات دمويّة قاتلة في جيراركيات الكنائس والمعابد والمؤسّسات الدِّينية الأخرى، وما قام به بعد ذلك المتصوّفة من تصفيات لبعضهم بعضاً بدافع من الغيرة والحقد والحسد.

أن تتحوّل من درجة المتنوّر إلى درجة المعلّم يعني أن تحترق بنار الحبّ، ولا يكفي أن تكون من أهل العمل فحسب، أو من أهل العِلم فقط. لا بدّ أن تجمع في طريقك بين جهادك للنّفس والجسد، وبين عملكَ على العقل ونارِكَ المقدّسة.

***

٥) ماذا تقصدين بأهل العَمَل وأهل العِلم، وهل لكِ أن توضّحي فكرتكِ عن النّار المقدّسة وعلاقتها بطاقة الإنسان؟

رجال التّنوّر لا يسلكون طريقاً واحداً، وإنّما هُم مختلفون باختلاف الطّرق الّتي تؤدّي إلى الله، لكن الّذي يحدث أحياناً –وهذا ليس بالأمر الجيّدِ طبعاً– أنّ البعض منهم يكتفي بطريق واحدٍ، فيصبح إمّا من رجال العمَلِ وحده، وإمّا من رجال العِلم، أو من أهل القلبِ فقط، والحقيقة أنّ المتنوّر الحقّ ليصلَ إلى درجة المُعَلّم، عليهِ أن يجمع بين كلّ هذه الطّرق والمسالك. ومن لديه خبرة ودراية بماهية الجسد البشري، سيعرف جيّداً قيمة ما أقول، لأنّ هذا الجسد هو على درجتَين: فيه العقلُ؛ وهو المرشدُ الأعلى، وفيه النّار المقدّسة، وهي طاقة الحياة، والعقل هو المتحكّمُ في النّفس يُذَكِّرُها بأصلها النُّورانيّ، ويدعو مركبة الجسد إلى الصُّعود إلى أعلى، ويُذَكّر النّفسَ بأنّ كلّ عذاباتها وأمراضها هي مجرّد خيال ووهمٍ يُمكنُ حرقهُ جيّداً بالنّار المقدّسة والّتي كثيراً ما تحدّث عنها الله في العديد من نصوصه أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر هذه الآية القرآنيّة الّتي يقول فيها: ((وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ، إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى، فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ، إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)). هذه النّارُ بيتُها الأوّل هو أسفل الظّهر وإذا اهتدى إليها مُوسى– العقلُ دعَاهَا إليه وأمسكَ شعلتَها بيديْه وارتفع بها إلى الأعلى ليحرق بها كلّ الشّوائب، وأنار بها بقيّة "أهله" الّذين هُم القلبُ والفؤاد والرّوح والحواسّ، ويجبُ أنْ

أذَكِّرَ وأنا في هذا المقام بأنّ هذه النّار تَضْعُفُ إذا استهلكَها الإنسانُ كاملةً بإخراجِها من باب الشّهوة الجنسيّة المبالغِ فيها، أو عن طريق الجَشع والنّهم والأكل الكثير، لذا فإنّه من المستحسن أن يعمل كلّ إنسان يرغبُ في سلوك طريق النّور أن يحافظ على مَنْيِهِ ومائِه لأنّهُ طاقة مقدّسة وذلك بأن يقنّنَ الممارسة الجنسيّة، وألّا يحرقَ عقلَه وجسدَه بالتُّخمة الّتي لا تجرّ إلّا الوبال والمرض، وأنْ يقلّلَ من الكلام، لأن اللّسان مُهدر كبير لطاقة الإنسان، وأن يغضّ ما استطاع بصره عن النّظر إلى المغريات لأنّها تسرقُ الطّاقةَ عبر العين.

النّار المقدّسة شيءٌ مهمّ في جسد الإنسان، لأنّ بها يتمُّ العمل على العقل والقلب، وهو ما اصطُلِحَ عليه لاحقاً بعمل الرّوح القُدُس. العقلُ والقلبُ هما كآلة العود إذا لمْ يعرفِ الإنسانُ كيف يضبطُ أوتارها جيّداً بحيثُ لا تكون مشدودةً جدّاً، ولا مرنةً أو مُرتخيةً بشكل مبالغ فيه، فإنّه لن يُقَدِّمَ معزوفتَه الخاصّة الّتي تميّزهُ عن بقيّة النّاس. ومن الأخطاء الّتي مازال يرتكبُها الإنسان لليوم، اعتقادهُ أنّ طاقتَه تنبع من قلبه فقط أو من عقله أو منهما معاً، في حين أنّها تنبع من سُرّتهِ لا غيْر. لا أحد ينظرُ إلى الوردة ولا إلى الشّجرة ويستوعبُ حقيقةً أنّ جذورَها هي سببُ حياتها. الكلّ ينظرُ إلى رأس الوردة يقطفه ويشمّه، أو إلى رأس الشّجرة يجني ثمارَه وأزهارَهُ. لِذا أقولُ لكَ عزيزي القارئ إنّ الإنسانَ هو بمثابة الشّجرة الواقفة وجذورهُ في سرّته، وهي المكان الوحيد الّذي منه يستمدُّ الطّاقة وينفتحُ بهِ على الوجود.

كلّ مجتمعٍ يعتمدُ على العقلِ فقط، يكونُ مجتمعاً فاسداً وممتلئاً بالمجانين والمهووسين، والشَّيء نفسه بالنّسبة للمجتمعات الّتي تهتمُّ فقط بروحانيّاتِ الجَسد. العقلُ وحدَه لا ينفعُ، لأنّهُ آلة حسّاسة وهشّةٌ جدّاً، وليس لها كلّ القدرة والطّاقة اللّازمة من أجل تحمُّل ضغوطات الحياة بما فيها القلقُ والغضب والألم، والإجهاد النّفسيّ وما إلى ذلك، لأنّهُ في الأخير سيعلنُ فشَله ويتوقّفُ عن العمل الصَّحيح، وهذا هو السّبب وراء كثرةِ المختلين عقليّاً والمرضى النّفسيين في المجتمعات

المعاصرة. على كلّ إنسان أن تصبح غايتُه تحقيقَ أعلى درجات الصّمت في حياته اليوميّة، وأعني هنا الصّمتَ المصاحَبِ بالسّماع والاستماع والاستمتاع. قد يبدو الأمر صعباً، لكنّ العقلَ لا يمكنه أن يعمل حقيقةً وبشكل خلّاق إلّا إذا تحقّق له الصّمتُ والسّماع الكاملَيْن. كلّ إنسان مطالبٌ بهذا الصَّمت من أجل التّواصل مع مركز الطّاقة الأهمّ في جسده وهو السّرّة. وهذا يعني العودة بالعقل إلى حياةِ المشيمة حيث الصّمت الّذي لا يعادله صمت، وحيث الهناءة والوداعة والسّلام. كلّ إنسان بدأ حياتَهُ هكذا، لكن الأخطاء الّتي ارتكبتْها الحضارات والثَّقافات والأديان في هذا المجال لا تُغتفرُ أبداً.

في المجتمعات البدائية كانتِ الأمُّ بمجرّد أن يُقطعَ الحبلُ السّرّي الّذي يربطُها بطفلها، تُسارعُ مباشرة إلى تعويضه بثدي الأمومة، وكانت – وهي الّتي لم تكنْ لا بالمثقَّفة ولا الفيلسوفة ولا الطّبيبة – تعرفُ جيّداً كيف تنتقلُ من مركز السُّرّة إلى القلبِ، وتربطُ قلبَها بقلبِ رضيعِها عبر الثَّدي، الشَّيء الَّذي يعني أنّ الطّفلَ كانَ ينمو بالمحبّة والسّلام. وكانتِ الأمُّ لا تحبُّ أبداً حرمانَ ابنها من حليبها إلَّا بعد أن يبدأ هو وعن طيب خاطر في الابتعاد عن الثّدي بعد أن يصبح عمرُه ثلاث سنوات وفي حالات أخرى حتّى أربع سنوات.

اليوم وقد تغيّرتْ وضعيةُ المرأة وانتقلتْ من حالة البداءة إلى حالة العقل والثَّقافة والتَّمدّن والتَّحضّر، أصبحت ما إن يُقطَعُ الحبل السّرّي حتّى تُلقمَ طفلَهَا زجاجة الحليب الاصطناعيّ فتُضَاعِفَ من ألمه وحرمانه بفصل سُرّتهِ عن سُرّتها، ثمَّ قلبِه عن قلبها. وهذا ما يفسّرُ كيفَ أنّ الثَّقافةَ السّائدة في الغرب هي ثقافة العقل، وذلك لتعويضِ ما تمّ فقدانُه في كلّ القرون الماضية من علاقةٍ بين السّرّة والقلب. بل هذا ما يُفسّرُ أيضاً كيف أنّ العديد من رجال الثّقافة الكبار والمشهورين في العالم الغربيّ عانوا في حياتهم من الجنون أو من الأمراض والآلام العقليّة المختلفة. والمرأةُ قد ساهمتْ بشكل كبير في هذا الخراب الرّوحيّ. لذا تجدُ أنّ الإنسان في

مساره الحضاري قد عوّضَ صورتَها حتَّى في الدّائرة اللّاهوتيّة والإيمانيّة بصورة الإلهِ –الأب، ولم يعترفْ قطّ بصورة المرأة –الإلهة، وفي أقصى الحالات أعطاها درجة "أمّ الإله"، وليست بالإلهة أبداً. أمّا على مستوى الحياة اليوميّة، فانظرْ كيف أصبح الأبناءُ يعاملون أمّهاتِهم في كلّ ركن من العالم: لا يوجد هناك احترام، ولا محبّة، ولا مودّة. لأنّ جُرحَ الأبناء في أمّهاتهم عميق جدّاً ولا يستطيعون أن يغفروا لهنّ ما ارتكبنَه في حقّهم من جريمة حينما منعنَ عنهم الثّدي واستبدلنهُ بقنّينة زجاجيّة أو بلاستيكيّة يبحثن فيها بشكل أو بآخر عن طريق يوصلهم جميعاً؛ أمّهات وأبناء إلى ماضي السّرّة والقلب. لأجل هذا أقول إنّ ثديَ المرأة شيء مقدّس والله لم يخلقه عبثاً، وإنّما جعله بوابةً إلى عالم الرّوح وملكوت السَّلام: انظر إلى لوحات الفنّانين الكبار وستلمس بنفسكَ مدى الحرمان الَّذي تعيشه الإنسانيّة. الكثير من الفنّانين يرسمون أثداء النِّساء بشكل رائع وبديعٍ، ويعبّرون فيه جميعُهم عن مدى حاجتهم الشَّديدة إلى الحبّ والحنان والأمن والأمان.

لا يمكنُ للنّساء أن يطلبن المستحيلَ وهنّ يعانين من عنف الرَّجل في كلّ مكان؛ عنفه في الشَّارع، عنفه في العمل ثمَّ عنفه في البيت. إنّها كارثة حقيقيّة ولن ينقذكم منها أيّها النّاس سوى المرأةِ نفسها، وهي الآن مطالبة أكثر من غيرها بالعودة إلى سُرّتها وثديها، حتَّى تقود أبناء العالم إلى مركز الطّاقة الحقّة، وحتّى يجدَ العقلُ طريقه إلى الطَّمأنينة والسَّلام.

***

٦) مفارقة عجيبة عندما نرى السَّلام والتّنوير يحلُّ في دولة غير دينيّة مثل اليابان، وهي في أوج تحضُّرها وسلامها مع ذاتها ومع الكون، ونرى حروباً مدمِّرة تقوم ركباً في دنيا الشَّرق، في أرضِ الأديان؟!

ملاحظة على قدرٍ عال من الأهمّيّة وهي تذكّرني بصورة لإنسان غريب حاول أن يخلقَهُ أهل اليابان منذ مئات السِّنين، وأعني به الرّجُلَ السّاموراي، أو الرّاهبَ المُحارِب، وقد كان اليابانيون يعوّلون كثيراً على هذه الصُّورة الجديدة للإنسان لأنّها في عرفهم الأكثر كمالاً وتعبيراً عن احتياجات عصرهم وما عرفهُ من تغييرات سياسيّة بالغة التَّعقيد آنذاك. لكن الَّذي يثير تساؤلي في هذه الصُّورة هو كيف يمكن أن تجتمع صِفتا الرّاهب والمحارب في إنسان واحد، أليس الأمر فيه نوعاً من التَّناقض؟ لا أعتقدُ أنّ اليابانيين كانوا بهذا المستوى من الضُّعف الفكريّ حينما أرادوا للرّاهب أن يخرج من معبده ويكون أيضاً محارباً، لأنّ الحياة بأسرها تقتضي المعرفة بفنون القتال بمعناه الكفاحيّ الرّوحي أكثر منه كفاحاً مُسلّحاً، وهذا يعني أنّ كلّ إنسانٍ هو مَعْنِيٌ بالقضاء على منظومة الخوف بداخله واقتلاعها من جذورها مع التَّحلّي بالشّجاعة اللّازمة لخوض تجربة الحياة. وهذا ما يُفسّرُ كيفَ أنّ اليابان حينما تبنّت فكر المصباح في يد الرّاهب إلى جانب السّيف منذ سنوات أصبح لها شأن عظيم اليوم. وإذ أقول المصباح والسّيف فإنّني أقصدُ أن يصبحَ كلّ إنسان سيفاً من حيث الانضباط والشَّجاعة والحرِّيّة، وهذا أمرٌ يحقّقهُ العقلُ، أمّا المصباح أو القنديل فأعني به التَّنَوُّرَ الرُّوحيّ وهذه مهمّة ثدي الأمّ وقلبِها ملتئماً مع قلب ابنها أو ابنتها. لاحظ معي، أنّ العالم أصبح اليوم منقسماً إلى جزأين: غربٌ يحمل السّيف، وشرق يحمل المصباح، ولا أحد من الاثنين لديه القدرة على أن يحملهما معاً. الشّرق ضائع بين كتبه المقدّسة وتأويلاتها وشروحاتها الّتي لا أوّل لها ولا آخر، والغربُ منهمك في علومه العقليّة الّتي ما أوصلته إلّا إلى صناعة الأسلحة الأكثر فتكاً بالبشريّة. وهذا يعني أنّنا مازلنا بعيدين جدّاً عن واحة السّلام. وكلّ ما

كان يبدو سلاماً في حقبة ما من تاريخ الإنسانيّة، إنّما هو هدنةُ استعدادٍ لحروب أكثر ضراوةً وشراسة. السّلام يأتي من الدّاخل، والحال أنَّ قلوب النَّاس تغلي كالمراجل بالأحقاد والضَّغائن فلا سلام في الأفق. مازال نهرُ الحبّ الحقيقيّ لم يتدفّق على الإنسانيّة والكلّ في محنة كبيرة. فقل لي بالله عليك يا عزيزي القارئ، بأيّ إله يبشِّرُ كلّ هؤلاء الأنبياء والعرفاء الجُدُد؟ بل ما الَّذي يريدونه منكَ مقابل "رسالاتهم": جنّات الخلد، سماوات فسيحة من الملائكة والقدّيسين والأنوار؟ يا إلهي ما أشدّ طمعهم جميعاً، لا أحد يفكّر في الله حقّاً، وإنّما الكلّ يبحث عن مقابل ماديّ كبير، وأينه السّلامُ في كلّ هذه المهزلة الكبيرة، بل أين الله؟ مقصيٌّ كما العادة لدى الجميع: الكلّ عينُه على الحور العين والفراديس والقصور والغلمان والذّهب والفضّة والخمر المصفّى، لا أمل يا إلهي في أحدٍ، وما جاء أحدٌ اليوم إلّا وبشّرَ بالجنّة كمقابل. نعم كمقابل لأيّ شيء؟ لمعرفتكَ وعبادتكَ؟ وهل أنت في حاجة إلى عبادة أحد؟ ما أضعفَ النّاسَ وما أشدّ جحود القلوب. مرارة ما بعدها مرارة!

لن يتحقّق السَّلامُ ما لم يعرفِ النّاسُ معنى الخسارة: يجبُ أن تنتفض أيُّها الإنسان كما الشّجرة في الخريف. عليك أن تتعرّى وتعرفَ كلّ شيء عن الحرمان، علّك ترى الله بداخلك، عندها صدّقني سوف يتساوى عندكَ كلّ شيء ولن يعنيكَ في شيء أن تكون نبيّاً ولا وليّاً ولا قدّيساً، لأنّ الغاية هي ألّا تكون، وما دمتَ كائن ولا شيء يطفو منكَ سوى أنت فلا سلامَ سيسطعُ في سمائك. والمرأة في هذا تتساوى معك أيّها الرّجل: المرأة النَّبيّة بأمومتها، والقدّيسة بكفاحها من أجل غدٍ أفضل، والوليّة بنضالها لكي تقدّم أبناءَها زهرة الحياة لمجتمع يزهو بها ويعتبرها سيّدة العالمين.

وتذكّرْ أنّ ما تسمّيه أيُّها الإنسان حبّاً في حياتكَ إنَّما هو مجرّدُ كمّية قليلة من الكراهية في قلبكَ، وما تسمّيه سلاماً إنّما هو نسبة قليلة من الغضبِ في قلبك، ما دمتَ لم تقرّرْ يوماً أن تحبّ حقيقة، لأنّكَ لو تفعل هذا سوف يتدفّقُ عشقُكَ حتّى على الأشرار، وستفعلُ كما الله: تدعُ الشَّمسَ تشرقُ على الجميع، والمطر يسقي

الجميع بالخير والبركات دون التّمييز بين صاحب خطيئة أو معصية، وبين صاحب فضيلة أو خُلُقٍ حسن!

***

٧) هل تريدين القول إنّنا تجاوزنا مرحلة الجنّة والنّار والنّعيم والعذاب؟

لكلّ جنّته وناره، يطّلعُ عليهما في الحياة الأولى قبل الرّحيل إلى الحياة الجديدة. وحتّى هنا فإنّ الإنسانَ وحده هو من يُحدّدُ أين يكون: جنّة خالدة، أو جحيم مُستعِرة إلى الأبد. والجنّة هي حالة روحيّة، والجحيم كذلك، وكلّ ما له علاقة بالرّوح تتجسّدُ صُورُه، وهذا يعني أنّ عملَ الإنسان يأخذُ صوراً معيّنةً حينما يتعلّقُ الأمرُ بالعالم الأثيريّ. الجنة والنَّار مفهومان كيميائيّان خالصان، وهمَا نتيجتان منطقيَّتان لعمل كلّ إنسان وتطوّرِه المعراجيّ، ولأنّ النّاسَ لليوم يعتمدون في عملهم على معرفتهم العقليّة، فإن حياتَهُم حالة من الجنون الخالص، وكيف لا وقد فقدوا الطّريق الأمثل إلى المعرفة الّذي هو القلبُ ثمّ الرّوح. عقلُ الإنسان اليوم أصبح عبارة عن مستنقع وا أسفاه، في الوقت الَّذي كان من المفترض أن يكون عقلُه كقلبهِ بئراً، لا مستنقعاً ولا بُحيرةً. والفرق بين البئر والمستنقع كبير جدّاً. حينما أتحدّثُ عن العقل المستنقع فإنّني أعني العقلَ الَّذي يعتمدُ في معرفته على أبجديّة الآخرين بما فيها الكتب المقدّسة، وكتُبِ الحضارات الأولى القديمة الَّتي لم يستطع لليوم أن يُجدّد فيها أحد إلّا بما هو عقلٌ محض، يعتمدُ على نقل الأفكار لا تجديدِها، الكلّ منشغل بما قاله القرآن وبما قالته الأناجيل والكتب المقدّسةُ الأخرى، وبما قاله الفلاسفة القدامى، وبما قاله العرفاء الأوائل، والشّرّاحُ والمترجمون والمفسّرون ورجال الدّين والعلوم والقانون والطّبّ وما إلى ذلك، وكلّ واحدٍ من هؤلاء يعتبرُ نفسَهُ مُجَدِّداً، ولأنّه مجرّد مستنقع فإنّكَ تراهُ يعيش في خوفٍ مستمرّ من أن يأخذ أحدٌ من مائه ويحملَه إلى مستنقعٍ آخر ليتبنّاه كفكرٍ خاصّ، ألمْ تسمعْ بظهور قوانين حفظ الملكيّة الفكريّة؟

وعن أيّ فكرٍ يتحدّثُ كلّ هؤلاء، والإنسانيّة آلت اليوم إلى ما آلت إليه من جنون شامل أقصى تمظهراته هي الحروب المندلعة في كلّ مكان؟!

أقول "المستنقع" لأنّ الأمر فيه نوع من الاجترار، وهذا أمر لا يمكن أن يوافقني عليه إلّا أصحاب القلوب والعقول المتنوّرة، الّذين لا يمكنهم أن يتحمّلوا ولو لدقائق قليلة الجلوسَ مثلاً في قاعة للندوات أو المؤتمرات الّتي تُعقد يوميّاً من أجل مناقشة قضيّة فكرية أو إنسانيّة ما: إنّ المثقفين والمفكّرين اليومَ على اختلاف درجاتهم وانتماءاتهم لا يقدّمون سوى الأطباق الحامضة: لا جديد، لا جديد! ولو كانت العقولُ آباراً لاختلف الأمر. البئرُ لا تحتاج لماء يُجلبُ لها من مستنقع ما ولا من بحيرة كيفما كانت، لأنّ ماءَها ينبع من داخلها، ويتجدّدُ باستمرار. لأجل هذا فإنّ المعرفة النَّابعة من الدّاخل أيْ من البئر الإنسانيّة الأولى هي مرتبطة بالمحيط مباشرة، أيْ بذاتِ الإنسانِ العليا، وهي لهذا معرفة إلهيّة محضة تتجدّدُ كلّما نهل منها النَّاس، ولا يخافُ صاحبُها من السّرقات الفكريّة، ولا من أيّ شيء من هذا القبيل، لأنّه يعلمُ جيّداً أنّه كلّما تقاسَمَها مع الآخرين كلّما كانت المنفعة أشمل. دعني أضربْ لكَ وللقرّاء من خلالكِ مثالاً بسيطاً عن المعرفة والعلم البئريّ هذا. هل تتذكّرُ محمّداً، الفتى الطّاهر الّذي ظهرَ في صحراء قاحلة، وخرج على قريش بعلم جديد لا قِبَل لأحد منهم به أبداً، وهو الّذي كان أمّيّاً لا يعرف القراءة ولا الكتابة؟ نعم هو ذاك، وجيّد جدّاً أنّك تعرفه، وتعرفُ أيضاً أنّه ظهر العديدُ من البحّاثة ليقولوا بأنّ محمّداً لم يكن أمّيّاً أبداً، وإنّما كان يعرف القراءة والكتابة ظنّاً منهم أنّهم هكذا سيرفعون من شأنه ويساوون بينه وبين غيره من أنبياء آخرين. إنّ من يُحاول عدم الإقرار بأمّيّة محمّد إنّما يفعل هذا لأنّ ليس لهُ دراية بعلوم البئر كيف ولماذا تتفجّرُ في القلب والرّوح؟ ألمْ يقُلِ اللهُ إنّهُ قد علّمَ آدم الأسماء كلّها؟ إذن هذا كافٍ جدّاً، ويعني أنّ كلّ المعرفة الحقّة هي كامنة بداخل أجسادكم الّتي هي بمثابة الآبار، وما عليكم سوى أن تفجّروها لتعرفوا حقيقتكم الكبرى وتتعرّفوا على

الخالق من خلالها. لقد تحدّث اللهُ كثيراً عن الآبار في كتبه الأولى، وكان دائماً يعني بها آبار العلوم اللّدنيّة، لكن لا أحدَ يُنصتُ إلى كلماته كما يجب الإنصاتُ حقّاً. هل تتذكّرُ بئْرَ هاجر، وبئر يوسف، وغيرهما من الآبار الأخرى؟ أنتم لم تأتوا إلى هذه الحياة لتتعلّموا وإنّما لتفجّروا آباركم، ولتتذكّروا علومها، كم مرّة قالها الله: اذكروني أذكركم. مسارُ التَّذكّر هذا هو أكثر أهميّة من مسار التَّعلّم.

محمّد الصّبيّ الأميّ تفجَّرتْ بداخله البئر، وغرفَ من علومها وتحدّثَ بما لم يتحدّث به أحد قبلَه، فكان رحمة لأهل الرّحمة وكارثة لمن لمْ يستوعبْ حقّاً الحقيقَة المحمديّة من أهل قريش وغيرهم. هذا كلّ ما في الأمر. عليكم أن تستوعبوا فكرة واحدة: الإنسانُ كما هو اليوم في حالة احتضار، وعليكم أن تساعدوه على الموت حتّى يولدَ إنسانٌ آخر جديدٌ مكانَه، يكونُ قادراً على الاهتداء إلى سبيل العلوم اللّدنيّة الّتي فيها خلاصكم. أنتم لستم بحاجة إلى أن تصبحوا مجرّد ببغاوات في غابة الإنسانيّة الكبيرة تردّدون على مدى العصور ما قاله القدماء دونما إدراك ولا وعي ولا بصيرة. عليكم أن تهجروا المستنقعَ وتبحثوا عن البئر في أجسادكم:

((جسدُكَ

مدينةٌ لم يفتَحْهَا بعدُ أحد

ولا أنتَ عرفتَها يوماً

ولا رأيتَ حُرّاسَها الشِّداد الغلاظ

ولا حَلّقْتَ في سماواتها الحُمْرِ

أو ركبتَ أطباقَها الخُضْرِ المُضيئة.

جسَدُكَ

كونٌ ما بعدهُ كون

وأبوابٌ

ما وقفتَ عند عتباتِها

ولا طرقْتَهَا بالسَّمْعِ والسّماعِ
ولا بالنُّور ولا بالنّار.
جسدُكَ
بئر مظلمةٌ
والمصباحُ فيها مُنطفئ
وا أسفاه
وأنا مُندهشةٌ جدّاً
كيفَ أنّك لليومِ
تقولُ إنّ النّهارَ صحوٌ
لا غيْم فيه
والقنديلَ مُشتعلٌ
وزيتُهُ كثير
فإمّا أنّكَ أعمى
وإمّا أنّي سكرانة
ولا أنتَ ترى البيتَ
ولا أنا أعرفُ الطّريق إليه؛
أعني إلى جسدكَ
وجَسدِي
وأجسادِهم؛
بيوتاً مظلمة
ولا نورَ فيها
وا أسفاه.))

إنَّها حكاية الأعمى والسّكران في كلّ زمان ومكان. وهنا مربط الفرس أيُّها القارئ العزيز. إنّني بصدد فتح قناة هذا الحوار الجديد معكَ، لأحفرَ في بئركَ الدّاخليّة وأجعلكَ تتخلّصُ من موروث المرحلة السّابقة. نعم، أعلم أنّ هناك مثلكَ ممّن قضى لليوم عمرَه يدرسُ ويحشو عقله بالكتب الشّاهقة في شتّى المجالات، لكنّكَ الآن أنت مقبل معي على مرحلة جديدة من حياتكَ. عليك أن تُحدّدَ من أنتَ؟ وإلى أينَ أنتَ ذاهبٌ؟ وهل وصلتَ إلى نبع الماء في بئرك الدّاخليّة حقّاً، أم أنّكَ مازلتَ تحفرُ وتزيلُ العوائق والحواجز الواحدة تلو الأخرى. ولتتذكّر أنّه ليس عليك فقط أن تنفض عنك غبار القراءات الماضية، وتفتحَ قلبكَ على مصراعيْه وتجعلَهُ مستعدّاً لعلوم الذّات العليا، ولكن عليك قبل كلّ شيء أن تتذكّرها لا أن تتعلّمَها، فالتَّذكّر أمرٌ مهمّ للغاية، والذّاكرة تحتاجُ منكَ لأن تفرغَها من كلّ الرّواسب العالقة بها من ماضيكَ العقليّ والعقلانيّ القريب. ولتتذكّر أيضاً أنّ العقل الإنسانيّ اليوم هو بحاجة شديدة إلى هذه الوقفة التأمّليّة، للدخول في حضرة الصَّمت والإنصات إلى الأشياء من الدّاخل، ويكفي الإنسانيّة جنوناً وتيهاً وعطشاً وجموداً ما بعده جمود.

***

٨) لماذا نرى نسبة كبيرة من البشر، ترتكبُ فعل الشّر أكثر من فعل الخير والفضيلة والسّلام؟!

هذا يرتبط بمدى حُبّ الإنسان لنفسه أو عدمه، والحال أنّ معظم النّاس يكرهون أنفسَهم، فهُم يرتكبون الشّرّ ويتلذّذون به وبنتائجه أكثر من فعل الخير. وحينما أقول إنّ النّاس يكرهون أنفسهم، فإنّي أقصد بالكراهيّة تلك الَّتي تستمدُّ مشروعيّتها من الوصايا والأحكام الدّينيّة. معظمُ نصوص اللّاهوت وفي كلّ الدِّيانات تُحَذِّرُ الإنسانَ من نفسه، وتقولُ له إنّها الأفعى الَّتي تسعى بين جنبيْه والَّتي عليه أن يحاربَهَا بدون هوادة ليضمن لروحه النّجاة، ولأنّ الكثيرَ من النّاس يملكونَ خيالاً خِصباً في تأويل

الوصايا والتّعاليم، فإنّكَ تجدُهُم يطبّقونها بحذافيرها مكتفين فقط بالمعنى الظّاهريّ الّذي غالباً ما يقول لهم: "أبغض نفسَكَ وأحبَّ الله، هذا هو الخلاص". ومن هذه المُلاحظة يحقُّ لي أن أتساءل وإيّاكَ أيُّها القارئ العزيز وأقول: ما الّذي استفدناه من كراهية الإنسان وبغضِه لنفسِه؟ الواقع العالميّ المَعِيش مِن حولنا يقول: آلافٌ مؤلّفة من الشّباب فجّروا أنفسَهم في الكنائس والمساجد، في المعابد والأسواق، وفي التَّجمّعات التّجارية والشَّوراع. أليس كذلك؟ كلّ هؤلاء فعلوا هذا، لأنّهم "يحبّون الله"، ويكرهون أنفسَهم.

المسلم الّذي يقتُل المسيحيّ، يقوم بذلك لأنهُ يُحِبُّ الله؛

المسيحيّ الّذي يقتل المسلمَ، يقوم بذلك لأنّه يُحبُّ الله؛

اليهوديُّ الّذي يقتلهُما معاً، يفعل ذلك، لأنّه هو أيضاً يحبُّ الله؛

والبوذي الّذي يقتلُ المسلم، يقوم بذلك لأنّه يُحبّ الله ربّما أكثر منهم جميعاً، واللّائحة تطول طبعاً.

طيّب، إذا كانت محبّةُ الله تتسبّبُ في كلّ هذا الألم والعذاب، فمن يكون هذا اللهُ الّذي من أجله يتقاتَلُ كلّ هؤلاء؟! لا شكَّ أنّه سفّاك يحبّ الدّماء ونحن لا ندري عنه شيئاً. لأنّ اللهَ الّذي أعرفه أنا وتعرفُه أنتَ عزيزي القارئ، ليس له أيّة علاقة بهذا الإله الَّذي باِسْمِه تُرْتَكبُ كلّ هذه المذابح! ما أريدُ قوله هو أنّ من يكرهُ نفسَه، لا يمكنُه أن يُحِبَّ اللهَ أبداً، لذا فإنّي أعتقد أنّهُ من الأفضل لو يتركِ النّاسُ جميعاً اللهَ جانباً، وليبدأوا على الأقلّ بحُبِّ أنفسِهم، لأنّ طريق الخلاص الحقّ يكمُنُ هُنا، في هذه النّفس الَّتي يوصي الجميع ببغضِها ومقتها.

كونوا محبّين لذواتِكُم، ما من مُشكل في ذلك، أحبّوا أنفسكم قدر ما استطعتم، اكتشفوها، تعرّفوا عليها، ولا تنصتوا للباقي، لأنّ الولادة الجديدة تقتضي المحبّة قبل كلّ شيء، وهذه المحبّة إذا لمْ تبدأ من الدّاخل فإنّكم لن تجدوا اللهَ أبداً.

الحبّ هو الحلّ إذن، لأنّه يفتحُ عينيْكَ على الحياة، وكونكَ تعيش اليوم فهذا لا يعني أنّكَ تحيا، فرق كبير يا صاحبي بين الحياة والعيْش. انظر حولك ولو لبضع لحظات، انظر إلى حياتكَ كيف هي؟ وستجد أنّها جحيم مطلق، لأنّك لم تعرف اللهَ الحقّ بعد، على الرّغم من إيمانك وصلواتك وعباداتك، إنّك مازلتَ على الشّاطئ، ضائع كقوقعة منسيةٍ من كلّ شيء.

لا تصدِّقْ من يقول لكَ كُنْ كعيسى، أو كُنْ كمحمّد وموسى، أو كمريم وفاطمة، أو كتيريزا ورابعة، لأنّ في هذا القول إهانةٌ كبيرة لكَ، وتقزيمٌ وتحقير لنفسكَ. أنا أقول لكَ في المقابل: كُنْ أنتَ ولا شيء غير هذا. كُنْ نفسَكَ، لأنّه ربّما بهذا ستكتشفُ أنّه قدْ تكون أفضلَ من هؤلاء جميعاً، إذا أردتَ طبعاً ذلك من كلّ قلبك وروحكَ، وإلّا فما قيمةُ خَلْقِ اللهِ لكَ؟ اللهُ بديع السّماوات والأرض، لا شيءَ يخلقُه يتكرّرُ أو يتشابهُ أبداً، وما من شيء في الكون إلّا وتوجَدُ منه نسخةٌ واحدة فقط. وهذا ينطبق عليكَ أنت أيضاً: انظر إذن بداخلك، واعرف نفسك من تكون. وتذكّر أنّ المسيح واحد لا يتكرّر، ومحمدّاً كذلك، ومريم وفاطمة وهلمّ جرّاً. هذا هو سرّ الحياة الّذي يتطلّبُ منكَ أن تعيش بقلبٍ حيّ وشجاع، وتذكّر جيّداً أنّ الحياة ليست ثابتة وإنّما هي المتحوّلة والمتغيّرة دائماً، لا شيء فيها مضمون، ولا شيء فيها يدعو إلى الاطمئنان والخمول، عليك أن تكون متيقّظاً، ومتأهّباً ومستعدّاً لكلّ شيء، وتذكّر أيضاً أنّني لستُ هنا لأعطيكَ أجوبةً جاهزةً، لأنّها هي أيضاً غيْرُ ثابتة، وكما هي صالحة لكَ، فقد لا تكون كذلكَ بالنّسبة لغيركَ، وكما قد تكون صالحة اليومَ فقد لن يصبح لها أيّة قيمةٍ غداً. وصايا العديد من الأنبياء كانتْ صالحَةً لفترة معيّنة من الزّمان، ولو عادُوا اليوم لا أعتقدُ أنّهمُ سيأتون بنفس الوصايا والكتب. هي هكذا الحياة، هذا هو قانُونها الأوحَد، إنّها شلّال هادر، عاصفة هائجة، أنهار متدفّقة، حركة دائبة نحو الأمام الأبديّ اللّامنتهي، لذا عليك أن تفتحَ نوافذ جديدة في

أعماقك لتتحقّقَ لكَ كينونتكَ وتتفاعلَ وتَنْسَجم معها ليس بعقلك فقط، وإنَّما بقلبك أوّلاً وقبل كلّ شيء، لأنّك إذا فعلت هذا فستكون قد أدركْتَ السّرّ.

دعني أحدّثك عن هذا السّرّ من خلال واقعة حدثتْ لي في صباح هذا اليوم الجميل: كنت قد خرجتُ باكراً لقضاء بعض الأغراض، استقبلتني مدينتي بنداوة المطَر ونقاوة البرد ورشاقة الصّباح، وإنْ كانت جدرانها وشوارعها حزينة وبئيسة من جرّاء الإهمال الّذي مُنِيَتْ به في هذه السَّنوات الأخيرة، لكنّني لمْ أُلْقِ بالاً للأمر، وحيّيتُ مدينتي وأماكنَها بتحيّة السّلام الَّتي ألقيها عليها كلّما صَافَح وجهِي وجهَهَا، وفي طريق العودة عرّجتُ على محطّةِ الحافلة، ووقفتُ أنتظر، وبينما أنا كذلك، رفعتُ عينيّ إلى شجَرةٍ مُهْمَلَةٍ في حديقة بيْتٍ مهجور بالقرب من المحطّة، وهالني أن وجدتُها ضاجَّةً بالحياة على الرّغم مِن الخرابِ المُحيط بها، لقد كانت خضراء يانعة وممتلئةً بالطّيور، خفقَ قلبي بشدّة من روعة المنظر وأنا أرى الأغصان تهتزُّ وترقصُ فرحاً وكأنّ أحداً ما كان يعزفُ لها موسيقى من نوع خاصٍّ جدّاً، وفجأة خرجَ طائرٌ بُنّي، ثمّ آخر أسوَد، ثمَّ ثالثٌ مزركش وكأنّهم كانوا على موعدٍ معي وبدأوا يأكلون بشهيّة وسعادة حبّاتٍ مِن نَبَقٍ أخضر، لقد كانت الشّجرةُ سدرةً صغيرة، والطُّيور كانت شحارير جميلة جدّاً وفي غاية الأناقة والعذوبة، أمّا أنا فقد اختفيتُ، وأصبحتُ بقلب الشّاعرة الحيّ السّدرةَ والشّحارير والنّبقَ الأخضر! هكذا هي الحياة أيّها القارئ العزيز تتطلّبُ منكَ أن تتوحّد مع كلّ ما تفعله وما تراه في كلّ لحظةٍ، لأنّهُ هكذا فقط سيبدأ كلُّ ما حولك يمُدّكَ بتجارب هائلة تُدخِلُك إلى مقام الفناء والانصهار. إذْ حينما تصبحُ أنتَ الشّحرور والشَّجرة مثلاً، فإنّكَ تختفي، وحينما تختفي تكونُ في كلّ مكان، وتعرفُ معنى الصّمتِ المُطلق، ويحضُرُ الإله ليكونَ معكَ ولكَ، وبكَ ومنكَ وإليكَ، يهمسُ بداخلك قائلاً: لا تحاولْ أن تفهمَ الحياةَ يا صغيري وإنّما عِشْها، ولا تحاولْ أن تتعلّمَ الحُبَّ وإنّما تحرّك معهُ وبهِ فإنّهُ سيأخذكَ إلى طريق الخلاص، علّك هكذا تحبُّ نفسَكَ وتحبُّ غيركَ من البشر،

وتحبُّ الماء والهواءَ، والطّيرَ والبحرَ والشّجر، وعلّكَ تصبحُ إنسانَ السّلام، بل تُصبح أنتَ السّلام عينُه!

***

٩) هل فهمَ رجالُ الدِّين جوهر ما جاء في الأديان، أم كل واحد منهم يفسِّره كما يفهمه، وبالتَّالي جاء فهمه قاصراً وولّد خلافات في الدِّين الواحد عبر المذاهب والطَّوائف، وخلافات مع الأديان الأخرى؟!

رجال الدّين الأحقّاء قليلون جدّاً على هذا الكوكب الجميل، ومَنْ فَهِمَ منهُم جوهرَ الأديان نادرون أيضاً، ومن هؤلاء تحضُرُ أمامي صورةُ كارول فويتيلا وصاحبِه في النّور والبهاء جوزيف راتسينغر، فيبتسمُ قلبي وتدمعُ عيني وأنا أتذكّر قصيدة (فتيان) الّتي يقول فيها صديقي كارول:

((مِنَ الحُبّ فجأةً يتبرعمُون
وحينما يبلغُون سِنَّ الرُّشْد
فجأة أيضاً
يخرجُون للتَّجوُّل وسط الحشود الكبيرة
بقلوب أسيرة كالعصافير
ووجوهٍ شاحبةٍ وسط شمس الأصيل
وفي قلوبهم تنبض الإنسانيّة بأسرها
أعرفُ هذا
وهُم يَداً بيدٍ يجلسون بصمتٍ
عند حافة النّهر
هناكَ حيث جذع شجرة، وأرضٌ تحت ضوء القمر
كأنّهُمَا مثلّث يحترقُ في الهمس غير المكتمل.

لمْ يرتفع بعدُ الضّباب
وقلوب الفتيان في الأعالي مازالتْ فوق النّهر
وأنا أتساءل:
هل سيبقون هكذا أبداً
متى سينهضون ويمضون راحلين؟
وفي المقابل هناك كأس من نور يتدفّقُ بين الأعشاب
وبين كلّ نبتة ينْكشفُ عُمقٌ مجهول.
ذاك الّذي سيبدأ في دواخلكم
هل ستعرفون كيف تحمونه منَ الضّياع
وهل ستهتدون إلى التّمييز بين الخير والشّرّ؟))

ما أجمله من مقام، هذا الّذي يتحدّثُ عنه كارول وهو في كهف فتوّة الرّوح وصباها، ويُحَدّد بداية الطّريق نحو المحبّة والنّور. وإنّي لأراهُ في هذا يتوافقُ مع صديقه جوزيف الّذي يقول إنّه لا بدّ للحقيقة من هذه المحبّة لتتحقّق سعادةُ الإنسان وحرّيتُه. والمحبّة الّتي يتحدّثان عنها معاً هي للإنسان حيثما وُجِد، لا فرق فيها بين مُسلم ومسيحي أو بين يهودي وصابئيّ، أو بين أبيض وأسود، الكلّ معني بالأمر هنا، وهي القضيّة الّتي نادراً ما نجدُ رجال الدّين يتحدّثون عنها، وكثير منهم يفصلون بين النّاس وفقاً لمعتقداتهم وانتماءاتهم الفكريّة والجغرافيّة، لا أحد يفكّر في الإنسان وماهيّته الحقّة، وهذا يحدثُ لأنّ العالم اليوم وأكثر ممّا مضى أصبحَ مليئاً بالمتديّنين الزّائفين، وإنّي لأتساءل كيف يحدث هذا والأرض تضجُّ بأماكن العبادة وبالنّاس المصلّين والعابدين؟ بل كيف أنّ الحبَّ لمْ يفِضْ بعدُ نورُه على الأرض وأينما وجّهتَ نظركَ تجِدُ المساجدَ والكنائسَ والمعابد؟ وكيف لمْ يصِلِ النّاسُ إلى الطّمأنينة والسّلام وأينما ولّيتَ وجهكَ تسمعُ المواعظَ والخُطبَ الدّينيّة؟ إذا فتحتَ المذياع تجدُ رَجُلَ الدّين يعظُ، وإذا فتحتَ التّلفزيون تطالعك ألفُ قناة وقناة

مخصّصة للدّعاة ورجال الوعظ ونسائِه، وإذا ركبتَ سيّارة الأجرة أو صعدتَ الحافلةَ تسمعُ الأناشيد والتَّراتيل والآيات المُجَوَّدة؟ لكن لماذا لمْ يؤمنِ العالمُ بَعْدُ على الرّغم من كلّ هذا؟ أين يوجد الخلَلُ يا ترى؟

الحقيقة أيّها السّادة هي أنّ الدّينَ أصبح خُدعة كبيرة، والنّاسُ بمن فيهم تجّارُ الدّين حوّلوا الإيمانَ إلى معتقدات ومعلومات وتعاليم تعلّموا بمرور الزّمن أن يحفظُوها عن ظهر قلب، ويثقون بهَا ثقة عمياء دون أن يختبروها بأنفسهم، في حين أنّ هناك فرق كبير بيْن أن تكونَ إنساناً مؤمناً وأن تكون متديّناً: التَّديُّنُ يقتضي منكَ حفظ التّعاليم وتطبيقَها دون التّفكير في مضمونها ونتائجِها، أمّا الإيمان فهو حريّة كاملة ومحبّة مطلقة. معظمُ المتديّنين هم كذلك بالوراثة، إذْ عادة ما يحدثُ أن يولدَ شخصٌ ما في بيئة دينيّة معيّنة ويعتنقُ بشكل آليّ ديانة والديْه دون أن يتساءل عنها ولا أن يختبرَها ولا أن يجرّب أيّ شيء، في حين أنّ الأنبياء أنفسَهم ما آمنوا إلّا بعد أن سلكوا طريقاً عميقاً من البحث والسّؤال إلى أن وصلوا بأنفسهم إلى الحقيقة فاعتنقوها وفاضوا بها على الجميع من باب الحبّ والرّحمة. هل منكُم من قام بهذا، هل منكم من سلكَ طريق الأنبياء؟ لا، معظم النّاس ورثوا الدّينَ ولمْ يَخبِروه، وقلّة منهم من جرّبَ طريق الشّكّ. خيرٌ لكَ أن تشكَّ على أن تكونَ مُتديّناً بالوراثة، خيرٌ لكَ أن تكون فقيراً على أن تكون ثريّاً بما ورثتهُ من الآخرين عبر التّاريخ من تعاليم وطقوس وعبادات لا تفهمُها ولا تستوعبُ منها شيئاً. الحقيقة تتطلّبُ منكَ القيام بمجهود جبّار، تتطلّبُ منك كما يقول صديقي كارول أن تكبُر أيّها الفتى وتتركَ حافة النّهر، وتدخلَ إلى الغابة حيثُ يوجد ذاك المثلّثُ المُحترق، وتتجاوزَ الهمسَ لتدخل إلى كهف الصّمت المطلق. ابتعِدْ أيّها الفتى عن الحشود الكبيرة والجماهير وغُصْ في دواخلك، عِشِ التّجربة وتذوّق حميميَة الحقيقة، وليكن سلاحك الوحيد ثقتكَ بنفسك، هذه الثّقة أعني بها عيْنَ القلب الصّادقة أبداً، أمّا عن الشّكّ الّذي حدَّثتُك عنه قبل لحظات فأعني به الفِكْرَ، لا بدّ لك أن تجمع

في طريق البحث بيْن القلب والعقل، وتأكّد أنّك بهذا فقط يمكنكَ أن تتحوّلَ منْ مقام التَّفكير إلى مقام الفطنة والذّكاء الّذي بهِ تُصبِحُ إنساناً حكيماً، لا مُفكّراً ولا فيسلوفاً ولا مُثقّفاً!

***

١٠) ما هي أكثر المشارب في طفولتكِ الّتي ساهمت أن تجنحي نحو السَّلام والصَّفاء والتَّأمُّل؟!

طفولةُ الإنسانِ هي سلامُه الحقّ، والأطفال هُم سادة السّلام بدون منازع ولمثلهم خُلِقَ الملكوت، وطفولتي هيَ كنزي الّذي حاولتُ بكلّ ما أملكُ من بصيرة وتبصُّرٍ أن أحافظ عليه من الشّيخوخة، وقد انتبهتُ لأهمّيّة هذا الأمر منذ سنوات حياتي الأولى، حينما كنتُ أجلس لساعات طوال أحدّق في لوحات فنّيّة تُجَسِّدُ صورا لملائكة في غاية البهاء والجمال، لدرجة أنّني كنتُ أتجاوز بقلبي الصَّغير بُعْدَيِ المكانِ والزّمان لأدخُلَ في زمان الفنّان ومكانه ساعةَ رسمه للوحاته تلك، وفي كثير من الأحيان كان يحدثُ أن أخترقَ كلّ تفاصيل اللَّوحة الدّقيقة بما فيها من أزهار ووديان وفراشات، وشموس ساطعة، لأُصبحَ أنا أيضاً جزءاً لا يتجزّأُ من اللّوحات: آآآهٍ، يا إلهي كم كنتُ أشعر بسعادةٍ عارمة وأنا أحلّقُ مع ملائكة الفنّ في سماوات حبلى بالنّور والوهج! تجاربُ كثيرة غيرَ هذه كنتُ أعيشُها وأدخلُ بها إلى واحةِ الفَرَح والمحبّة والسّلام، لكنّني بدأتُ أكبُر شيئاً فشيئاً، وكبُرَ معِي وعيي بأنَّ الإنسانَ، كلّ إنسان، هُو مكلّف بحمايةِ هذه البراءة من الضّياع والاستنزاف.

هنا يكمنُ الاختبارُ الحقُّ، وكيف لا والإنسانُ يأتي إلى الدّنيا طفلاً وما إن يبدأ في النّموِّ حتّى يُصبِحَ عندهُ الاستعدادُ الكاملُ لأن يفقدَ براءَتَهُ هذه ويخسَرَ نفسه من أجل أن يشتري العالمَ من حوله كما تُشتَرى أيّةُ لعبة أو دمية. أقول هذا، لأنّ هناك العديد مِنَ النّاس مَنْ عندهم جوع أسوَد للدّنيا، ونهَمٌ رهيب للحصول على كلّ شيء

بما فيه الشّهرةُ والنُّجوميّة، وكثيراً ما يحدثُ أنّه حينما يبلغُ إنسان ما إلى تحقيق ما كان يصبو إليه من أحلام فارهة، يكتشفُ أخيراً أنّ العالمَ كلّه قد خدعَهُ وسخر منهُ، وأنّ ثمن هذا الدّرس كان باهظاً جدّاً: فقدانُ براءةِ الرّوح وطفولتها!

لا أحد يعلم أنّ الأطفال حينما يأتون إلى هذا العالم يجلبون معهم الكثير من البركَة، والحكمة والرّحمة، والكثيرَ من صمت القلب وهناءة البال، لا أحدَ يُدركُ أنّ فقدان الطّفولة يعني قسوة انهيار ذاك النّجاح الّذي يُصبح بدون معنى ولا مذاق!

حينما يحينُ وقتُ الرّحيل لن تأخذ معكَ النّجاح أبداً، ولا الألقابَ ولا السّلطة، ولا الشّهرة، كلّ هذا سترميه هُنا، في محطّة الحياة. ألا تعلمُ يا صاحبي أنّ الحياة كلّها محطّة سفر، وأنّك لحظةَ الانتظار قد يكون عندكَ حقّاً كلّ شيء، لكن حينما يأتي القطارُ أو الحافلة أو الطّائرة، فإنّكَ ستذهبُ بدون قاعة الدّنيا وبهرجَتِها، وستحملُ فقط معكَ نقاوتك الّتي بها أتيتَ: تخيّل معي لو يأتي القطارُ ويجدُكَ قد ضيّعتَ براءتك ونقاءك، بمَاذا ستعود إذن أيّها الغرير: يا للحسرة، خسارة ما بعدها خسارة!

ما تُحَقِّقُهُ في هذه الدّنيا ليس أنتَ، وإنّما هو أنَاكَ، وهناك فرق كبير بين الأنا والهويّة، الأنا مرتبطة بالمُكتسبات وهي هوية مُزَيَّفة تتشبّثُ أنتَ بها كبديل عن هويّتكَ الحقيقيّة المقيمة دائماً في المستقبل، في زمن الملكوت، لكن والحال أنّك مرتبط بالماضي فكيف سترحلُ إلى تلك الدّار؟ الماضي يا صاحبي زمنٌ حامض، لأنّه لا يمدّكَ سوى بالتّجارب والذّكريات الّتي تجعل منك إنساناً مثقّفاً، في الوقت الّذي كلّ ما ينبغي عليكَ أن تفعله هو أن تكون إنساناً واضحاً، صافياً، أيْ طفلاً إلى أبعد الحدود:

((بالأمْسِ حينما تسرْبَلَ اللّيلُ بِرداءِ الخُزامى
ألقى الملكُ فوقَ سريري بسبعة أساورَ منْ نورٍ
ثمّ قال وهو يرفعُ ستارَ الفجر بغرفتي:
"لا تعودي إليّ يا صغيرتي إلّا وأنت طفلة".

قلتُ: "كيف السّبيل وقد اشتعلَ رأسي شيباً
يا سيّدي؟"
قال: "ابني لي ببيتكِ مقاماً
وأسْمِيهِ مقام الطّفولة"
قلتُ: "وهل هناك في الدّنيا مقامٌ يليق بهيبتكَ
وجَلالكَ يا سيدي؟"
قال: "نعم، قلبُكِ
وقلبُ كل محبّ يا صغيرتي
أضرمي النّار فيه
وأحرقي كلّ ما عَلقَ بداخله
من عَنَاكِبِ الشّيخوخة
عندها فقط ستعودُ إليكِ طفولتكِ
وأعودُ أتربعُ مَلِكاً وحبيباً فوق قلبكِ")).

***

١١) لو استعرضْتِ طفولتكِ الّتي ترعرعتِ فيها، كيف تبدو لكِ أهم فضاءات الطُّفولة حول السَّلام؟!

ربّما لأنّي وُلِدْتُ ونشأتُ في مدينة عريقة تاريخيّاً وجغرافيّاً، ومتعدّدة الثّقافات والدّيانات واللّغات، فإنّي وَجدتُ في قلبي منذُ البداية الاستعدادَ الكاملَ لولوج تعدّديّة الكون واختلافاته الَّتي تزيده ثراءً وعمقاً، إلّا أنّ هذا النّوع من التّجربة لا يُمكن تعميمه على الجميع، ولا يمكنُ حصر كلّ إنسان في طفولته البيولوجيّة فقط، لذا، فإنّ الطّفولة قد تكتسبُ معاني أخرى جديدة كامنة في قدرة الإنسان على التَّخلّص من رواسب بداءة العمر الّتي عادة ما تكون ممتلئة بالكليشيهات والأحكام الجاهزة

والأفكار المُسبقة الّتي يرثُها الإنسان من والديْه وأسرته الصّغيرة ثمّ المجتمع الكبير. الطّفولة مفهوم فضفاض وواسع، يجب التَّعامل معه بحذر: الكلّ يدّعي أنّ أجمل ما في حياة المرء طفولته، في حين أنّ الحقيقة يجب أن تكون مخالفة تماماً؛ أعني أنّه من المُفترض أن يرى الإنسانُ طفولتَه كأصعب مرحلةٍ في حياته باعتبارها البداية والخطوات الأولى الخجولة والمتردّدة والمتعثّرة، وبالمقابل ينبغي أن تكونَ أواخِرُ العُمر هي أجمل مراحل حياةِ الإنسان باعتباره يكون قد اكتسبَ خبرةً واسعة، وعمِل على تصحيح أخطائه وتصويب مساراته وتعميق تجاربه وبالتَّالي الوصول إلى سدرة المنتهى وسعادة الرّوح والقلب، لكن الّذي يحدث هو العكس، إذ أنّنا نرى النّاس جميعاً تعساء جدّاً في شيخوختهم ويبكون أيّام فرح الطّفولة. ألا ترى معي أنّ الأمر فيه نوعاً من التّناقض والعبثيّة؟!

أنا مثلاً، أشعرُ أنَّني كلّمَا تقدّمَ بيَ العُمُر، ازدادَ فرَحِي، لأنّنِي أكتشفُ كلّ يوم شيئاً جديداً في تجربتي الرّوحيّة الدّاخليّة. إنّني كلّ يوم في شأنٍ، كلّ يوم أغوص في أعماقي، وأرحلُ في دواخلي بصبرٍ وسعادة وتأمّل، وهذا ما يُمكنُ أن أسمّيَهُ بسلوك طريق أهل الحركة والتّفاعل: لا يُمكنُ للإنسان أن يكتفي بعقله، لأنّ العقلَ خَدّاع كبير، ويجب الحذر منه جدّاً، لا سيّما وأنّه ليس لديه القدرة الكافية على إدراك الحقيقة في وجهَيْهَا، المُشرقِ والمُظْلم، وهو لأجل هذا لا يمكنه أن يدركَ ماهيّة الحياة وسرّ الوجود الأكبر.

لا بدّ من الحركة للوصول إلى طفولة القلب حينما يشيخُ الجسَدُ، لن يُجديَ في شيء أن يبحث الإنسانُ عن الحقيقة وهو مُعتزلٌ في قمّة جبل، ولا أن يذهبَ ليفكّرَ في شؤون الوجود في كوخ أو بيت مهجور داخل غابة نائية. الحقيقة تفاعلٌ وانفعالٌ، والطّفولة لا تقتضي منكَ أن تكون مفكّراً أو فيلسوفاً أو حتّى عالماً، وإنّما أن تكون رحّالة: على قلبكَ أن يرحلَ في أعماقه، عليه أن يكتبَ كثيراً، إذا كنتَ من أهل الكتابة مثلاً، وبهذا يكون قد دخل إلى الكون من باب الحرف، عليه أن يرسُم

أيضاً أو يعزفَ إذا كنتَ من أهل الفنّ والموسيقى، وهلمّ جرّاً. القلبُ الرّحالة في فيافي الجسد والرّوح يكتشفُ أبهى معاني الطُّفولة، ولكي يحدثَ هذا يجبُ التَّحلّي بالجنون الواعي، الّذي أعني به هنا الوعيَ العرفانيّ، أيْ ذاك الّذي تكتشفُ به أنّ الحياةَ لا تكتملُ، والوجودَ لا يلتحِمُ إلّا في حضرة المتناقضات والمتضادّات. العقل الكامل لا ينفع، فماذا فعلنا يا ترى بهذا الكمّ الهائل منَ المفكّرين والفلاسفة في العالم؟! لا شيء، لا أحد فيهم يستطيع أن يقول لكَ إنّك حينما تُحِبُّ مثلاً فإنّك تتجّهُ أيضاً إلى الكراهيّة، أو إنّك حينما تكتسبُ صديقاً فإنّك تكتسبُ في الوقت نفسه عدوّاً، أو أنّك حينما تكون في حالةِ سلام مع نفسك فإنّ الحربَ تكون أيضاً على الأبواب! الأمر يُشبهُ حركةَ بندول السّاعة حينما تراهُ يتّجهُ نحو اليمين فاعلم أنّه في حركته هذه يستجمع الطّاقةَ الّتي ستدفعه بعد قليل نحو اليسار، لكنّ العقل لا يرى هذا الأمر، فهو لا يؤمن سوى بالحركة إمّا نحو اليمين أو نحو اليسار، كذلك بالنّسبة للحبّ، أنتَ حينما تحبّ لن تصدّق نفسكَ بأنّك أيضاً تتّجه نحو الكراهيّة، لكن الأمر هو هكذا حقيقة، وحينما تصادقُ إنساناً لا يمكنك أن تتصوّر أنّك أيضاً عدوّه في الوقت نفسه، هذه هي الحقيقة وإن لم تتقبّلها. لكن اسأل نفسك ماذا يمكن أن يحدث لو أنّك رأيتَ الحقيقة بوجهيْها المتناقضيْن؟ أعتقدُ أنّك ستكفّ عن التَّساؤل، لأنّك ستكون قد حلَّلْتَ لغزَ الحياة الّذي يقتضي منك أن تتقبّل السّرّ بقلبِ طفل، لا بعقل فيسلوف ولا مثقّف ولا عالِم!

***

١٢) كيف للسّلام أن يحمل بين ثناياه الحرب أيضاً، هل يُمكنُك أن توضّحي هذه الفكرة الّتي وردت في جوابكِ السّابق؟

هذا له علاقة بما يُسمّى بقُطبيّة الأضداد، ولكي أبسّط لكَ الفكرةَ عزيزي القارئ فإنّي سأطرحُ عليكَ السّؤال التّالي على أن تجيبني عنهُ بسرعة وبدون تفكير. ((– هل أنت ميتٌ أمْ حيّ؟ / – حيّ طبعاً، وإلّا ما كنتُ هنا أتابعُ حوارَكِ هذا مع الأستاذ صبري يوسف)). جيّد جدّاً، اسمَعِ الآن جوابي أنا بشأنِ السّؤال ذاته: ((– نعم، أنتَ حيّ / – لا، أنت ميت / – نعم ولا، أنت حيّ وميّت / لا ونعم، أنت ميّت وحيّ)). أرأيتَ، إنّها كلّها أجوبة قد تبدو لك متشابهة ولكنّها في واقع الأمر مختلفة تماماً، وهي أشبه ما تكون بلعبة المكعّب السّحريّ، وهي جيّدة جدّاً، لمن يعتبرُ نفسَهُ مُفكّراً أو مثقّفاً، لأنّ عقله سيشعرُ حيالها ببعض الدّوار أو الصّداع والدّوخة. فأنا حينما أقولُ لكَ إنّك حيّ وميت، فإني أقصد أنّك حيّ وفي طريقك إلى الموت، أما إذا قلتُ لك إنّك حيّ تُرزقُ وكفى، فإنّ جوابي سيكون ناقصاً ومزَيَّفاً. نعم، أنتَ حيّ ولكنَّ الموت مختبئ وكامن فيك، هكذا هو السّلام في مقابل الحرب، إذ يمكن للإنسان أن يبلغ سلام الرّوح لكنّه لا يمكنُه أبداً أن يتغلّب على محفّزات الصّراع بداخله، لأنها جزء لا يتجزّأُ من تكوينة الرّوح، وهذا ما عبّر عنه الخالقُ عزّ وجلّ حينما قال في سورة البقرة / آيات ٣٥–٣٧: ((وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ، فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ))، ومن هنا تنبلجُ أسئلة جديدة أخرى من قبيل: كيف زلّ آدم وحوّاء وهما في دار السّلام؟ وهل يُعقلُ أنْ يكون الشّيطانُ مقيماً معهُما وهُما في الجنّة؟! ومن تكون حوّاء هذه الّتي بسببها حدثَ الخروج من وداعة السّلام؟ الحقيقة هي أنْ لا شيءَ في الواقع اللّاهوتي الحقّ يدلّ على اسمها هذا اللّهمّ في بضعة نصوص

من العهديْنِ القديم والجديد، وحتّى هناكَ إنّما وردَ اسمُها مشتقّاً من جذر الحياة، أو الكينونة الّتي تزرعُ الحياةَ في كلّ شيءٍ، ولها لونُ الاختمار والتَّحوّل والتَّطوّر الّذي غالبا ما يُرْمَزُ إليه بالغراب الأسودِ، ممّا يعني أنَّ الزّوجَة الّتي يعنيها اللهُ في القرآن إنّما هي شيءٌ آخر غير "حوّاء / المرأة" بمفهومها المتعارفِ عليه لدى النَّاس إلى اليوم، وأنّ الخطابَ الوارد في الآيات أعلاه إنّما هو موجّهٌ لآدم باعتباره ذكراً / رجلاً، وأنثى / امرأةً، وعليه تصبحُ في هذه الآية ملفوظة (آدم) المنحدرةِ صفتُها من الأدمة الضّاربة إلى السّمرة مرادفةً للقلب الذي يحملهُ آدم الذّكر، وآدم الأنثى، أي كلّ إنسان بغضّ النّظَرِ عن جنسه. وبهذا يصبحُ نصُّ الخطاب بعد التّفكيك والتّأويل: وقلنا يا قلبُ، اسكن أنت وزوجك النّفسُ جنّةَ الجسد، وكُلا من علوم الرّوح وفواكه المعاني والمعارف ما شئتمَا وما لذّ لكما لأنّني لم أحجبْها عنكُما، ولا تقربا هذه الشّجرة الّتي يقصدُ بها شجرةَ الحياة واللّذّة والشّهوة النّابتة في طين وتراب الجسد، لكنّهما لم يلتزما بالأمر، فأزلّهُما الشّيطان الّذي ما هو سوى قوى الوهْمِ المحجوبة عن إدراك المعاني، فكانتِ النّتيجة أن فاضَ هذا الجسد بالحياةِ الدّنيويّة والرّغبة والشّبق والاشتياق فكُشِفَ عنهما غطاء السّترِ والتصقَ القلبُ بزوجتهِ النّفس وأصبحَ ملازماً مُضاجعاً لهَا في كلّ وقتٍ وحينٍ، تتلبّسُهُ ويتلبّسُها، فطارتِ العلوم النُّورانيّة وانمحقَ الرّغدُ الرّوحيّ وحلّت محلّهُ علومُ الدُّنيا، ونزلَا معاً إلى العالم الجسماني، هيَ عدوّ لهُ وهو عدوٌّ لها، لأنّهُمَا أصبحا يقيمان في ضيق جسدٍ مادّيّ لا يسعهُمَا معاً ولا يحتملُ شراكتهُمَا في كلّ شيءٍ، وهي العداوة الّتي لا تنقضي إلّا بالموت.

حينما أتحدّث إذن عن هذه العداوة، فإنّي أعني الصّراع المضطرمة نيرانُه في الجسد الإنسانيّ الّذي لا ينتهي إلّا بالموت؟ لكن أيّ موت أعني؟ ذاك الّذي وصفتُه في أولّ جواب افتتحتُ به هذا الحوار.

لأجل هذا أقول إنّك لو تلقي نظرةً لتتأمّل ما حولك فإنّك ستجدُ الصّراعَ كامناً حتّى في تلك الوردة الّتي تطالعها بوجهٍ باسمٍ كلّما فتحتَ نافذة غرفتكَ: ألا تُغلِّفُ الأشواكُ ساقَها؟!

سأسوقُ لكَ مثالاً آخر الآن وأَطْلُبُ منك أن تخرج إلى حديقة بيتكَ: خُذْ منها حجراً صغيراً، أمسكْهُ بيدِكَ، سوف تلاحظ أنّ ثمّة جزءٌ منه لا يُمكنُ لبصركَ وعقلكَ أن يحيطان بهِ. وهذا هو ما أقصدهُ بقصور العقل عن إدراك الكلّيات، وهو لأجل هذا يكتفي بالاستنتاجات والافتراضات. لكنّكَ إذا تجاوزتَ مرحلةَ القصور هذه وتخلّيتَ عن كلّ ما تشعر به منْ دوخة الرّأس وأنت في طريقكَ إلى فهم قطبيّة الوجود حتّى الأعماق فإنّ كلّ السّحب ستنجلي وستتدفّقُ بقلبكَ الحقائقُ وتتوهّجُ الرّؤيةُ بعين البصيرة لا العقل. انظر مثلاً إلى رقصة الدّراويش، ستراها في ظاهرها دوران ودوار مستمرّيْن، لكنّك إذا ما تجاوزتَ الرّقص ودخلت إلى العمق فإنّك سترى الدّرويش ريشة تحلّق في سماء الحقيقة. هذه هي شمسُ الحُكماء الّتي يمكنكَ أن ترى بها في كلّ أنثى ذكر وفي كلّ ذكر أنثى، قطبيّة ما بعدها قطبيّة! وهذا هو ما أسميتُه في الجزء الأوّل من هذا الحوار ببناء الفراغ. هذا الفراغ الّذي يقود إلى حالة السّلام الحقّ حيث لا يوجدُ سوى الصّمتِ المُطلَق، لأنّه لم تعُد هناك أيّة رغبة تنتظرُ التّحقيقَ أو الوصول إليها، ولا وجود لأيّ مكان ولا زمان ولا طريق ولا صراع، إنّكَ الآن حالة من الرّضا الخالص والطّمأنينة الكاملة.

تذكّر إذن أنّ هذا لا يمكنُ أن يحدث إلّا حينما يتبخّرُ التّفكير باعتباره المكوّنُ الأساس للأنا، والأنا كما يعلمُ الجميع لا تكفُّ عن الطّلب المستمرّ، إنّها أكبر متسوّل وشحّاذ في الوجود، إنّها تستعطي بإلحاح ولا تعلمُ أنّها كلّما طلبتْ شيئاً وُهِبَ لهَا وبين طيّاته نقيضُه، لذا تجدُها أيضاً في بكاء لا ينقطعُ!

أنتَ إذن يا صاحبي متسوّلٌ بَكّاءٌ باستمرار:

تطلبُ الحياةَ فتُوهَبُ لكَ ومعها الموت فتبكي؛

تطلبُ الشّبابَ فيوهبُ لكَ ومعهُ الشّيخوخة فتبكي؛
تطلبُ الجمال فيوهبُ لكَ ومعه القبح فتبكي؛
تطلبُ النّجاح فيوهبُ لكَ ومعه الفشل فتبكي؛
تطلبُ الصّحة فتوهَبُ لكَ ومعها المرضُ فتبكي؛
تطلبُ الوردَ فيوهبُ لكَ ومعه الشّوكُ فتبكي.

فما الّذي ستفعلهُ بدموعك المتدفّقة باستمرارٍ يا هذا، وأنت تعلمُ أنّه ما منْ شيء تطلبُه إلّا وسيأتي مُحمّلاً بنقيضه؟! إنّها فلسفة الصّراع الّذي لا ينتهي إلَّا بعد أن يتحقّقَ لكَ الفراغُ الَّذي أشرتُ إليه قبل لحظات، حينها فقط سيمكنُكَ أن تقولَ إنّكَ قد دخلتَ إلى محراب الإيمان الحقّ، لا الاعتقاد ولا العقيدة، وإنّما الإيمان الصّافي الزّلال.

***

١٣) ماذا تقصدين بالإيمان الصّافي الزّلال ولماذا فصلتِ بينه وبين العقيدة؟

الإيمانُ غيْر الاعتقاد، الأوّل ثقة والثّاني شكٌّ مبطّن. والإيمانُ صفةُ أهل الله، والاعتقاد صفة أهل الدّين. مُعظمُ المتديّنين هُم في حاجة دائمة إلى عقيدة تحكمُها القوانين والتَّشريعات لأنّهم بدونها يشعرون بالضّياع والتّشويش. ولأنّ أهلَ الإيمان الصّافي هُم أهل يقين فإنّك لا تجدهم وسط الجماعات والحشود، وذلك لأنّ يقينَهُم ملتحمٌ بالأحديّة والصّمديّة، ولا يقبَلُ الثَّنائيّات القطبيّة ولا المتضادّات المفهوميّة. لا يُمْكِنُ للمؤمن الحقّ أن يرى شيئاً في الوجود سوى الله، وهو لهذا ينمحقُ ويفنى فيه كلُّ شيء، ولا يبقى إلّا هو الَّذي لا هو بعده ولا قبله ولا حوله ولا تحته أو فوقه إلّا هُو.

الإيمانُ ذوبان، والتَّديُّنُ إعلاء للصّروح الكينونيّة، لأجل هذا تجدُ معظمَ المتديّنين لا يقبلون فتح أيّ حوار أو نقاش مع الملحدين في أمور اللّاهوت، إنّهم يخشون

باستمرار أن يلمس الملحدون ذاك القبوَ الَّذي يقبعُ فيه منزوياً إزميلُ الشَّكّ النّاجم عن الاعتقاد في مجموعة من القوانين الَّتي يحفظونها عن ظهر قلب ويطبّقونها بدون أدنى تفكير. ولأجل هذا تجدُ أيضاً العديدَ من النّاس ينتقلون من حالة التَّديُّن إلى الإلحاد، وأحياناً أخرى من حالة الإلحاد إلى التَّديّن، وهو الأمر الَّذي يحدثُ حينما يتعبُ المُلحدُ من أسئلته وشكوكه الَّتي لا دواء لها. لكنّ الأمرَ يُصبِحُ غريباً حقّاً ومثيراً لأكثر من تساؤل حينما يتحوّلُ المتديّنون بديانة ما إلى ديانة أخرى، كأنْ يصبحَ المُسلمُ مسيحيّاً، أو يهوديّاً والعكس صحيح. هذا يحدثُ كلّ يوم، وعليه فإنّ السُّؤال الَّذي يطرح نفسه الآن هو التّالي: ما الّذي لمْ يجده هذا الإنسان في دينه فدفعهُ بالتَّالي إلى التَّحوُّل أو الانتقال إلى دين آخر؟!

الأمر له علاقة وطيدة بدرجة الإيمان ومدى عمقه. المتحوّلون من دين إلى آخر لا يمكنُهم أن يجدوا الحقيقة في أيّ مكان، لأنّها تنقصُهم في دواخلهم، ولأنّهم لمْ يدركوا بعد مرحلةَ الوحدانيّة الحقّة والتَّوحيد الكامل الَّذي تنتفي فيه المفاهيمُ المزدوجة والحقائق الوهميّة.

أن تكون مؤمناً، يعني أن تكونَ عندكَ ثقة بالله تجعلك تتقبّلُ الانوجاد بعين الرّضا، فإذا أخَذَتْ منكَ الحياةُ شيئاً ما على سبيل المثال فإنّك لنْ تحزَن، وإذا أعطتكَ إيّاه فإنّكَ لن تفرح بهِ لأنك تعلمُ أنّه زائل، أمّا إذا وهبتْكَ الموتَ فإنّك سترحّبُ به كذلك لأنّك تثقُ بالموت أيضاً، ولأنّك قبل هذا وذاك تدَعُ اللهَ يختارُ لكَ وتُسلّمُ مقاليدك بين يديه!

فقط حينما تكفُّ عن التَّسوّل يقعُ الإيمان، وتحدث الثّقة وتتّحِدُ إرادتُك مع إرادة خالقك:

((أنَا يا حَبيبي بيْن يديْكَ
دُمْيةٌ مِنْ طين
أنتَ منْ خَلقَ صَلصَالهَا

وحَفرَ قرَارَها
وأنتَ من أجرى الماء
بين مَسَالكِ نطفتها ومُضْغتِها
وأنْتَ مَن نسَج بالصَّبْر عِظامَها
وكسَى بالدّمْع لحْمَها
بلْ أنتَ من شقّ بالنَّار سَمْعَها
وأنارَ بالحقّ بَصَرها
فافعلْ بي مَا تشاء:
خِطْ بإبرَ النّملة جراحَ قلبي
واكتُبْ بالدّم القاني حُروفَ قدَري
وارْسُمْ بألوان الطّيف تفاصِيلَ يوْمِي وغدِي
لنْ أنْطِقَ حرْفاً لمْ تنشأ لي نُطقه
ولنْ أفْعلَ شيئاً لمْ تُرِدْ لي فعْله
ما دَام الحرْفُ لكَ والفعْلُ لكَ والإسمُ لكَ)).

***

١٤) أنتِ كائن مفطور على الفرح، والصّفاء وبهاء الرّوح، كأنّك شجرة وارفة الظّلال، تحوَّلت إلى إنسانة تظلِّل الحياة بأغصان السَّلام، كيف تنظرين إلى هذه الرُّؤية، وهل يتواءَمُ التَّحليل مع عجينِ كينونتِكِ؟!

هذا سؤالٌ لطيف جدّاً، يضمُّ بين جناحيْه رؤية في غاية الجَمال والرّوعة، وقد لفتتْ انتباهي فيه هذه الصّورة الراقية التي أشرتَ فيها إلى الإنسان–الشَّجرة من حيث الكرم والعطاء، ومن حيث المحبّة والفرح والبهاء. هو هكذا إنسان السّلام، إنّه في عطاء مستمرّ، وكما أنّي شجرة فإنِّي أيضاً طائر بجع كبير، أنقرُ باستمرار

قلبي، وأتركُ دمي ينزفُ قطرات هي ترياق أُحيي به جوعى المحبّة والطّمأنينة، ودمي هو حرفي الّذي ما تركتُ مجالاً من مجالات الإبداع إلّا وسكبتُه فيه خدمةً لغيري على الرّغم من المشاقّ والمتاعب الّتي جلبَها لي هذا الأمر.

وحتّى لا أطيلَ في الحديث عن نفسي، فإنّي أحبُّ أن أوجّه دفّة الإبحار إلى جانب آخر كامن في سؤالكَ أجدُهُ أكثر أهمّية من فيوضات العطاء والكرم الشّخصيّة، وذلك من خلال طرحِ سؤالٍ جديدٍ هو الآتي: هل يُمكنُ للإنسانِ أن يتحوّلَ بعد الموتِ إلى طبيعةٍ كينونيّةٍ أخرى تخالفُ طبيعتَه الأولى، كأن يُصبحَ شجرةً على سبيل المثال؟! هذه إشارةٌ وردتْ في سؤالكَ أنتَ بشكلٍ غير مباشر، وبموجبها سأشرع في الحديث عن نظرية التّفاسخ الّتي تعني تحوّلَ روح الإنسان للاستقرار بعد الموت في عنصر من عناصر ملكوت النّبات.

***

١٥) هل يُمكنُ للإنسانِ أن يتحوّلَ بعد الموتِ إلى طبيعةٍ كينونيّةٍ أخرى تخالف طبيعته الأولى، كأن يُصبحَ شجرةً على سبيل المثال؟!

الحديث عن التّفاسخ قديم قدم النّفس البشريّة، وهو يدخل في إطار الحديث عن نظريّة تناسخ الأرواح وتقمّصها وتفاسُخها وتماسُخها وتراسُخها. وقد اهتمَّ الفلاسفةُ القدماء بهذه الظّاهرة بدءاً من سقراط وأفلاطون وأرسطو مروراً بابن سينا وابن رشد ووصولاً عند علماء من العصر الحديث اهتمّوا بدراسة النّفس والرّوح ومآلهما في العالم الآخر. وكلّ هذا يقتضي من الإنسان أوّلاً أن يعرفَ نفسَه باعتبارها أولى درجات معرفة الله، وهيَ عند سقراط جوهر الإنسان والجسد حامل لها، أمّا أفلاطون فقد ذهب إلى القول بأنّ النّفس كانت في عالم قدسيّ تتنعّم بالحياة الطّيّبة الكريمة وقد هبطت إلى الأرض نتيجة ارتكابها للآثام فعوقبت بالحلول في جسدٍ فانٍ.

وفي كتاب (النّفس) تناول أرسطو العلاقة بين النّفس والجسد قائلاً بأنّهما يشكّلان معاً وحدةً تامّة، ولا يمكن لأحدهما أن يوجد بمعزل عن الآخر، مادامت النّفس هي العلّة المحرّكة للجسد الّذي يقع تحت تأثيرها ويتبعها كما يتبع الخادمُ سيّدَه. وسيراً على نهج أوائل الفلاسفة الإغريق، حاول ابن سينا أن يفيد من تجاربهم وعمّق أكثر فأكثر بحوثه حول النّفس وظاهرة التّناسخ، فميّز بين ثلاثة أنواع من النّفوس، النَّباتيّة والحيوانيّة ثمَّ الإنسانيّة، ولكلّ نفس من هذه النُّفوس وظيفة خاصّة بها. والنَّفس الإنسانيّة عنده لا تموت بموت البدن، وهي أكثر كمالاً منه، فهي ليست ماديّة ولا تتعلّق بالجسد وإنّما هي جوهر روحانيّ قائم بذاته ومختلف عن الموجودات الماديّة ولها القدرة على معرفةِ ذاتها من خلال الإدراك العقليّ. وفي رسالته (الأضحوية في المعاد)، تطرّق بشكل مفصّل إلى مصير النّفس بعد الموت، وناقش آراء من يقول أيضاً بتناسخ الأرواح وتقمّصها. وهي الفكرة الّتي تعمّقَ فيها بشكل أكبر البراهمة الّذين يعتبرون أنّ النّفسَ جوهر صافٍ أبديّ، مُدرِك وعالم بأبجديّات الكون مادام في حالة انفصال عن الجسد، أمّا إذا اتّصل به فإنّ هذا الإدراك الكامل ينقص ويتعكّر. ومن هذه العقيدة ظهر فكر مجاهدة النّفس عند الهندوسيين وتأثّر بهم من بعد العديد من متصوّفة الإسلام.

وتناسخُ الأرواح على درجات، فإذا انتقلت الرّوح من جسد آدميّ إلى جسد حيوانيّ، فذلك يسمّى تماسخاً، أمّا إذا انتقلت إلى جسد نباتيّ فيسمى تفاسخاً، وإذا انتقلت إلى جسد بشريّ فذاك يسمّى بالتناسخ، وأمّا التّراسخ فهو انتقال الرّوح إلى ملكوت الجماد. وهناك العديد من المفكّرين المسلمين من يدعم هذه النَّظريّة مستندين إلى آياتٍ قرآنيّة مختلفة، مثلاً تلك الّتي يقول فيها الله عزّ وجلّ: ((يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وادخلي جنّتي)) (الفجر / ٢٧-٢٨)، وقد قالوا إنّ عبارة (وادخلي في عبادي)، تعني انتقال الرّوح من جسد إلى آخر، وعليهم أردُّ وأقول إنّ هذه الآية تتحدّثُ عن النّفس وليس عن

الرّوح الّتي هي من أمر الله ولا أحد أدركَ لليوم سرّها أو أسرارها (وما أوتيتُم من العلمِ إلّا قليلاً).

وهناك آية أخرى يستشهدُ بها كثيراً من يؤيّدُ مسألةَ التّقمّص والتّناسخ هذه وهي الّتي يقول فيها الله عزّ وجلّ: ((يا أيُّها الإنسانُ ما غرّكَ بربّكَ الكريم، الّذي خلقك فسوّاكَ فعدلكَ، في أيّ صورة ما شاء ركّبكَ)) (الانفطار – ٦–٨)، ولهم أقول هنا أيضاً، إنّ تعدّد الصّور المعني هنا محدود في الصّورة الإنسانيّة الّتي تختلف باختلاف وتعدّد الخلائق، إذ لا يوجد إنسان يشبه إنساناً آخر، لأنّ كل فرد هو آية كونيّة إعجازيّة قائمة بذاتها وفي كلّ تفاصيلها، وهذا هو في حدّ ذاته سرّ الإبداع الإلهيّ الّذي لا يضاهيه ولا يعجزه إبداع.

ولنفرض جدلاً أنّنا قبلنا تماماً بنظريّة التّناسخ تفاسخاً كانَ أو تراسُخاً أو تماسخاً أو تقمّصاً، فما الفائدة يا ترى في تحوّل الرّوح من جسد إلى آخر ولمرّات لا متناهية؟ ما المنطقُ في ذلك، وعلى أيّ أساس ستُكَافَأُ وتُجزى الأرواح بما عملت، وبأيّ جسدٍ ستُعاقَب أو تثاب مادامت تتحوّلُ باستمرار إلى أجساد جديدة وفي عوالم مختلفة؟ أليس في الأمر نوعاً من العبثيّة والطّعن في القدرة الإلهيّة؟ هل اللهُ عاجز إلى هذه الدّرجة حتّى أنّكم ترونه يضطرُّ إلى تحوير وإعادة تدوير الأرواح في أجساد وحيوات أخرى؟! إنّ من يقول بهذا لا يعرفُ حقّاً سرّ الخلق ولا الحياة، ولا سرّ تكريم الإنسان وتتويجه سيّداً كاملاً مكتملاً بين كافّة المخلوقات!

أنا في المقابل عندي سورة واحدة أجيب بها عن هذه النّظريّة، وهي الّتي يقول فيها سبحانه وتعالى: ((حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ، كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ، فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)) (سورة المؤمنون / ٩٩–١٠١)

إنّ من يموت لا يرجعُ إلى الحياة الدّنيا إلّا في بعض المعجزات كتلك الّتي حقّقها المسيح بإحيائه للموتى بإذن من الخالق عزّ وجلّ مصداقاً لقوله: ((إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)) (المائدة / ١١٠).

ثمّة من سيقول لي إنّ هذا ينافي ما عاشه الإنسانُ في عصور مضت وكذا في حقبتنا الحاليّة من تجارب عن عودة الموتى إلى الأرض وعن تواصل العديد من النَّاس معهم بمن فيهم الوسطاء الرّوحيون، وأقول إنّ الأمر ليس فيه عودة للأموات إلى الأرض وإنّما شيء آخر مختلف تماماً سأتحدّثُ عنه في الجواب القادم بإذن الحيّ القيّوم.

***

١٦) ماذا تقصدين بعدم عودة الموتى إلى الأرض على الرّغم من أنّ تاريخ البشرية الفكريّ حافل بالتّجارب الّتي وثّقتْ لدى مختلف الشُّعوب لقاء العديد من النّاس بمن ترك الأرض منذ زمن بعيد؟

حينما قلتُ إنّ الموتى لا يعودون إلى الأرض واستشهدتُ على هذا بأكثر من نصّ قرآني، فإنّي قصدتُ بذلك عودتهم إلى أجسادهم المادّية الأرضيّة، لأنّ هذا أمر مستحيل تماماً، وأنّى للميت ذلك وجسدُه قد صار تراباً منذ سنين عدّة؟! وأستثني من هذا الأمر المعجزات الّتي حدّثتنا عنها الكتب المقدّسة بما فيها قصة فتية الكهف، والرّجل الصّالح عزير، وحتّى هنا فإنّ الأمر ليس فيه عودة للحياة

بالمعنى المتعارف عليه بقدر ما فيه تجسّداً جديداً هو ما يصطلح عليه بالـ (Incarnazione).

ما أريد أن أقوله هو أنّه لا أحد يموتُ حقيقة، ولكي نفهم هذا علينا أن نستوعب أوّلاً معنى الموت، الّذي هو انفصال الجسم الأثيري عن الجسم المادّي حاملاً معه كلّ شيء: العقل والنّفس والرّوح. حينما نعي جيّداً هذا الأمر يصبح عندنا العالم المادّي شيئاً غير ذي قيمة بتاتاً، أمّا العالم الأثيري فهو العالم الحقّ الثّابت الّذي لا أثر فيه للزوال والتّحلّل والفناء.

ولكي نفهم ماهية هذا العالم علينا أن نتساءل أولاً عن الأثير ما هو؟ إنّه مادّة الكون الأساسيّة وهو الجزء الأكبر الّذي يحرّك الذّرّة بشكل حرّ منتظم، وتردُّد موجاته في الفضاء يعطينا الضّوء، وهو مادّة لا ترى ولا يمكن وزنها كما المادّة الحقيقيّة وهو أكثر كثافة ومرونة من الماء، وكثيراً ما تتحوّل موجاته إلى أصوات مختلفة بما فيها الكلام والموسيقى، وهو دائب الحركة وكلّ ما نحن فيه من وعي وبصر إنّما يتمُّ بفضله لأنّه هو الّذي ينقل لنا الموجات الّتي تُحدث الاهتزازات البصريّة والجلديّة. والأثير هو الحلقة التّواصلية الكبرى الّتي توحّدُ بين عالم المادّة وعالم الرّوح، وهذا يعني أنّ كلا العالمين جزء من كينونة واحدة، ولهذا قلتُ إنّ معظم من مات إلى اليوم لم يغادر بعد عالمنا لأنّه مقيم في عالم الأثير الموازي. وهذا ما يفسّرُ كيف أنّ بعض النّاس ممّن يتمتّعون بجلاء بصريّ وسمعيّ جيّد يستطيعون رؤية أهل العالم الأثيري، أو ما أسمّيه بالبحر الأثيري الّذي تصبح فيه حركة الإنسان أكثر سرعة ومرونة من حركة الأسماك في الماء. هذه هي حياتنا هنا وهناك، وعلينا أن نحبّها ونفخر بها لأنّها طاقة تُنظّمُ وتُعيدُ ترتيبَ الوجود، قادرة على التّفكير والعقلُ يحكمُها ويؤثّرُ فيها، وهو خالد وأبديّ وبه نبقى جميعاً في الأثير كوحدات مفكّرة مع تمتّعنا أكثر وأكثر بالقدرة على النّموّ والتّطوّر.

***

١٧) يدهشني العقل وطاقته في تخزين واستذكار آلاف بل ملايين المواقف والذّكريات، كيف يتشكَّل العقل؟!

العقلُ سلطانُ الكونِ ومُحرّكُه، وهو مُؤسّسُ عالمَيْ المادّة الميتافيزيقيّ والأثيريّ بصولجان (كُنْ فيكون)، وخاصّيته الأولى تكمنُ في قدرته على تنمية التَّفكير وتطويره، وعلى صوغ كل الأحداث والصّور، وهو سرمديّ دائب التّغيير، ويَخلُقُ من القديم صوراً جديدة لا متناهية. والعقلُ غير الوعي، الأوّل قيْدٌ والثّاني حرّية، وأقول قيْداً من حيثُ سيطرته على الأنا من خلال الفكر لدرجة أنّه قد يصبح حجر عثرة في تحقيق سلام الرّوح الأبهى، أمّا عن كون الوعي حريّة، فهذا لأنّهُ لا يتحقّق إلَّا إذا تخلّصتِ الرّوحُ من هيمنة العقل وسيطرةِ أفكاره الدّائبة الحركة والاهتزاز. وفي كثير من الأحيان يكونُ العقلُ من خلال تخزينه لكلّ شيء السّببَ في تعاسة الإنسان والمسؤولَ الرّئيس عن جحيمه لا كمكانٍ جغرافيّ وإنّما كفضاءٍ نفسيٍّ.

والتَّحرّر من سلطة العقل وتحكُّمِه الآليّ في الأنا هو ما يسعى إليه أهل التَّصوّف عموماً وذلك عبر الحدّ مبدئيًّاً من قوّته والتّقليص عمليّاً من تطبيقه الفعليّ للأفكار، وهو المسار الّذي تتحقّقُ فيه حالة من المعرفة الذّاتيّة يتلقّى فيها العارفُ الكشفَ عن حقيقة معيّنة تفلتُ ممّا ألفه النّاس واعتادوا عليه وهم داخل مملكة العقل. وهذا لا يعني أبداً الإمساك عن إعمال العقل أو تعطيله، وإنّما المقصود فقط فتح المجال للذّات الإلهيّة لتقوم بمدّ العقل بمواضيع وصور نورانيّة مبهرة تجعله قادراً على فهم الوجود دون كلام ولا استدلال، وهذا ما أسمّيه بجوهر التَّجربة الإيمانيّة بكلّ ما فيها من وجد وبهجة!

((ما أجملهُ هذا الواقفُ بيْنَ يديَّ؛
ملاكاً لَمْ أرَ ببَهَائِهِ أحداً
سألتُهُ ما اسمُكَ؟

قالَ: عَقْلُكِ
خادمكِ الأمينُ.
قلتُ: وأخيراً آنَ لي أنْ أراكَ
وأرى وجهَكَ الوضّاء،
يا لحُسْنِكَ الفتّان
أيُّها السّلطانُ لا الخادمُ!
لماذا أنتَ هنا
وما عساي أن أفعلهُ من أجلكَ؟
قالَ:
اسقيني مِنْ حرفكِ وعطفْكِ
مِنْ صفاءِ روحِكِ وسُمُوّ عِشْقِكِ
فأنَا متعطّشٌ جدّاً جدّاً إليكِ
دعيني أشْرَبْكِ
دعيني أُسْعِدْكِ
دعيني أحْمِلْكِ
إلى سماوات المُلْكِ والملكوتِ
تعيشينَ في برجي سلطانةً من نور
النُّونُ والباءُ تحتَ أمركِ
وكذا اللّوحُ والحبْرُ والقلمُ
قلتُ: وإن لمْ أفعَلْ؟
قال: تمرضِينَ يا معشوقتي ومليكتي
فأنا الطَّبيبُ القائمُ بأمركِ
وأعرفُ جيّداً ما أنتِ بحاجةٍ إليهِ.

حينذاك رفعتُ إليهِ عينيّ من جديد وقلتُ:
وذاك الّذي معكَ مَنْ هُو؟
قال: ملاكٌ ثانٍ هو الآخرُ في خدمتكِ
قلتُ: ما اسمُه؟
قال: لا شُعورُكِ،
لكن إذا شئتِ يمكنكِ أن تغيّري اسمَهُ
قلتُ: سأسمّيه حورس
أمّا أنتَ فليكنْ اسمُكَ أخناتون
وقُمِ الآنَ وضَعْ تاجَ الحرفِ فوقَ رأسي
وخاتمَ الأفعى بسبابتِي
وتوّجني إمبراطورةً على بلادِ الأبجديّة الحمراء
قال: فاعلٌ أنا كلّ هذا يا مولاتي، لكنْ قبلَ ذلكَ
دعيني أحملْكِ إلى عالمِ الأموات
فهو مملكة النّون
ومقبرةُ الأحلام والذّكريات
قلتُ: لكَ هذا.
ومنذ ذلك اليومِ وأنا هناكَ معَ حورس
أتفقّد أمورَ ذاكرتِي الجمعيّة
وأحاولُ أنْ أفكَّ طلاسمها وأسرارها العجيبة
فهل سأعودُ يوماً؟
لستُ أدري!)).

***

١٨) هل أنتِ راضية عن الهيئات الدّوليّة الّتي ترعى السَّلام وحقوق الإنسان، أم لديك تحفظُّات ومآخذ؟

كثيرون هُمُ اليومَ مَنْ يَتحَدّثُونَ عنِ السّلام، كلٌّ من وجهةِ نظرِهِ، ومن منطلقاتٍ إيديولوجيّةٍ وعقائديّة مُعَيّنة، وكلّ في وادٍ يهيمُ بليلَاهُ ويُصَوّرُ هذا السّلامَ كما شاءَ وأرادَ، بل هناك من يَبْنِي قصوراً من الأوهام والأحلام فوقَ أرضيَّتِهِ الهشّة، يبغِي الوصولَ إلى جائزةٍ أو تكريمٍ مَا، أو الحُصولَ على دعمٍ مادّيٍ من وزارة ما، وقلّةٌ هُمْ أولئكَ الّذين يعرفُون حقّاً ما السّلامُ في زمن هُو اليوم زمن حربٍ وتضارب مصالح وقضايا لا أوّل لها ولا آخر، بل في زمنٍ تلبسُ فيه الحربُ ثوبَ السّلام، وبينَ هذَا وذاك ضاعَ كلّ شيءٍ: ضاعَ السّلامُ، وفرّتْ حمائمُه من نوافذ المعابد والكنائس والمساجد وصالات المؤتمرات والجمعيّات المُزيّفَة والوهميّةِ واللّقاءات التي تروّجُ لكلّ شيء ماعدا السّلام الحقيقيّ. مع كامل الأسف هذا هو واقعُ الحال، وكيف لا يكونُ كذلك والسّلامُ مُغيّبٌ في البيوت وفي المدارس، في الجامعات وفي دور العدل والقضاء، وفي المؤسّسات السّياسيّة والاقتصاديّة العالميّة وفي كلّ شيء يحيط بنا. ولقد كذبَ لليومِ من قالَ إنّ الأصل في الإنسان هو السّلام، فحالة السّلام لم تكن أمراً فطرياً في قلب وعقل إنسانٍ أبداً، لأنّ الأصلَ في هذا الأخير هو حالة الحربِ، ونظرة طبّيّة وفحص إكلينيكيّ لجسده ونفسِه وما يضطرمُ فيها من صراعاتٍ يُثبتُ أنّ الأصل في الحياة كلّها هو الحربُ لا السّلم، وأنّ الحرب والسّلام الأرضييْن حالتان متكاملتان ولا وجود للأولى في معزل عن الثّانية. هذهِ هيَ النّظرةُ المنطقيّةُ والعلميّةُ لكلّ الأشياءِ، مادامَ الكونُ في حالة نمو وتطوّر دائميْن يقتضيانِ معاً حالة الصِّراع لا الوئام، أمّا السّلام الحقّ فهو حالة روحيّة، يتمُّ الوصول إليها بقطع أشواط مُكثّفة وعميقة من العمل على حفر الذّات البشريّة وصقلها، وتشذيب عيوبها، ونواقصها للوصول بها في نهاية المطاف إلى حالة إنسان السّلام، وهذا أمر لا يبدأ في أيّة مرحلة من مراحل عمر الإنسان، ولكن على عكس المتوقّع يبدأ منذ مرحلة

المُضغة ويستمرُّ خلال رحلة الحياة الطَّويلة القصيرة حتَّى يصل إلى مرحلة الشَّيخوخة الَّتي قد تُتَوَّجُ بالوصولِ إلى الهدف الرّوحاني فيتكلّلُ القلبُ بتاج السّلام، وقد يرحلُ الإنسانُ بعد شيخوخته وهو لم يُكمِل طريق تطوّره الفكريّ والرُّوحيّ، ولم يعرفْ بالتَّالي ما معنى السّلام ولا ما معنى أن يكونَ إنسان سلام.

السّلامُ لا تأتي بهِ الكتبُ ولا الجمعيّات ولا المجلّات ولا الإذاعات ولا أيّ شيء من كلّ هذا، ربّما قد يكونُ لكلّ هذه الأشياء مجتمعةً دورٌ تَوْعَوِيٌّ ليسَ إلّا، ولكنّها لا يمكنها أن تجلبَ السَّلام إلى بيوت النّاس، وتحملَ لهم ما يكفيهم عناء السّؤال والحاجة والعوز، ولا يمكنُها أيضاً أن تحمل السّلام إلى قلب إنسان يضجُّ بيتُه بالصّراعات العائليّة، ولا إلى مجتمعات يُعاني فيها الكلّ من شيزوفرينيا حادّة فلا يعرفُ إذا كانت هذه المجتمعاتُ علمانيّة أم دينيّة أمْ هُما معاً، ولا إذا كانت شرقيّة أو غربيّةً أو هُما معاً، ولا إذا كانت ملزمة بإرضاء الشّرق أو الغرب، ولا حتّى إذا كانت دَساتيرُها مستمدّة من الكتاب المقدّس أو القانون الوضعيّ، وهلمّ جرّاً من هذه الحالات والقضايا الّتي جعلتْ منَ الإنسان في كلّ العالم كائناً مُتشظّياً تحكمه الحروبُ النّفسيّة الّتي أصبحت بمضيّ الزَّمن حروباً طاحنة كبرى تسودُ الأرض والسّماء وتأتي على الزّرع والعباد.

إنّ السّلامَ هو سلام الرّوح والبدن والعقل، فإذا سلمتْ في الإنسان كلّ هذه الأشياء سَلِمَ العالمُ من شرّه. وفي روحِ الفردِ تُغْرَسُ مبادئ السّلام الّذي ينهضُ بالحياة ويُرَقّيهَا.

والحالُ أنَّني رأيتُ اليومَ ما آلَ إليه السّلامُ في عالمنا المريض، أقول إنّ الكلّ أصبح يتحدّثُ عنه في كلّ المنابر والمؤتمرات دون أن يعرفوا عنه شيئاً حقّاً وحقيقةً. إنّ الأمر في اعتقادي أشبه بأولئك الَّذين تراهم يتحدَّثونَ عن الله وأنبيائه صباحَ مساءَ وفي كلّ مكان وزمانٍ، والنَّتيجة كانت أن افتضحوا وبانَ المستورُ: لا أحد فيهم يعرفُ اللهَ ويقدّره حقّ قدره، ولا أحد فيهم يعرف بالتَّالي السّلامَ الحقّ، لأنّ اللهَ هو

نفسهُ السّلام، ومادامت الغالبيّة العظمى لا تعرف الله فشيء طبيعي ألّا تعرف حتَّى معنى السّلام الّذي هو اسم من أسمائه الحسنى، هو وحده الّذي سَلَّمَ حضراتِ الوجودِ من تدحرُجِهَا في العدم والخواء، ووحده منعَ المراتبَ من اختلاط بعضها ببعض، لذا فإن اسم السّلام هذا، هو صفة سلميّة سلاميّة تشير إلى تجلّيه تعالى في سائر أسمائه وصفاته حتَّى تُحْفَظَ الموجوداتُ من انبهام بعضها ببعض والسّقوط بالتّالي في مهالك الانعدام. ومنْ نظرَ إليه الخالقُ بنظرة من عيْنِ سلامه الحقّ فاز بالسّلام الَّذي انسترَ عن العديد من النّاس لكثرة الحُجُبِ الظّلُمانيّةِ في نفوسهم، وأصبح لا يملُّ منْ محبّةِ النّاسِ والصّفْحِ عنهُم وإن كثرت إساءاتُهم، وذلكَ بسرّ اسم السّلام والحِلْم واللّطفِ الإلهيّ الَّذي هُوَ تصرّفُ الخالق بالرّحمة في ومعَ العصاة.

ولمعرفة اللهِ وجبتْ معرفةُ النّفس، ولمعرفةِ السّلام وجبتْ معرفة النّفس والله معاً، إنها كلّها أمور حتميّة لا مجال فيها للخطأ، ومن توصّلَ إلى معرفة هذا وذاك كفَّ عن الكلام، وانتقلَ من مجرّد فعل الكتابة والخطابة في النَّاس إلى حركة الفِعْلِ وتطبيقهِ في صمتٍ. وبهذا وجبَ الإعلامُ، وبهذا وجبَ صمتِي أيضاً وعدم الخوضِ في سلامِ الجمعيّات والمؤتمرات، لأنّي اكتفيتُ بسلامي، ولأنّني اليومَ وأكثر من أيّ زمن مضى عرفتُ السّلامَ اسماً وصفة وحالةً، فرُفِعَ الحرفُ والكلامُ، ورُفِعَتِ الصُوَرُ والتَّمثلات، ولمْ يبقَ شيءٌ في قلبي سوى صوتٍ يهتفُ عالياً: هَذَا مَا تُوعدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ منْ خشيَ الرَّحمَن بِالغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ، ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ.

***

١٩) فوضى العالم وهمومه ويأس النّاس المرير فيه، كيف السّبيل إلى التَّخلّص من كلّ هذا؟

فوضى العالم تنبعُ من الفوضى الفرديّة الّتي يعاني منها كلّ إنسان على الأرض قاطبةً. وهذه الحقيقة هي في حدّ ذاتها كارثة كونيّة، من الغباء حصرُها في منطقة جغرافيّة مُعيّنة، لكن الأهمّ من هذا كلّه السّعي الحثيث من أجلِ الخروج من هذه الدّوّامة!

هناك معاناة إنسانيّة على كافّة المستويات، السِّياسيّة منها والدّينيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، لدرجة أنّ الوجود النّفسي للإنسان أصبح مُشوّشاً برمّته. لقد خذلَ الجميعُ الإنسانَ؛ تجّارُ الدّين والسِّياسة والثَّقافة. تخيّلوا أنّ حتّى الكتبَ لم تعُد تنفعُ في شيءٍ، تاريخ الأفكار أصبح مسموماً ومدنّساً، والكتب القديمة بما فيها المقدّسة فقدتْ ذاك البريق الَّذي كانت تتمتَّع به منذ قرون مضت: لا أحد يخفقُ قلبُه أو ينتعش بمجرّد أن يقرأ آية من القرآن أو الإنجيل. لقد أصبح كلّ حرف في هذه الكتب بالنّسبة للكثير من النّاس مجرّد كلمات. لماذا يحدث هذا يا ترى؟ النّاس يكرِّرون كثيراً كلام الكتب المقدّسة، وهُم بكثرة تكرارهم هذا في حياتهم اليوميّة بدون فهم ولا استيعاب، يعلنون حالةَ الكذبِ الَّتي يعيشون فيها باستمرار. لذا فإنّه يجبُ فهم سبب هذا الكذب والتّشويش. ولكي يحدث هذا لا بدّ من وعي فائق ينقلُ الإنسانَ من حالة المفعول بهِ إلى حالة الفاعل، وهذا لن يتحقّق باللّجوء مثلاً إلى المعبد أو إلى المعلّم الرّوحيّ أو إلى الجمعيات الدّينيّة والأحزاب السِّياسيّة، والمؤسّسات الاقتصاديّة، أو إلى الكتب والثّقافة، لأنّ الأمر سيكون مجرّد هروب من حالة فرديّة إلى حالة أخرى تكون فيها السّلطة لمجموعة ما من البشر، لأنّ هذه المجموعات غالباً ما تُقدّم مصلحة نظام المجموعة على الفرد، ومصلحة المجتمع على الإنسان لأنّ المؤسّسة تُصبحُ أهمّ من الإنسانيّة نفسها. وكيف لا والكلُّ قد

تخلّى عن القيم الرُّوحيّة والأخلاقيّة وأصبحَ يدين بقيمة الأشياء المصنوعة بالعقل واليد.

التّاريخ يُخبرنا دائماً عن أشخاص استطاعوا التَّغلّب على هذه الفوضى الدّاخليّة، الأنبياء مثلاً، والمعلّمون المتنوّرون. هذا أمر لا شكّ فيه، لكن الأمر الَّذي يبعثُ حقيقة على الحيرة، هو أنّ الفوضى ظلّت مستمرّة بعدهم، لماذا؟! أعتقدُ أن السرّ يكمن في تخلّي الإنسان عن دوره الفاعليّ والفعّال في العالم. لا يكفي الوجود فقط على هذه الأرض، ولكن لا بدّ من التّفاعل ومساعدة الآخرين من أجل الخروج من هذه الدّوّامة الآن، وليس غداً، لأنّ كلّ تأجيل لن يأتي معه سوى المزيد من الدّمار والحروب والبؤس والضّياع.

لنبدأ من البيت، من المدرسة من الحيّ والشّارع ثمّ المجتمع الواسع. لأنّ الوعيَ يجبُ أن يحدث في هذه اللّحظة، ولتتذكّر أنّ الغد هو للكسالى والبلداء وغير المهتمّين بالعالم. نعم، التّغيّرُ يحدثُ الآن، والتَّخلّص من المشاكل أيضاً، هكذا فقط يمكن لكلّ فرد أنْ يتجاوز موجة الدّمار التّسوناميّ الّذي يطرقُ الأبواب في كلّ لحظة وأوان.

***

٢٠) هل يفهمم المرء ذاته المستبطنة في الأعماق، أم يحتاج لتجربة طويلة كي يفهم ما يجولُ في أعماقه؟!

ليس فقط يحتاج لتجربة طويلة، بل يحتاج لحيوات أخرى في عالم البرزخ، وكذا في عوالم الملكوت السّنيّة. الإنسانُ في تطوّر مستمرّ ولا يُمكنُ لرحلة الأرض أن تكون كافية لكيْ يستنبط ما في أعماقه. ثمّة عوالم خلقها اللّه لا نعرفُ عنها شيئاً، وثمّة بداخلنا كون عظيم مازلنا لا نعلمُ منه شيئاً، وذلك لإنّنا في خوف مستمرّ، وتردّد وارتباك لا ينتهيان. كلّ شيء مقيّد بما ورثناه منذ عهود سحيقة، كلّ شيء

مكبّل بالأجوبة والأفكار الجاهزة الّتي تسجنُ الأديانُ النّاسَ في أقفاصها، في الوقت الّذي يحتاجُ فيه الوجودُ لعقل يُعيدُ ترتيبَ الأشياء، عقل جديد يتّحدُ مع القلب في قضايا الرّوح الكبرى، ويغامر ويسافرُ معه إلى الأعماق. لذا، فإنّني أعتقد أنّنا مازلنا في ظلمات الرّحم الأولى، ومراحل التّخلّقِ الجنينيّ في كلّ ما يتعلّق باكتشافات الزَّمن والمكان بمفهوميْهما الفيزيقيّ والرّوحي. مازالت العديد من الأسئلة معلّقة، ومازلنا نخاف من الأسفار في عوالمنا الدّاخلية.

***

٢١) هل فاجأتكِ اللّغة، الكلمة، الحرف مثلما فاجأتني، كيف استقبلتِ اللُّغة بكلِّ مدلولاتها منذ طفولتكِ؟!

الصّمتُ كان منذ البداية لغتي، والإشارة كانت حرفي، هكذا قالت لي والدتي. حينما كانت تحملني بين يديْها ولمّا أتجاوز بعد السّنة الأولى من عمري، كنتُ كلّما نظرتُ إليها رفعتُ سبابة يدي اليمنى إلى السّماء وابتسمتُ بلطف. كانت والدتي تُربكُها هذه الحركةُ كثيراً، ولم تكُن تفهم ما الّذي كنتُ أقصدُه بها. وحينما كانت تضعني فوق الفراش، كنتُ لا أتحرّكُ أبداً، فسمّتني بحَجَر البحر، مهما تكسّر الموج فوقه يبقى في مكانه هادئاً ولطيفاً. وحينما تعلّمتُ اللّغة، كان أوّل ما كنتُ أتحدّثُ به أحلامي، وكان والدي كلّما صافحني في الصّباح بعد الاستيقاظ يقولُ لي باسما: "أين كنتِ البارحة يا ملاكي الصَّغير؟"، إلى أن حدث ذات مرّة أن قلتُ له: "كنتُ معكَ، وقد رأيتُكَ تسقُطُ من نافذة بناية ذات طوابق شاهقة". فشهق وسألَ منزعجاً: "وهل متّ؟" قلتُ له ضاحكة: "لا، جئتُ أنا بعد ثلاثين دقيقة وأنقذتُك بإصبعي"، ثمّ رفعتُ سبابتي الصَّغيرة إلى السّماء. مضت ثلاثون ليلةً، وتمّ إيقاف والدي عن العمل بسببِ مشاكل وخلافات ومكائد كان يحيكها ضدّه أعداؤه. وكانت تلك

أصعب فترة مرّ بها والدي في حياته، قبل أن يعود إلى عمله من جديد في مدينة أخرى.

كبرتُ وتعمّقتْ أحلامي أكثر فأكثر ومنها دخلتُ إلى عوالم القراءة ثمّ الكتابة فيما بعد، وبدأ العطشُ والنّهم إلى اللّغة يزدادُ كلّ يوم أكثر فأكثر، وبدأتُ أحفر في أرض الحرف بإزميل المحبّة إلى أن أصبحتِ الأبجديّة أمّي الجديدة، بها شكّلتُ هويَّتي، وبها بدأتُ رحلتي الحقيقية نحو أعماق الرّوح، ومازال لليوم السّفرُ مستمرّاً. إنّني أرى نفسي دائماً في البداية، وأراني سائحة لا تكلّ ولا تملّ من الاكتشافات المبهرة.

***

٢٢) ماذا ينتابكِ وأنتِ وسط الغابة تنظرينَ إلى بهاءِ الفراشة وروعةِ الطَّبيعة، وتسمعين إلى تغريدِ البلابل؟

أسماء غريب في إحدى الحدائق الإيطاليّة

الكون بكلّ ما فيه من طبيعة ونجوم وكواكب وأقمار وعوالم أرضيّة وسماويّة هو الجزء المكمّل لأكواننا الدّاخليّة، بل هو الصّورة المرئيّة لها في عالمنا المادّي، ولا فاصل أو مسافات تحدُّ بيننا، ومتى ما استوعبنا هذه الحقيقة ازداد حبّنا لأنفسنا واحترامنا للكون والوجود بأسره. الغابة هي الإنسانُ متى ما دخل إليها وجب عليه تحديد خرائطه ومواقع أسفاره وأماكن انطلاقه ووصوله، وإلّا تاه بين أدغالها، والتهمته سباعُها ووحُوشها. عليك أن تكون عارفاً أيّها الإنسان بغابتكَ السّرّيّة، وبأهلها وسكّانها من طيور وفراشات، وكذا من نمور وثعالب وذئاب، وحيتان وأسماك وما إليها. أمّا عن غابتي فهي مزيج من كلّ هذا وذاك فيها الشّموس والأقمار، وفيها الأنهار والبحار، وفيها الجبال والأشجار، تارةً أمشي فيها بدون أن تلمسَ قدماي التّراب، وتارة أغوص في محيطاتها بكلّ بهجة وفرح وسرور، وتارةً أحلّق مع نسورها، وتارات كثيرة أغازل طواويسها البيض والحُمر والخُضر، ولي فيها إخوةٌ وأصحاب، فالشّجرة أمّي مثلاً، وطائر العنقاء جدّي، لأجل هذا كلّما رأيتُ شجرة في عالم المادّة جلستُ عند قدميْها، وكلّما سمعتُ أو رأيتُ طائراً دعوته ليجلس إلى مائدتي لنتدارسَ معاً أمور الحرف والفرح. ويا لسعادتي حينما أرى الأشجارَ تمشي مُقْبلةً عليّ باسمةً ضاحكةً تغنّي لي أناشيد المحبّة والسّلام. غابتي كلّها خير، تمدّني كلّ يوم بطاقة تتجدّدُ على الدّوام، تدعوني إلى الكتابة وتقول لي، إنّ حروفي هي الحَبُّ الّذي يبحثُ عنه اليمام، وهي المنّ والسَّلوى الَّذي يقصده الكثيرُ مِن الأنام. غابتي تدعُوني إلى محبّة الكون، وتُعَرّفني كلّ يوم بأصحاب جُدُد، يأتون للقائي كلّما تنفّسَ الصُّبح، وتأخذ بيدي وتربِطُ على قلبي وتُطَمْئِنُ روحي، وتقول لي إنّنا كلّنا إخوة في الخلق والخليقة، وإنَّنا كلٌّ إلى الحبيبِ أوّاب!

((حينمَا دخلتُ إليّ

وجدتُ في انتظاري حديقتِي السِّرّيّة

ونهراً عظيماً من المسكِ المُتَدَفّقِ

شربتُ منهُ حتّى أغميَ عليَّ
من شدّة الوجد والانتشاء
وحينمَا أفقتُ
رأيتُ أمامي أعمدةً من النّور
ونفقاً فضّيَّاً
حينما ولجتُهُ
طالعني كوكبُ زُحل
وتوقّفتِ الأرضُ عن الدَّوران
يا للسّذاجة
مَن قالَ إنَّ الأرض تدورُ
هي فقط دموعيَ الّتي تتدفّقُ
وتلكَ الوردة الصّوفيّة الحمراء
مازالتْ تنظرُ إليّ
وهي تتفتّحُ ببطْءٍ شديد
لتكشفَ للمُريدِ
سِرَّ الشّيْخِ
والسّماءُ تبكي بدموع من الألماس
أراهَا مطراً ينهمرُ في صمتٍ
هل رأيتَ أنت أيضاً
هذا الألماس
وأنت هناكَ بعيداً عنّي
في كوكب المشتري
الضّوء أزرق

وأعمدةُ النّور فضّية
ادخلْها لُطفاً
لتحملكَ إليّ
قطراتٍ من ندىً بنفسجيٍّ
تتساقطُ فوق الوردة الحمراء)).

***

٢٣) كيف يُمكنُ للمبدع أن يُحقّق السّلام مع ذاته ومع روحه ولماذا على الرّغم من كثرة المثقّفين والمبدعين من حولنا لم يتحقّق بعد هذا السَّلام المنشود؟!

الوصولُ إلى السّلام مع الذّات والرّوح ليس بالأمر الهيّن أبداً، وهو ليس شأن المبدعين فقط، أمّا عن المثقّفين على وجه التّحديد فهُم أبعد النّاس عن هذا المسار التَّطوّري، لأنّ الثّقافة في حدّ ذاتها تُنَاقِضُ مفهوم السّلام نفسه، وأنّى لها أن تسمحَ للإنسان بتحقيقه وفي أبراجها يتمسّكُ النّاسُ بكلّ ماورثوه عن الأجداد ويتناقلونه من جيل إلى آخر دونما أدنى تساؤل أو محاولة للتّجديد أو الغربلة! ألا ترى معي عزيزي القارئ أنّ الإنسانَ في الثّقافة مسجونٌ داخل قضبان الكليشيهات الّتي تُفرضُ عليه تارةً بِاسم الدّين وتارة أخرى باسم الفكر أو الفلسفة أو الأدب أو العلوم؟! والسّلام الحقّ لا يعنيه كلّ هذا بتاتاً لأنّه شأنُ الفرد بذاته وروحه، في الوقت الّذي تكون فيه الثّقافة شأنُ الجماعة والقبيلة والعشيرة ثمّ المجتمع، لأنّ بها تتأسّسُ المنظومات السِّياسيّة والدَّساتير والقوانين والأديان وما إلى ذلك. والسّلام هو حالة عميقة من التَّنوّر والتّفتّح الرّوحيَيْنِ، وهو أمر لا يحدث بالبساطة الّتي يتخيّلها الجميع، وأهل السّلام الأحقّاء قليلون جدّاً، وهو الأمر الّذي يدفعنا إلى التَّساؤل عن المعوّقات الّتي تحول دون تحقيق حالة الصّفاء والوئام والانسجام لدى كلّ إنسان، أيْ لماذا لا يحدث التَّنوّر إذن؟

هل رأيتَ عزيزي القارئ القمرَ ليلاً وهو يعكسُ ضوءَه فوق البحيرة؟ هل تساءلت كيف يحدثُ هذا؟ الأمر لا يتطلّب أيّ جواب من أيّ نوع، هو يحدثُ وكفى، لا البحيرةُ تطلبُ ذلكَ من القمر، ولا القمرُ يتوسّلُ البحيرةَ بأن تسمح له بالانعكاس فوقَها. والسّلام هكذا، لا يوجد أحد في الطَّبيعة يتآمر ضدّه أو يعوقه، فأنتَ البحيرةُ، وضوءُ القمر المنعكس فوقها هو حالة السّلام المنشودة، لن تطلبَه ولا هو سيركضُ خلفَك، إنّما إذا تحقّق ستصبحُ أنت وهو تشكّلان أجمل لوحة في الوجود. لكن والحال أنّ الإنسان قد هجرَ حالة البحيرة وأصبح بحراً هائجاً، فإنّ ضوء القمر يتكسّرُ فوقَه وتتجعّدُ أشعّته ولا يمكنه أبداً أن ينعكس بكلّ صفاء وبهاء ونقاء. أتعرف ما الّذي حوّلكَ أيّها الإنسان إلى بحر تصرخُ فيه الأمواج: إنّها الأفكار، أو الثّقافة الّتي حشوا بها عقلكَ باسم الدّين والسِّياسة فحرموا القمرَ من أن ينعكس فوقك، وحرموكَ من أن تكون بحيرةً أو مرآة صافية. لقد فُرض عليك كلّ شيء حتّى أنّك لم تعُد قادراً على التّمييز بين ما ينبغي أن تكون عليه، وبين من تكونُ أنتَ فعلاً. لا أحد اليوم يعرفُ من هو حقّاً وحقيقةً، لا أحد يستطيع أن يصدّقَ أنّه في الواقع بحيرة ساكنة وبديعة الجمال حدّ النّشوة، والرّوحُ فوقها زنبقة بيضاء تتألّقُ تحت ضوء القمر، لكن ما العملُ والكلّ أصبح ضحيّة الثّقافة بل الثّقافات العالميّة، ضحيّة الآباء والمدارس والجامعات والمؤسّسات وهلمّ جرّاً! جرّب عزيزي القارئ أن تستعيدَ حالةَ البحيرة، سيكون الأمر في البداية صعباً، وستشعرُ أنّك أصبحتَ فارغاً من كلّ شيء، وستفتقرُ إلى ثقافة المجتمعات من حولك بل ستشتاقُ إليها، لكن في المقابل ستكون قد تخلّصتَ من كلّ النِّفايات الفكريّة والإيديولوجيّات المريضة، وحتّى إن أصبحتَ فقيراً فإنّك ستكون غنيّاً بنفسك وببحيرتك الجديدة، بل بفكرك المستقلّ عن الجميع. أن تكون في حالة سلام، يعني أن تعود إلى طبيعتك الأولى، إلى فطرتكَ الّتي عليها وبها خُلقتَ:

((زهر النّارنج أنا

تحت ضوء القمر
سحرٌ يفوق الخيال
سأطلبُ من الرّيح
أن تحمل عطري
وتنثره فوق الجبال
سأصاحبُ الغيمة
وسأركض مع النّهر
فأنا أقيم هناك
في قطرةِ المطر
وعطرِ النّارنج
لأنّي سلام معتّق)).

***

٢٤) أهل السّلام هُم أصحاب التَّجلّيات الحلميّة بامتياز، كيف يُمكن تفسير هذا الأمر، وما معنى التّجلّي ولماذا يحدث؟!

هذا له علاقة بمستويات الجسد الإنسانيّ السّبعة، وحينما أقول السّبعة فإنّي أعني بها الجسمَ الفيزيقيّ، والجسم الأثيري ثمَّ الجسم النُّورانيّ، وبعده الجسمَيْن العقليّ الأدنى والعقليّ الأعلى، ثمَّ الجسميْن الإشراقيّ والرّوحيّ، وقد يبدو لأوّل وهلة أنّ هذا التّركيب صعب على الفهم والاستيعاب، في حين أنّه لا وجود لجسم بدون آخر، وكلّ جسم له دور خاصّ داخل هذه المنظومة الجسديّة السُّباعيّة التّركيب، والوعي الإنسانيّ يعبّر عن نفسه من خلال هذه الأجسام كلّها، فحينما يحدثُ التَّعبير من خلال الجسد الإشراقيّ على سبيل المثال فإنّ الإنسان يكون مقيّداً بهذا المستوى فتظهرُ التّجلّياتُ الإشراقيّة بشكل طبيعيّ تلقائيّ وقد تمتدُّ إلى الوعي

السّماوي فتصبح أكثر صفاء ونقاءً. والجسد الرُّوحيّ هو أساس الحقيقة الفرديّة، وهو فوق الزّمن والمكان: إنه الشّمس الإلهيّة.

وجسد الإنسان هو بُراقه، أو ناقتُه، أو ثعبانه أو عصاه الّتي بها يدخل إلى عوالم الملكوت الدَّاخليّة والَّتي بها تحدث الرّؤى والتَّجلّيات والفيوضات والجلاءات البصريّة والسّمعيّة. وكما ترى عزيزي القارئ فإنّي استخدمتُ مصطلحات البُراق والنّاقة والثُّعبان والعصا لأذكِّر بإشراقات وأسفار الأنبياء. وأنت أيضاً لا تختلفُ ولا تقلُّ عنهم في شيءٍ، فإذا استطعتَ أن تستوعبَ مَرْكَبَاتِ جسدك وتكويناته الإشراقيّة، وعرفتَ كيف تدخل إلى سماواتك فإنّك لا شكّ ستدركُ معنى ما أنا بصدد البوح به الآن.

جسمكَ طائرتُكَ وعليك أن تكون قُبطاناً بارعاً، لتعرف كيف تستمع إليها وتعتني بها جيّداً. يجب أن تحبّه إذ بالمحبّة فقط يمكنك أن تحترم العالم الإنسانيّ بأكمله، ويمكنكَ أن تصل إلى أرقى المستويات الإشراقيّة الَّتي مازال العلم لا يعرفُ عنها شيئاً. طائرتُكَ هذه هي القالبُ الّذي يحتضنُ جسمَكَ الأثيريّ والّذي به تكوّنَ جسدُكَ الجُرميّ وهُو المُوزِّعُ للطّاقة الحيويّة الصّادرة عن الشّمس والمنتشرة في الوجود بأسره، والّتي تساعدُكَ على تلقّي المعارف والفيوضات الّتي تتجاوز العالم الأرضيّ، والّتي يلتقطُها الدّماغ على شكل اهتزازات ويخزّنُها في ذاكرته عبر موجات منها ما يتلاءَمُ مع حالة التّأمّل والصّفاء، ومنها ما يظهرُ في حالة اليقظة والنّشاط الذّهنيّ، ومنها ما تحدثُ في حالة النَّوم العميق، ومنها أيضاً ما تكونُ في حالة الأحلام. إنّ عقلكَ عزيزي القارئ مثل المذياع كلّما عرفتَ كيف تتحكّمُ في إبرته وتوجِّهُها نحو الموجة الصّحيحة فإنّك ستستقبلُ بدون شكّ الإرسالات الأبهى والأنقى، ربّما يزورك معلّمو الأزمنة الماضية، ربّما تلتقي بالأنبياء والعرفاء والأولياء، وإذا كان مذياعُكَ على قدرٍ عالٍ من الصّفاء ربّما تصلُ إلى ما لم يصل إليه أحد قبلك، هذا جسدك

وذاك عقلك وأنت روح محلّقة في سماوات الملكوت الفسيحة، اشحذ همّتكَ إذن وطِرْ نحو الأعالي:

لوحة المذياع (أسماء غريب)

((بقلبي مذياعٌ لهُ دائرةٌ
تهتزُّ كُلّ آخر ليل عند قدميّ
وبُوقُه الحَلزونيُّ الأخضر
أعلّقُه لَحظة كلّ إرسال كالقِرْط بأذنيّ
ومَوْجاتُه تُحرّكُها كهْرباءُ الكونِ
كالبرَق الأسْود وسطَ نونِ يديّ.
مذياعُ قلبي حكايتُه غريبة
ومَحطّاتُ إرْسَاله عجيبة
مذيعهُ واحدٌ، يُسامِرُني كلّ ليلةٍ
بصَوتِه الرّخيمِ إلى الرّابعة
يُحَدّثني عن الله الواحد الأحَدِ
عن الطّواويس المُطوّقة بالنّور

عن الغِرْبان البيض والحُمر
عن دَوائر القَهْر والستّر والسّرّ والغُفرانِ
وأنا كغريبٍ يحملُ ببُطيْناتِ قلبه
وردةً من ياقوتٍ مُنْصهر
أهرُبُ وحيدةً بِدار إذاعتي
بعيداً بعيداً بعيداً
حيثُ أنْهار العَسل والنّبيذ واللّبن
أسمعُ وأسمعُ وأسمَعُ
لا أكلّ ولا أملُّ
فمَا أعْذب صَوْتَ مُذيعي بلْ ما أشْجاه
كلّ ليْلة بأذكاره بألحانه وترانيمِه
يُبْكيني يبْكيني يبكيني)).

***

٢٥) إذا مرضَ الإنسانُ، هل تتوقّفُ التّجلّيات؟ وهل يحرمُ المرضُ إنسانَ السّلام من التَّوغّل أكثر فأكثر في عوالم الملكوت البهيّة؟

المرضُ باب من أبواب الولوج إلى عوالم الحكمة والسّلام، وهو ليس بذاك السّوء الَّذي يتصوّره الجميع، إنّه يلازم الإنسانَ في كلّ مراحل حياته، لأنّه لغةُ الجسد ورسائلُه الَّتي على رجل السّلام أن يعرفَ كيف يفكُّ رموزها، وهذا لن يتأتّى لهُ إلّا إذا استوعب جيّداً أنّه والكون شيء واحد لا ينفصلُ ولا يتجزّأُ.

نعم، كلّ الكون فيك أيّها القارئ؛ الشّمسُ وقطرة المطر، القمر وذرّة الحجر، وإذا عرفت أنّ في القطرة يكمنُ سرُّ البحر، وفي الذرّة يكمنُ سرُّ الأرض، وأنّ في حركة الكون تكمنُ حركةُ عقلك فإنّك تصبح ولا شكّ عارفاً بأسرار الكون الكبرى الّتي يعدّ

المرضُ إحداها. ولكي تعرف ما المرض، عليك أن تعرف ما الصّحّة الّتي هي تناغمٌ في الأفكار والوظائف الّتي يؤدّيها الجسدُ خلال حياته اليوميّة، واختلالُها يعني ظهورُ المرض، ويعني أنّه ثمّة شيء في حياتنا ليس على ما يرام ولا نقوم به على الوجه الأمثل. وعليه تصبحُ رسالة المرض الأولى هي التّنبيه إلى طريق السَّلامة والأمان. والمرض باعتباره أزمة فإنّهُ دائماً في حالة تطوّر يجب أن نعطيها الوقت الكافي لتكتمل حتّى يحدث الشّفاء. وعلى المريض أن يعي هذا جيّداً، ويتعلّم كيف يطرح على نفسه أسئلة من قبيل: لماذا مرضتُ، أين أخطأتُ، وأين الخلل؟ وعليه أن يعرف أيضاً أنّ الشَّفاء لا يتحقّقُ بمحاربة المرض بقدر ما يتحقّق بمصاحبتهِ والاستئناسِ به ليتحقّقَ الإنصاتُ إلى كلّ علامة وإشارة يرسلها إليك جسدُك المريض وعرضها بالتّالي على الطّبيب. لا بدّ أن يصل المريض إلى هذا المستوى من العمق لتحدثَ له الرّؤيا، فالأعراض المرضيّة تقول الكثير، وتوفّر للإنسان شروطَ التَّعلّم، خاصّة منها تلك الّتي تسمح له بالتَّعرّف على ظلّه، لأنّ كلّ المشاكل والاختلالات تكمن هناك، في هذه المنطقة المظلمة الَّتي تحتاج إلى وعيٍ قطبيّ كبير لا يتحقّق إلَّا بمغادرة فردوس الوحدة من أجل النُّزول إلى عوالم القطبيّة.

والعشقُ هو الدّواء الأوّل والأخير، لأنّه يفتح الحدود ويكسر الحواجز والعقبات. ومعظمُ الأمراض بما فيها السّرطان هي انتكاس في طاقة العشق، أو هي حبٌّ في الاتّجاه الخطأ، أو حبّ محمّلٌ بالأنا والغيرة والامتلاك لأنّه ينزلُ بصاحبه إلى درك الجسديّة ويجعلُ الأمراضَ تفرض قوانينَها فيه، ولو تأمّلتَ عزيزي القارئ فيما أقول ستجد أن العضو الّذي يحبّ، أيْ القلب، لا يتعرّض للسّرطان إلّا في حالات نادرة جدّاً جدّاً، تذكّر قصّة النَّبيّ أيوب مثلاً، أكل المرضُ كلّ جسده إلّا قلبه ولسانه. ولكي يتحقّقَ لك العشقُ وبالتَّالي الشَّفاء عليك أن تكون واعياً راضياً بكلّ ما هو موجود لتتّحد بالوجود، وتذكّر أنّ كلّ رفضٍ لما تراه مرضاً هو تجلٍّ خالصٌ للأنا،

في حين يأتي الشّفاء مع كلّ نعَم تقولها للحياة بكلّ ما تملك من قوّة. تذكّر أيضاً أنّ هذا الكمال والقبول الّذي أحدّثك عنه لا يُمكن أن يتحقّق إلّا على مستوى الوعي وليس على مستوى المادّة. والمرضُ لا يحدُّ من وقوع التَّجلّيات وإنّما يُعمّقُها في كثير من الأحيان، لأنّه هو نفسه لغة تُخْبِرُ رَجُلَ السّلام بآخر تطوّرات جسده وإلى أين هو ماضٍ، وما مدى عُمق سفره أم لا، وتقول له أيضاً إنّ السّفر بحدِّ ذاته أهمّ من الطّريق نفسه:

((وقلتَ: إنّي اخترْتُكِ لِي
فابتسمتُ خاشعةً خاضعةً
وقلتُ: إنّي لكَ، متَى وأنّى شئتَ ذلكَ
يا مولاي
قلتَ: الثّمنُ باهظٌ جدّاً
فهل تصبرين؟
قلتُ: وهل سأكونُ أفضل من جدّي محمّد
وأخِي يوسف وأبي أيّوب؟
قلتَ: عليكِ أنْ تمرضِي وتموتي ثمّ تقومي
هذا هو الثّمن!

*

سمعتُ كلامكَ فارتبكتُ وقلتُ باكيةً:
ليس بالشّيء الهيّن أبداً
أن أمرضَ ثمّ أموت
يا مولاي
قلتَ: مرضُكِ عرفانيّ
وموتُكِ وقيامتُكِ كذلكَ

فلا تخشيْ شيئاً يا صغيرتي
ستدورُ بكِ الأرضُ
ويُغمى عليكِ مرّةً في كلّ شهر
وسيأتي الأبدالُ لزيارتكِ
في عيادتك العرفانيّة الفضّيّة
ومِن بعدهِمُ الأماكنُ والجبالُ
والكواكبُ والنّجومُ.
قلتُ: ربّما تقصدُ أنّني أنا هذه العيادةُ العرفانيّة
وأنّكَ أنتَ الطَّبيبُ فيها والجرّاح؟!
قلتَ: نعم
عيادتُكِ كهفُكِ
وعليكِ أن تنامي فيه كالفتية السّبعة
قلتُ: ومن أين لي بالكلبِ الوفيّ
يؤنسُني ويحرسُ كهفي؟
قلتَ: كلبكِ بداخلكِ
لكنّه سينامُ هو الآخر مثلكِ
لا خيار في ذلكَ
فهو نفسُكِ الباسطةِ ذراعيْها بالوصيد
قلتُ: لِأمْرَضْ إذن ولأمُتْ
ما دمتَ قدْ شئتَ لي ذلك
يا مولاي.
*
وفعلا مرضتُ

ودخلتُ الكهفَ ونمتُ فيه
ثلاثة قرون أو ربّما أكثر
وباتتِ الشَّمسُ تزورني
وتُقَلّبني ذاتَ اليمين وذات الشِّمال
وبقيتُ هكذا غائبةً
وروحي تبكي بدلَ الدّمع دماً
إلى أنْ زارني الصّقرُ الحديديُّ الأكبر
فاستيقظتُ وقلتُ لهُ:
ما بالك تذكّرْتنِي بعد كلّ هذه القرون والأعوام؟
قال: جئتُ لآخذَ قلبَكِ
فغرسَ منقارَهُ في صدري
وانتزعَ قلبي
وطار بهِ إلى الجحيمِ
هناك حيث توجد سدرةُ المختارين
منْ أهل العشقِ والمحبّة
نعم يا صاحبي،
لقد علّقَ الصَّقرُ قلبي في السّدرة
وتركهُ لثلاثة قرون أخرى إلى أنْ استوى ونضجَ
وأصبحَ كحبّةٍ من التّين المجفّف
ثمَّ عاد إليّ
وفصلَ رأسي عن جسدِي
ولحمِي عن عظمْي
ثمَّ طارَ وتركنِي

وجاءتِ الرّيحُ الذَّهبيّةُ من بعدِهِ
فأخذتْ عظامي ونثرتها
على أربعِ جهات
وفوق خمسةِ جبال
كلّ هذا وأنا أسمعُ وأرى
*
نعم يا صاحبي،
كلّ هذا وأنا أسمعُ وأرى
دون أن أنبس ببنت شفة
إلى أنْ زارني البدرُ الأحمرُ
فجمَعَ شملي
وأعادَ إليّ قلبي
وقال لي قبلَ أن يغادرني:
اخرجي الآن من كهفكِ
فقد أصبحتِ كما أردتُ لكِ.
ومنذ ذلك اليوم
وأنا لا أعرفُ ما الّذي أصبحتُهُ حقّاً:
عارفةً؟ ربّما
طبيبةً؟ ربّما
لا أعرفُ شيئاً صدّقوني،
سوى أنَّني ذاكَ الاسمَ الّذي جمعَ كلّ الأسماء)).

٢٦) ما رأيكِ بما ترينه على السّاحة من فوضى وعلاقات مخلخلة بين البشر، وبين الدُّول والدَّولة الواحدة مع مواطنيها، كيف يمكن والحالة هذه أن نعالجَ كل هذه الخلخلات في العلاقات بين الدُّول والأفراد؟

كلّ هذا يحدثُ بسبب عدم إدراك الإنسان لليوم حالةَ الوعي الرّوحيّ الحقّ. إذا تأمّلتَ واقعَ الإنسانيّةِ في زمننا المعاصر، ستجدُ أنّه لا يوجد فرد واحد قادر على الغوص حقيقة في عالمه الدّاخليّ، إلّا من رحم ربّي طبعاً! ربّما قد يحدثُ أن تسمعَ مثلاً أنّه في مكان ما من الأرض، قد تمّ تكريمُ أكبر متسلّق لجبال الألب أو الهملايا، أو أكبر غوّاص للبحار أو أكبر عدّاء للمسافات الطَّويلة، لكنّك لن تسمع أبداً عن تكريمٍ لأكبر غوّاص في بحار الرّوح أو عدّاءٍ في صحاري الجسد الدّاخليّة، هؤلاء يا صاحبي لا يكرّمُهُم أحد، إنّما يُنْعتون بالمجانين والمهلوسين، وفي كثير من الحالات يوسمون بالسّحرة والمشعوذين؛ وتاريخُ الأنبياء مليء بمثل هذه القصص الّتي تؤرّخ لما تعرّضوا له من اضطهاد ومحن، فقط لأنّهم قفزوا قفزة نوعيّة كبيرة في عالم الرّوح والعُلوم اللّدنيّة.

عالمنا عجيب وغريبٌ حقّاً، انظر إلى الأطفال من حولنا مثلاً، ستجدهم في حالة يرثى لها، ما إن يصل أحدُهم الرّابعةَ من عمرِهِ حتّى يزجّ به أهلُه في روضة الأطفال ليجدَ نفسَه محروماً فجأة من حنان أمّه وحضنها الدَّافئ ووسط أطفال يصرخون باستمرار، أو يضربون بعضهم بعضاً، أو ينطقون بالكلام الفاحش، ووسط معلّمات يتعاملن معه وفقاً للحالة الإقتصاديّة لوالديْه، ويا لعظيم حظّه إذا كان ابنَ أسرة ثرّيّة! وهكذا منذ سنّ مبكرة يفتحُ الطّفلُ عينيْه على هشاشة العدالة وقسوة الظّلم. ثمَّ بعد ذلك يبلغُ السّادسةَ من عمره ويزجّ به مرّة أخرى في المدارس الابتدائيّة وهناك تستمرّ قصص الحيف والخوف والغباء، وبعدها تأتي المدارس الثّانوية ثمّ الجامعات الّتي يتخرّج فيها وهو لا يعرفُ شيئاً عن الحياة بتاتاً، وحينما يغادر جدرانَها يجدُ نفسَه فارغاً من كلّ شيء.

كلّ النّظام التّعليمي في معظم دول العالم هو جريمة ممنهجة تُرْتكَبُ في حقّ الطّلبة منذ البداية: إنّهم مجبرون على كلّ شيء:

- مجبرون على أن يتعرفّوا في المقرّرات البدائيّة على الإلياذة مثلاً بكلّ ما فيها من حروب وغضب وعنف؛
- مجبرون على أن يعرفوا من هو الإسكندر المقدوني الفاتح العظيم الّذي جاب الأرض طولاً وعرضاً يُشعلُها بالحروب؛
- مجبرون على أن يعرفوا أيضاً من هو جنكيز خان وكذا نابليون بونابارت وإيفان الرّهيب، وتكتملُ اللّوحةُ الدّامية وتصل الذّروة حينما يفتحون صفحات المقرّر في مادّة التّاريخ، فيجدونها تتحدّث عن الحرب العالميّة الأولى والثّانية، ثمّ عن الفتوحات والحروب الدّينيّة الكبرى!

لماذا كلّ هذا العنف؟ التّاريخ يصوّر السّفّاحين كأبطال عظماء. والجغرافيا تقسّمُ العالَمَ إلى دويلات السّيطرةُ فيها للأقوى. وكتُب الأدب تُخدّر العقول بأفكار بالية أكل عليها الدّهر وشرب، وكتبُ التّربية الدّينيّة تضجُّ بالفتاوى الدّامية الّتي تكفّرُ الآخرَ وتقصيه. لماذا كلُّ هذا إذن؟ وما الّذي تنتظرونه من شباب يقضون زهرة عمرهم في تلقّي هذه النّفايات، سوى أن تجدونهم بين ليلة وضحاها يفجّرون أنفسَهم في كلّ مكانٍ؟

لقد فقد الشّبابُ براءتهم بسبب فساد الأنظمة التّعليميّة، والثّمن باهظ جدّاً، مجتمعات غارقة في التّخلّف والعنف والدّمويّة، ولا حلّ سوى إعادة ترتيب الأوراق والأفكار، ونسف المنظومات البالية من الأعماق. ولتتذكّرْ عزيزي القارئ أنّ العقل الإنسانيّ اليوم هو بحاجة شديدة إلى وقفة تأمّليّة عميقة جدّاً من أجل الدّخول إلى حضرة الصّمت والإنصات إلى الأشياء من الدّاخل، ويكفي الإنسانيّة جنوناً وتيهاً وعطشاً وموتاً ما بعده موت. والحال أنّك مازلتَ تسألني للّحظة عن السّبب الّذي جعل

الإنسانَ يصلُ إلى هذه الدَّرجة من الحضيض والوحل، دعني أروِ لكَ حكاية "الملك والشّاعر" لأقرّبَ لكَ الصّورة أكثر:

((كان يا ما كان في قديم الزَّمان ملكٌ عظيمُ الجاه والسّلطان، وكان يعيش معه في مملكته شاعرٌ مجنون عُرف بشِعره الَّذي يسلبُ الألباب ويسحرُ القلوب، وشاءتِ الأقدارُ ذات يوم أن فتَح الملكُ أصقاعاً جديدةً وضمّها إلى مملكته، فسمعَ الشّاعرُ بالأمر ونظَم في هذا الانتصار قصائد بديعة ثمَّ ذهبَ بها إلى الملك ليقرأها بين يديه في قصره الكبير، وبينما كان السّلطانُ مأخوذاً بعذوبة الشِّعر إذا بفكرة عجيبة تلمعُ في ذهن الشّاعر، حتّى أن هذا الأخير قال على إثرها مخاطباً الملكَ مباشرة:

- لا بدّ لهذا الانتصار والفتح من هديّة عظيمة تليق بمقامك يا مولاي؛

ابتسم الملك وقال:

- قصائدُك لي اليوم أعظم هدية
- لا أقصد هذا يا مولاي، وإنّما أنتَ تستحقُّ منّي أكثر من هذه القصائد. نعم، أنت تستحقُّ أن تلبس لباس الآلهة!
- وهل يوجد في الأرض كلّها اليوم لباس أشدّ فخامة من لباسي أيّها الشّاعر؟ أم أنّه حَضَرَتْكَ نوبةٌ من نوبات جنونكَ بين يديّ الآن؟
- لا يا مولاي: هناك لباس لا يرتديه سوى الآلهة، وبما أنّك وصلتَ إلى مصافّهم، فأنت أحقُّ اليوم بلباسهم منهم.
- وكيف السَّبيل إلى هذا اللّباس؟
- اترك الأمر عليّ وأنا في غضون ستّة أشهر سأحضره لك.
- إيّاك من الشّطحات الجنونيّة في بلاطي، وإلَّا أمرتُ بقتلك.
- أبداً، أنا لا أشطح، إنّما سيحتاج الأمر فقط إلى بعضٍ من الملايين الذَّهبية من خزينتك الكريمة، سأعطيها كمقابل لشراء اللِّباس من الآلهة.

– لك هذه الملايين، ما دمتَ تقول إنّك الوحيد في المملكة من يستطيع التَّواصل مع الآلهة، وإنّهم هُم من يوحون لك بهذا الشّعر الخلّاب الّذي جعل منك أعظم شاعر في كافّة الأقطار.

خرج الشّاعرُ وخلفَه حشد من الحرّاس أرسلهُم الملكُ ليحرسوا الشّاعرَ طيلة السّتة أشهر مخافة أن يهرب بالمال ولا يُحضِر لباسَ الآلهة المزعوم.

ومرّت الأشهُر السّتّة دون أن يغادر الشّاعر المملكة، وفي اليوم الموعود خرج من بيته وبين يديه صندوق صغير اتَّجه به إلى القصر مباشرة. وحينما وقف باشّاً ومبتهجاً بين يدي الملك قال:

– لقد أحضرتُ لك لباس الآلهة. يا إلهي ما أجمله وما أبهاه!

ثمّ انحنى وفتح الصّندوقَ الصّغير وأخرج منه اللباس وهو يصيح من شدّة الفرح:

– يا لبريقه يا مولاي، إنّهُ لا يليق إلّا بك.

بهت الملك وقال:

– هل جننتَ أيّها الشاعر المهووس. إنَّني لا أرى أيّ لباس، ولا أرى هذا البريق واللّمعان؟ أين هو؟

– إنّه أمامك يا مولاي، لكن عليكَ أن تتذكّر أنّه لا يستطيعُ أن يرى لباسَ الآلهة إلّا من عنده اليقينُ التّامُّ بأنّه ابنَ أبيه الشَّرعيّ، وليس ابنَ أمّه فقط.

صعقَ الملكُ من جواب الشّاعر، ثمَّ فكّر قليلاً وهو ينظرُ إلى الصّندوق الصَّغير وقال فجأة:

– يا لجمال هذا اللّون الأخضر البرّاق، ما رأيتُ قطّ لباساً أشدّ أناقة ولا بذخاً من لباس الآلهة هذا!

نظر إليه الشّاعرُ بمكر وقال:

– عليك أن تخلعَ لباسك وترتديه إذن، هكذا فقط تصبحُ إلهاً جديداً بين النّاس.

اضطرب الملكُ واحتار فيما عليه القيام بهِ حقيقة، ثمَّ قرّرَ في الختام أن يخلع لباسه القديم ويرتدي هذا اللّباس الجديد وسط هتافات الحاشية والجمهور وجميعهم يقولون: يا لجمال لباس الآلهة الجديد ويا لبداعته! وكيف لا يقولون هذا وكلّ واحد فيهم مثل الملك يخشى ألّا يُنسبَ إلى أبيه الشرعيّ ولادةً وأصلاً!

وفي اللّحظة التي لبس فيها الملكُ بدلته الجديدة التي لا يراها أحد، صاح الشاعرُ وقال:

– الآن وقد ارتديتَ بدلتك الرّسميّة الجديدة، عليك أن تخرج إلى مدن مملكتك وتطوف بها كي يراك الجميعُ ويبايعونك إلهاً جديداً.

امتعض الملكُ من طلب الشّاعر أمام الجميع لكنّه خوفاً من أن يُنعت بالابن غير الشَّرعيّ لأبيه، فيَسْحَبَ منه الشّعبُ المُلكَ، خرج إلى المدن وبدأ يطوف بها والجميع يهتفون: يالجمال لباس الآلهة هذا ويا لبداعته! إلّا طفلاً واحداً، كان مع أبيه وسط الحشود الغفيرة قال فجأة:

– أبي إنّ الملكَ عاريٌ تماماً كما ولدته أمّه، إنَّني لا أرى عليه أيّ لباس.

صعق الوالدُ من ملاحظة ابنه ثمَّ رفعَ يدهُ وضربه على رأسه قائلاً:

– هل جننتَ يا ولد نحن جميعاً نرى لباس الآلهة على الملك، إنّك مازلتَ صغيراً وليس عندك تجربة في هذه الأمور. الآن اسكتْ ولا تُعِدْ ما قلتَه أمام أحد. هل فهمت؟

صمت الولدُ والدّمع في عينيْه والحيرة تلجمه، فقد كان المسكين هو الوحيد الّذي رأى الملكَ على حقيقته ولم يستطِعْ أن يستوعبَ كيف أن الجميع ينكرون الأمر، ولا كيف أنّ الملكَ قبِلَ على نفسه هذه المهزلة المُشينة!)).

ما أريد أن أقوله عزيزي القارئ من خلال هذه القصّة هُو إنّ العقلَ البشري إذا تمّ حشوُه بأفكار مسبقة اتّفَقَ عليها الجميع فلا يمكن زحزحتها منه وقد يتطلّبُ الأمرُ المئات من السِّنين ليتخلّصَ من قناعاته الَّتي جعلها الجميعُ قانوناً وحجّةً وبرهاناً،

والشّأن نفسه بالنّسبة للتربية الخاطئة التي يتلقّاها الأبناء في المدارس والجامعات عبر مقرّرات وكتب وموادّ تقتل فيه الإبداع والذّكاء وتعلّمُه كيف يصبح مجرّد ببغاء يفكّر بعقل غيره لا بعقله هو. وليس هذا فحسب، صحيح أنّ الأطفال عندهم القدرة على رؤية الحقيقة لكنّهم حينما يكبرون يتغيّرون تماماً ويصبحون مثل آبائهم أو ربّما أكثر في الجهل والتَّعنّت. طفل صغير يمكنه أن يقول لك بكلّ بساطة وعفوية أمام تمثال يُجَسِّدُ وجهَ قدّيس ما أو نبيّ أو إله، إنّ الأمرَ كلّه مجرّد حجر يتمسّحُ به النّاسُ بدون أدنى فائدة، لكنّه حينما يكبرُ ستجدهُ يرسمُ علامة الصَّليب مثلاً أمام هذا الحجر، أو يذهب للصلاة والتَّبرّك بضريح وليّ ما حسب العقيدة الّتي ينتمي إليها. وسيجدُ كلَّ النّاس يوافقونه الأمرَ ولا أحد منهم سيرى في التّمثال ولا في الضّريح مجرّد حجارة لا نفع ولا ضرر يرجى من ورائها. لأنّهم جميعاً كما ملك الأقصوصة يخافون من شيء ما: الملكُ يخاف من أن ينسب إلى غير أبيه، والنّاس يخافون من النّار والجحيم. وطالما الأمرُ هكذا فلا فائدة ترجى من هذا العالم: أيْ طالما أنّ النّاس يتحرّكون بدافع الخوف من الجحيم والطّمع في الجنة، فلا فائدة منهم ترجى أبداً، ومازال الجميع عند نقطة الصّفر، ومازالت العقول أشدّ قسوة من الحجارة وربَّما أكثر. تحجّرُ العقل أمر خطير، وهو لهذا –أيْ العقلُ– أصبحَ لقمة سائغة للإيديولوجيَّات المختلفة تلعبُ به وتُشَكّله كما تشاء، والضَّحية طبعا هو الإنسان.

تذكّر عزيزي القارئ أنّك حينما ستجد عملاً بعد أن تكون قد تخرّجت في الجامعات "العظيمة جدّاً"، سوف يُجبرُكَ المجتمع على الزّواج، لأنّ الجميع يقومون بهذا، وعليكَ أنتَ أن تفعل مثلهم، ثمّ تنجبُ الأطفالَ وأنت الَّذي لمْ تتمتّع قطُّ بطفولتكَ، ثمّ عليك أن تربّيهم وتعيد فيهم إنتاج ما تلقّيته في المدارس والحياة، وحينما ستصلُ إلى الخمسين من عمرك، سيداهُمُك سؤال كبير: ما معنى هذه الحياة وما الهدف منها؟!

في السّتّين ستصبح أكثر تأمّلاً لحياتك الّتي سرقَها منك الجميعُ دون أن تشعر بذلك، وبعد أن تستوعبَ حجمَ الجرائم الّتي ارتُكِبَتْ في حقّك باسم المجتمع والدّين والثّقافة والسِّياسة، وحجمَ الخيبات والخسارات الّتي تراكمت بين يديك، تستيقظُ فجأةً من سباتك العميق، وبعد أن يتحقّق لك هذا تكون قدمُكَ على حافّة مثواك الأخير والملائكة من حولك يهلّلون ويكبّرون ولسان حالهم يقول: أهلاً بكَ أيّها التّعيس.
يا للخسارة العظيمة، حياتُك نكتة سخيفة جدّاً، ولا تُضحكُ حتّى سُكارى أرخص خمّارة في العالم!.

***

٢٧) هل توافقيني الرّأي، لكي نحقّق السّلام، نحتاجُ لسنِّ قوانين جديدة تساهم في تحقيق السَّلام في العالم؟

السّلام لا تأتي به القوانين، لأنّ النّاس يخالفون القوانين ويخرقونها، اسأل رجال الأمن ومن يعملُ في المحاكم ويتعامل مع الدَّساتير سيؤكّد لكَ ما صرّحتُ به الآن. وكلّ شيء يتجاوزُ الفردَ لصالح الجماعة ينتهي بالفشل. معظم الجمعيات الّتي تدّعي الاهتمام بترسيخ السّلام في العالم آلت إلى الزّوال، والسَّبب في ذلك بسيط: الكلّ يبدأ بنيّة حسنة، وتكون الأفكار طازجة، والعواطف ملتهبة، والتَّفاؤل مشتعلاً في القلوب، ويكونُ الأمل كبيراً في أنّ شيئاً سيتمّ تغييره في العالم، وأنّه سيعمُّ السّلام أخيراً، لكنْ يحدث دائماً أن تتغيّرَ النّوايا بتغيّر أطماع رؤساء الجمعيّات نفسها ومديريها، تتغيّرُ حينما تبدأ الأموال تدخل إلى الجيوب، أموالُ العطايا والهبات والمساعدات الدّوليّة، وتبدأ سوسة الفساد تنخر المبادئ الرّئيسة الّتي قامت عليها جمعيّة أو منظمة أو مجتمع ما، ويزداد الطّين بلّة حينما تحدثُ الخيانات الدّاخليّة في جسد الجمعيّة وما سنّته من قوانين.

٢٨) هل قادكِ السَّلام مع ذاتِكِ إلى السَّلام مع الطَّبيعة، مع البشر، مع الكلمة على إيقاعِ هديلِ اليمام؟

السّلام الذّاتي يقود إلى السّلام مع كلّ شيءٍ، والطّبيعة تكونُ أوّل شاهدٍ على ذلك، لأنّها تُصبحُ المتحدّثَ الرسميّ في القلب بلغة أهل السّلام. فيحدّثُكَ الشّجرُ ويكلّمكَ الطّير، وتُشرق على وجهك الشّمس، ويتخاطبُ معكَ القمر. وسِيَر العديد من القدّيسين والأنبياء فيها الكثير من القصص عن هذه العلاقة الحميميّة الّتي تربطُ بين إنسان السّلام والطّبيعة بكلّ عناصرها، وما على الإنسان سوى أن يكون منتبهاً إلى هذا النّوع من اللّغة ورموزها، ولا شكّ سيرى في كلّ يوم من حياته أن ما من شيء في الوجود إلّا ويتحدّث بلغة السّلام وإن كان معظم النّاس لا يفقهون ذلك. وهي اللُّغة الّتي أراها شخصيًّاً في كلّ مكان، حتّى وإن كان مجرّد مدينة تضجُّ بالبنايات الإسمنتيّة، يكفي أن تكون هناك شجرة صغيرة لأجدها ممتلئة بالحمام واليمام كما حدث لي في هذا اليوم الّذي طالعتني فيه شجرة صبّاريّة وفيها العشرات من الحمائم الجميلة، تقول لي: صباحك سلام يا سيّدة السّلام. فكان أن أجبتُ بسؤال تسبيحيّ أقول فيه: كيف يجتمعان يا إلهي الصّبار واليمام؟ الشّوكُ والسّلام؟!

وحدها الطَّبيعة بلغتْ أرقى مدارج السّلام، ووحدها تقول لي إنّه بالقطبيّة تتوازنُ الأشياء، وبالأضداد تُعرف الحياة، ووحدها تحثّني على أن أكون الشّاهدة على ذلك بقلمي وفكري!

شجرة اليمام الصبّارية

٢٠١٩/٠٢/١٠

٢٩) لماذا هناك عدّة أديان وليس ديناً واحداً يوحّد البشريّة، ويقضي على الخلافات النّاشبة بين الأديان؟!

هذا سرّ من الأسرار الإلهيّة أفضتُ في الحديث عنه ضمن الجزء الأوّل من (رحلة المئة سؤال وجواب)، ولكن لا ضير من أن أتناوله في هذا الجزء الثّاني من زاوية ثانية لأفتحَ أبواباً جديدة للتأمّل في هذه التَّعدّديّة الَّتي هي مفتاح من مفاتيح ثراء الإنسان وتعدُّد الطُّرق الَّتي تقوده نحو السّلام الدّاخلي. ليس هناك من شكٍّ في أنّ الإنسان عرفَ منذُ الأزل أنّ قلبَه هو معبد المعابد الكبرى، فدخلَ إلى أعماقه باحثاً عن السِّرّ، لكن هذا المعبد لم يكن كافياً بالنّسبة له، فهو ليس كالنّملة يكتفي بالغار، ولا كالطيّر يكتفي بالشّجرة، ولكنّه رأى أنّ السّماء قبّة ترتكزُ على أعمدة الأرض، ورأى أنّه وحيد وضعيف وصوتُه يضيع في الفضاء، وحينما عرف سرَّ الصّوت وطاقته، فطِن إلى أنّه لا بدّ أن يجمع صوتَه وأصواتَ إخوانه في الإنسانيّة تحت قبّة أرضيّة تتمتّع بقدرة فائقة على إيصال الذَّبذبات الإيمانيّة إلى أعلى فأعلى، فبنى المعابدَ والكنائس والمساجد. ولو تتأمّل عزيزي القارئ في القباب الَّتي توجد في المعابد القديمة ستجد الكثير منها تهدف إلى التَّقرّب من صورة القبّة السَّماويّة الأصل، لأنّ الإنسانَ يعرفُ بفطرته أنّه متّصل بالسّماء. هناك آيات كثيرة في الكون، لكن من يلتقطُها، من يلاحظُها، ومن يقرؤُها؟ وكيف يحدثُ ذلك وآدم قد ألهاهُ التَّكاثر ولم ينتبه أبداً إلى أنّ المعابد، كلّ المعابد هي جهازٌ لاستقبال صاحب الدّار الحقيقيّ، كما القلبُ في الجسد الّذي هو بدوره جهاز لاستقبال صاحب الجسَد الحقيقيّ: اللهَ الّذي لا معبود سواه.

ما أكتبُه الآن عزيزي القارئ أقرؤُه أنا قبلكَ، ثمَّ تقرؤُه أنتَ بعدي، ولا أدري مَن الكاتب ولا من القارئ، ولا من السّائلُ ولا المسؤول، يكفي أنّ المعاني في القلب تتوحّدُ مهما اختلفتِ الأشكال والقوالب.

المعابد وإن تعدّدت بتعدّد الأديان فهي جاءت لتبثَّ مكارم الأخلاق في النّاس على اختلاف ألوانهم ولغاتهم ومشاربهم، لكن والحال اليوم أنّ النّاس أصبحوا لا يجيدون هندسة أيّ شيء، ولا يعرفون سرّ الصّوت ولا بركات الذِّكر فإنّهم أضاعوا البوصلة تماماً، ألمْ تلاحظ أنّني بدأتُ أطلُّ عليك بصوتي في قصائد أسجّلهَا لكَ وهي تلهجُ بِاسم الحيّ القيّوم؟! الصَّوتُ هو الكائن الحيّ المُطلقُ الكامل، وهناك أصوات تُحيي، وأخرى تقتل، والأذان مثلاً هو سرّ الصّلاة والقرآن والإنسان، ألمْ تسمعِ الحبيبَ وهو يقول: ((أرحنا بها يا بلال))؟!

وهل سمعتَ صوتَ الأجراس في الكنائس؟ إنّه يرنُّ في القلوب، يُعلنُ مع كلّ رنين قدوم المعبود وفرح العابد:

((حينمَا وقفتُ تحتَ الجرسِ
خرجَ لي من ديرِ العشقِ والمحبّة
قطبُ الرُّهبان الكبِير
وقالَ: انتبهِي
فالجدرانُ متآكلةٌ
وقد يسقطُ عندَ قدميكِ الجرسُ
ابتسمتُ بعذُوبة
وقلتُ: انتبهْ أنتَ
فالجرسُ، هُوَ
وهُو، لا يسقطُ أبداً
ولم يقفْ قبلَ هذا اليومِ
عندهُ أو تحتهُ أو قربَهُ أحدٌ،
ولا حتّى أنتَ،
أيّها الراهبُ التَّقيّ

فافتح الآن بابَ الدّير
واقرعْهُ بكلّ ما أوتيتَ منْ قوّةٍ
وردّدْ بعلو الصّوت:
حيّ على الصَّلاةِ
حيّ على الفلاح
حيّ على خيرِ العملِ
*
قرعَ الرَّاهبُ الجرسَ
وأتتْ للقائي عندَ بئرِ الوفاءِ
شجرةٌ حمراء
حطّ فوقَ أغصانِها الخضراءِ
سبعونَ ملَكاً،
فرحتُ وبكيتُ كثيراً لهذا اللِّقاءِ؛
فرحتُ، لأنّي رأيتُ مريمَ عند الشّجرة
وبكيتُ، لأنّي كلّمْتُ تحتها ابنَها الرّضيع
*
أيّ جرسٍ هذا، يا إلهي؟
وأيّة شجرةٍ تلكَ،
أهيَ شجرةُ الحروفِ
أم شجرةُ النّفْخِ
أم سِدْرةُ الملائكةِ المُرفرفينَ
فوقَ الأغصانِ الأربعةَ عشر
أمْ شجرةُ حاجبِ الدّير النَّائم قُربَ البئر؟

*

إلهي،
أفِقِ الحاجبَ منْ نومِه العميقِ
فهُو وحدهُ عندهُ الجواب:
هو وحده يعرفُ من تكون الشَّجرةُ
ومن يكون الدّير والجرسُ حقاً،
*

إلهي،
الحاجبُ حارسٌ وديع
يشبهُ حارسَ أهل الكهفِ
أو ربّما هُوَ.
إلهي،
الحاجبُ يقولُ:
إنّ الدِّيرَ أرشيفٌ عظيمٌ
يكتبُ فيه الرُّسلُ المقرّبون كلّ شيءٍ،
كلّ شيء عن الشُّعوبِ والأوطانِ،
وعن القلوبِ وجوارحِ الإنسانِ،
أمّا الشَّجرةُ، فحبيبي الواقف
والشَّاهدُ على الأعمالِ،
والجرسُ أنتَ يا إلهي:
جرسُ الحاء والباء
وجرسُ الوعدِ والوعيدِ)).

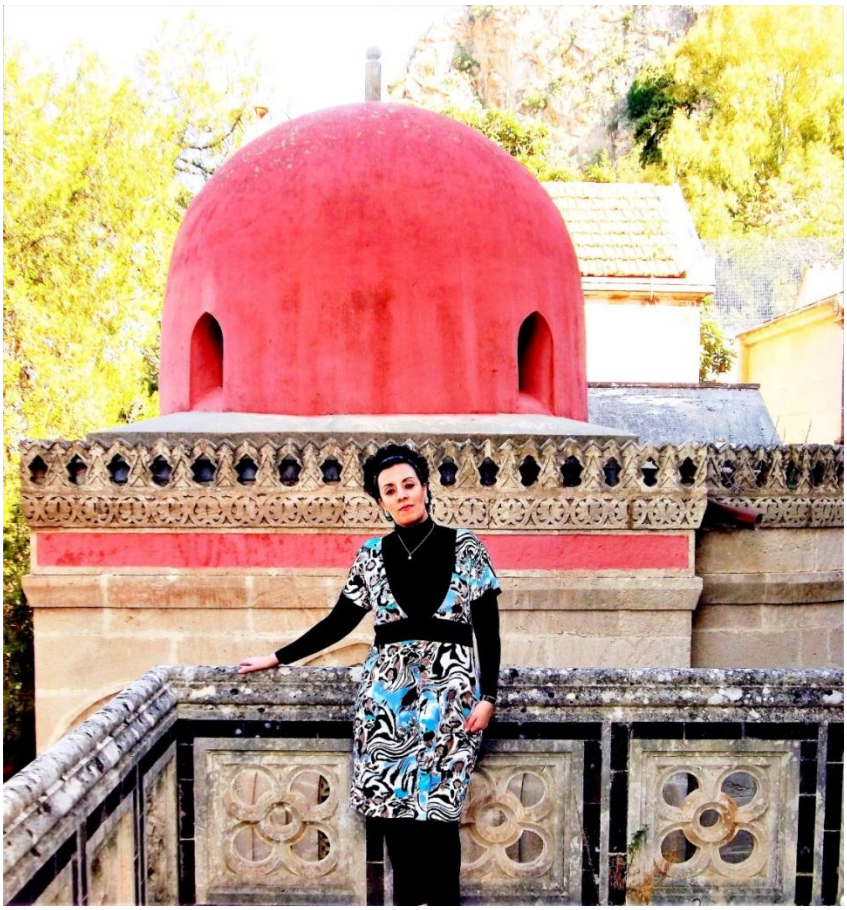

عندَ إحدى القباب الحُمر القريبة من كنيسة سان بنيدكت المورو

المعابدُ اليوم أصبحتْ تُفجَّر وتُفخَّخ، لأنّ جسد الإنسان فَسُد، وأكلَه الدّود والسّرطان وماعادَ قادراً على أن يشحَنَ نفسَه بالطّاقة الإلهيّة، فحمُضَ فيه كلّ شيء: ألا تعرفُ أنّكَ كالهاتفِ المحمول تحتاجُ دائماً إلى شحنِ بطاريتك لتتواصلَ مع الله؟ نعم إنّك هاتفٌ إلى الله محمول، فكيف يمكنكَ أن تقول "ألو" وأنت لا طاقة فيك؟! قُلْ "ألو" وافهم سرّي واعذرني إذ أنا حجبته عن الآخرين، فأنت تعرف أكثر منّي أنَّ الجواهرَ لا تُلقى في المزابل أبداً:

((حينما كنتُ طفلةً

كان عندي خِدرٌ هاتفيّ أزرق

لا أحد يعرفُ بوجودهِ سواكَ

وكنتُ كلما أويتُ إليهِ
ساعةَ الفجر
وجدتُ عند عتبتهِ
ملاكاً أسودَ البشرة
يُحدّقُ فيّ بعينينِ كبيرتيْن
ويبتسمُ لي بأسنان شديدة البياض
وكنتُ كثيراً ما أسالهُ عمّا يريدهُ منّي
فكان يردُّ بصوتٍ عذب:
مُكالمة هاتفية ليسَ إلّا
آسفةٌ يا سيدي الكريم،
هاتفِي ليس للمُكالمات العموميّة
كنتُ أجيبُهُ بصوتٍ طفولي.
لكنّني منَ الخاصّة يا طفلتي الحلوة
بلْ من خاصّة الخاصّة
كان يُعقّبُ على كلماتي.
وكيفَ لي أنْ أعرفَ ذلك؟
كنتُ أسألهُ وفي يدي اليُسْرى
دُميتي الورديّة
أحَرّكُها ذاتَ اليمين وذات الشِّمالِ
ارفعِي سمّاعة الهاتفِ فقط.
وبعْدَ ثانية طويلة منَ الانتظار
رفعتُ السّمّاعةَ
عفواً، أردتُ أن أقولَ

وضعتُ يدِي اليُمنى على قلبي
كَما أوْصَاني الملاكُ؛
فسمعتُ صوتاً رخيما يقولُ:
"ليس حُبّكِ ما أبحثُ عنهُ يا نجمتي
كلّ ما أريدهُ منكِ اليومَ
أنْ أعرفَ أنّكِ قريبة منّي
في صمتكِ الدّفينِ النَّقيّ
كدمعةِ عاشقٍ،
وأنّكِ غداً حينما ستكبُرين
سَتمُدّينَ يدَكِ لي
دوناً عن بقيّة الخلائق
وإنْ باعدتْ بينكِ وبيني المسافاتُ
أنا الدَّرويشَ الّذي تعرّى منْ كلّ شيء
لأجلكِ أنتِ وحدكِ
علّه يصبحُ ذات يومٍ مثلكِ
خالياً منْ كلِّ القيودِ والرُّسوم
فوحدهُم العراةُ يا طفلتي
يعيشونَ تحت الشَّمس
ويركبونَ فرسَ الرّيح
ووحدهُم العراة
يستطيعونَ مثلكِ ومثلي
الرُّجوعَ إلى بيت الخلوة الأبديّة،
بيتَ المقام المحمود

والغُرفة الفضِّيّة"
هكذا انتهت المكالمة
ونسيتُ أو تناسيتُ أن أغلقَ الخطّ
أعني خطّ مكالمات الخاصّة من أهل التَّقوى
لأنّني كنْتُ أعرف جيداً
أنَّكَ ستعودُ لمكالمتي أيّها الدّرويش
حينما سأكبرُ كما قلتَ لي
أو كما وعدتنِي،
وهأنذا اليوم لا أتلقّى
في خدري الأزرق
سوى مكالماتكَ المتواصلة
مُذ كتبتُ أوّل قصيدة
إلى اليوم الّذي سافرتُ فيه إليكَ
وأعطيتني لوحة الملاك الإفريقيّ الأسود
الّذي لمْ يكُ سوى جدّي الأكبر
صاحبَ الجلباب الصُّوفي الأحمر
والعمامة الخضراء
والنَّظرةِ العذبة والقلبِ الأبيض)).

***

٣٠) ما الّذي دفعكِ عندما ترجمْتِ ديوان: السَّلام أعمق من البحار، أن تعتكفي في دير كي تعيشي حالة تأمُّل وخشوع، وتترجمي هذا الدّيوان، وكيف بدأتِ بترجمة الدِّيوان من العربيّة إلى الإيطاليّة؟!

الدّير هو من ناداني، إذ كان لا بدّ لي أن أختار بين نعم أو لا حينما اتَّفقتُ مع ناشرتي الإيطاليّة على إصدار التَّرجمة الإيطاليّة لديوان (السّلام أعمق من البحار)، وحينما دعتني بعد ذلك إلى حضور حفل زفافها في مدينتها الجبليّة، حيّرني الأمرُ كثيراً، فأنا لم يسبق لي أبداً أن حضرتُ زفاف أحد، لا تعجبني الاحتفالات الصّاخبة بأيّ شكل من الأشكال، وقد تحدّثتُ عن هذا الجانب من شخصيّتي في أكثر من نصّ ضمن إصداري القصصيّ (أنا رع). لكنّها حينما قالت لي إنّها ستوفّر لي كلّ الظّروف الملائمة لإقامة تضمنُ لي بها العزلة والهدوء المنشوديْن بدير جميل في الجبل، وافقتُ على الفور. وحينما وصلتُ وجدتُ بانتظاري راهبتيْن رائعتين حينما رأيتُ لباسهُما عرفتُ أنّهما من حمائم السّلام الّتي تهدل باستمرار في قلبي، ما أخبرتُهما من أكون فأنا لا أحبّ أن أقدّم نفسي بين النّاس على أنّي "كاتبة" أو "أديبة" بشكل عامّ: أحبّ جدّاً أن أكون "لا أحد" بين النّاس. شكرتُهما على معاملتهما الأموميّة الحنونة، ودلفتُ إلى غرفتي الصّامتة، أدرسُ لوحاتكَ عن السّلام وأكتبُ دراستي عن تجربتك الإبداعيّة، لكن المدينة الّتي احتضنتني طيلة فترة زفاف ناشرتي لم تكتفِ فقط بتوفيرها لي الدّيرَ المناسب للتأمّل وإنّما أهدتني هدية عظيمة ما كانت في الحسبان، فحينما قرَّرتُ أن أخرج بعدَ العصْرِ في نزهة بين أشجار المدينة وطبيعتها الخلّابة، لفتتْ نظري حديقة شاسعة وغنّاءة، أو بالأحرى أرجوحةٌ كانت بداخل هذه الحديقة، فتذكَّرتُ طفولتي البعيدة، واقتربتُ من المكان ثمَّ فتحتُ بابَهُ الحديديّ الصَّغير ودخلْتُ، وبينما أنا أتجوَّلُ بين زهوره وأعشابه المختلفة إذا به تستوقفُني من بعيد معلمة تاريخيّة، وحينما تقدّمتُ نحوها بخطوات أسرع، وجدتُ أنّ اسمها هكذا بالحرف الكاملِ؛ (معلمة تاريخيّة مهداة إلى السَّلام الكونيّ). خفق قلبي

بشدّة، وسألتُ نفسي: ما معنى هذا؟ هلْ حقّاً للمكانِ قداسة دون قداسةِ القداسات كما يقول صبري؟ هل كانت جبال هذه المنطقة تعرفُ بقدومي، وبمَا يشغلُ فكري في هذه الفترة، ولأجل هذا قدّمَتْ لي هذه الهديّة الثَّمينة؟!

هذه المعلمة التّاريخيّة أنشأها نحّات إيطالي اسمه (تومّاسو جيراشي/ Tommaso Geraci) من مواليد سنة ١٩٣١، وقد أهداها لضحايا الحربَين العالميَّتَين الأولى والثَّانية، وكتب فوق لوحة من الأسمنت الكلمات التَّالية: ((زمنُ الزَّيتون يتبعُ زمنَ القمح/ وزمنُ القمحِ يتبعُ زمنَ الوردة))، ورصّها إلى جانب أكبر الشَّخصيَّات التَّاريخيّة الّتي جسّدتِ السّلم والسَّلام في العالم، وهي المهاتما غاندي، وقدّيس الحبّ ماسيمليانو ماريا كولبي (Massimiliano Maria Kolbe)، وشهيد الوطن (سالفو داكويستو/Salvo d’acquisto).

وبعد أن وثّقتُ بالصُّور هذه اللَّحظة التَّاريخية النَّابعة من عمق أعماق حرف السَّلام وأهله وحَفَظَتِهِ في كلِّ مكان، عدتُ إلى الدّير بسرعة ثمَّ واصلتُ كتابة دراستي النّقديّة وفي القلب فرح كبير تحوّل إلى ديوان ترجمتُه إلى اللُّغة الإيطاليّة هو (السَّلام أعمق من البحار).

٣١) ماذا عن الحبّ كمعراج يبلغُ به الإنسانُ حالة السّلام الكامل؟

القلبُ في الحبّ هو كتاب العشقِ والحقّ، ولا يمكن أن يفتح الإنسانُ كتابَ العشق هذا لينهلَ من علومه ومعارفه ما لمْ يبلُغ حالة السّكينة الكاملة، وهي الحالة الّتي لا يُحقّقُها الفكرُ ولا العقلُ ولا البصرُ وإنّما الفطرةُ والنّيّة السّليمة الّتي تقود إلى التّواصل مع الرّوح وخالقها. واليوم مع كامل الأسف نجد مسافة شاسعة وكبيرة تفصل بين النّاس، فالإنسانُ يُحبُّ بجسدِه لا بروحه، وهو في حبّه هذا تُشوّشه الأنا وتملؤُه بكلّ مظاهر الاختلاف بينه وبين الآخر، فهو يجدُ أنّهُ يختلفُ عن أخيه باللّون، واللّغة والدّين والتّاريخ والجغرافيا والسّياسة وأشياء كثيرة لا تعدُّ ولا تُحصى يستحيلُ معَها أن يتحقّق الحبُّ الصّادق. لذا فإنّ الحبَّ في النّاس حبٌّ لا يتجاوزُ الجسدَ، وقليل هم أولئك الّذين يرون في الجسد محراباً، وفي المرأة معبداً، يقتضي الطّهارة قبل التّقرّب منها والوصال مع روحها.

في الحبّ تسقُطُ الجدران، وهذا هو الاختبار الخطيرُ، إذ لا بدّ للنّقطة أن تذوب في المحيط، ولا بدّ للجسد أن يسجُد للمعبود، ولا بدّ للغرور أن ينمحي، ولا بدّ للحبّ من ضيفٍ ومضيف، ولا بدّ لكليْهما أن يعرفا آداب الضّيافة، من طاعةٍ ورحمة ومحبّة ومودّة. لكن ما العمل وحياة النّاس تحوّلت إلى جحيم مطلق بسبب تضخُّم الأنا!

هل سمعت بحكاية العاشقِ والفتاة السّمراء ذات الشّعر الأحمر؟ سأرويها لكَ الآن: في قديم الأزمان والعهود، كانت هناك طفلة سمراء وُلدت بشَعْر خشنٍ برتُقاليّ اللّون وعينيْن خضراويْن كحجر الزّمرّد، وبنمش أبيض مزروع فوق خدّيها، وكان كلُّ من يراها من أطفال الحيّ الّذي رأت فيه النّور يفزعُ من شكلها المختلف عنهم جميعاً، حتّى أنّهم باتوا يتفادون الاقتراب منها أو الحديث معها. وحينما كبُرت وأصبحتْ فتاة مراهقة بعمر الزّهور أصبحَ شَعرها أكثر توهّجاً وحُمرةً من أشعّة الشّمس الذّهبية، وزاد من غرابة شكله كونهُ قصيراً ومنفوشاً على الدّوام إلى أعلى،

ممّا دفع بعجائز القرية إلى اختلاق العديد من الحكايات العجيبة عنها، ولم يهدأ لهنّ بالٌ حتّى لقّبنَها بالسّاحرة الصّغيرة الَّتي تجلبُ النّحس في كلّ مكان تذهب إليه. ومن شدّة ما كانَ يستهزأُ بها كلٌّ من يراها، كانت الصّغيرة تخرجُ من حيّها وتذهب بعيداً لتلقيَ بجسدها الفتيّ بين أحضان الطّبيعة، إلى أن رأتْ ذات يومٍ من بعيد شجرةً تشبهُها كثيراً، فذهبتْ إليها وعانقت جذعَها البنّي وبدأتْ تبثُّهَا أحزانَ قلبها وتبكي بحُرقة إلى أنْ نطقت الشّجرة وقالت وقد بدأ الصّمغُ الأحمرُ يسيلُ دموعاً متدفّقةً فوقَ جذعها من شدّة تأثّرها ببكاء الصّبيّة:

- هدّئي من روعكِ أيّتُها الفتاة الخارقة الجمال.

دهشت الفتاة من صوت الشّجرة الّذي كان عبارة عن صوتِ رجُلٍ حنون جدّاً ثمّ قالتْ:

- يا للعجب، إنّكِ رجلٌ أيّتها الشّجرة، وصوتُكِ تكمُنُ فيه كلّ أبوّة العالم ورحمتُه، هل لي أن أعرف اسمكَ أيّها الرّجلُ الشّجرة؟
- اسمي مرجان وإنّني سيّد هذه القرية، ومُذ عَلِمْتُ بولادتكِ وأنا أنتظرُ قدومكِ عندي بشوقٍ كبير!
- هل تعرفُني يا سيّدي الشّجرة؟
- طبعاً، ومن لا يعرفُ صاحبةَ الوجه الوضّاء والشّعر المُشمس البرّاق؟ من لا يعرفكِ يا أجمل من رأت عيني، لبانة، حبيبتي أنتِ الّتي لم يُخلَق مثلُها في البلاد!

مسحت لبانة دموع عينيها، وقبّلتْ شجرة الطّلح الأحمر بعُمقٍ ثمَّ جلست عند جذعها وبدأت تفكّر في كلماتها ولسان حالها يقول: لا شيء سيعيدُ لي كرامتي في القرية سوى المال. نعم عليّ أن أصبح ثريّة جدّاً ليحترمني الجميع، لكنّني وحيدة وما من طريق أمامي لكسب كلّ هذا المال؟!

سمع مرجان كلمات لبانة ثمّ خفقَ قلبه بقوّة وقالَ لها:

- ليس عندي ما أعطيه لكِ يا صغيرتي سوى حبّي؟

دهشت الفتاة من كلام مرجان وهي الّتي لم تسمع قبل بالحبّ، وما عرفتْ من أهل قريتها سوى الكراهيّة والحقد والسّخرية، ثمَّ صمتت لبرهة وقالت:

–وما هو هذا الحبّ يا سيّدي؟ هل يُباع؟ هل يُشترى؟ إذا كان الأمر كذلك فأعطني إيّاه لأنزلَ إلى السّوق وأبيعه وأعود بالمال إلى قريتي لأشتري اسمي ومركزي ومكانتي.

– إنّه لا يُباع ولا يُشترى يا حبيبتي وإن كان أثمنَ وأندرَ ما في الوجود، لكنّني في المقابل يُمكنني أن أجعلَهُ في خدمتك، وأن أحقّقَ لكِ به سعادتَكِ.

– لا أعتقد أنه سينفعني في شيء إذا كان لا يُباع ولا يُشترى. آسفة جدّاً لقد أزعجتُ سكينتكَ وهدوءَكَ يا سيّدي مرجان بدون فائدةٍ تُرجى.

–لا تكوني عجولة في الحُكم على الأشياء، إنّني بالحبِّ سأعطيكِ أغلى ما أملكُ؛ ثماري النّادرة جدّاً، مَوْزٌ أحمر لا يوجد مثلهُ في أيّ مكان، خذيه وبيعيه ثمَّ اغنمي بهِ ما تشائين من الأموال.

ابتسمت لبانة وقبّلت الشَّجرة، وفي الغد عادتْ إليها مُحمّلةً بالصّناديق والقفاف الكبيرة، وبدأت تجني كلّ الثِّمار، ثمَّ حملتها إلى السّوق وباعتها كلّها، وبدأت تكرّر العمليّة ذاتها كلّما أثمرت الشّجرة طلحاً أحمرَ، وأصبحتْ كما أرادت؛ أثرى فتاة في القرية، ولم تكن تدري أنّ مالها هذا كان كفيلاً بأن يجلب لها أعتى قراصنة البلاد، طرقَ بابَها وطلب يدَها وأصبحت زوجةً له تجوبُ البحار فوق البواخر الكبيرة، وبمضيّ الأيّام والسّنوات صارتْ أشدَّ نهماً وطمعاً من زوجها القرصان الأعور، وبدأتْ تهجُم على السّفُن وتسرقُ أموال المبحرين في كلّ مكان، إلى أن مات زوجُها في إحدى الغزوات البحريّة الدّامية وبقيتْ هي وحيدة بثروتها الطّائلة وشعرها الأحمر وجمالها الفتّان وما كانت تعلمُ أن ساعتَها هي الأخرى قد اقتربت، وقد أصبحَ القرصان الأصفر عدوّ زوجِها الرّاحل يُخطّطُ للاستيلاء على مالها وجمالها، فطلب يدها ودخلها من باب الحبّ الّذي لم تكن هي تعرفُ عنه شيئاً، وتزوّجت مرّة

ثانيةً وعاشت لسنين وهي تغرفُ من بحر السّعادة الكاذبة بِاسم العشق المزيّف إلى أن جاء يوم وعرفت أن زوجها يخطّطُ لقتلها، فما كان لها سوى أن عملت كلّ ما في وسعها لتعود سالمة إلى القرية الّتي وُلِدَتْ فيها وقد كبرت وتغيّر فيها كلّ شيء.
نجحت لبانة في مهمّتها تلك، وتركتْ كلّ مالها وجاهها وعادت إلى القرية واختبأتْ في إحدى غاباتها الكثيفة، لا أحدَ يعرفُ عنها شيئاً ولا هي تعرفُ شيئاً عن أحد، إلى أن رأت في أحلامها ذات ليلة شجرة الطُّفولة وهي تناديها بصوتها الحنون: ((لبانة، يا لبانة، ما أسعدني بعودتك إليّ، أنا مرجان الّذي ما نسيكِ يوماً، متى سيحينُ اللّقاء بعد كلّ هذا الفراق؟!))
استيقظت لبانة مذعورةً من نومها وقد تذكّرتْ الشّجرة مرجان، غسلت وجهَها ثمّ خرجَتْ تبحثُ عنهُ، وحينما وصلتْ وجدتْهُ في انتظارها بكلّ ثماره الشّهيّة وأغصانه النّديّة، جلست عند جذعه ثمَّ بدأت تبكي وهي تروي له مآسيها وأحزانها الجديدة. تذكّرَ مرجانُ دموعها حينما كانت طفلة، وعشقَه الخالد لها، وحينما بدأ الصّمغُ يتدفّق دمعاً ساخناً على أغصانِه قالَ لهَا:

- حبيبتي، يا أجمل من رأت عيني: مازلتُ أنا كما عرفتني، وفيّاً مُخلِصاً أبديّاً لكِ، وثماري الحُمر هي لك ورهنَ إشارتكِ.

ضحكت لبانة كثيراً وقالت له:

- يا لك من رجل طيّب ساذج أيّها المرجان الشّجرة. ما عساني أفعله بثمارِكَ وأنا الّتي جُبتُ الأرضَ شرقاً وغرباً، وجمعتُ من الثَّروات ما لا يُمكن أن تحلم به امرأة في العالم بأسره.
- ولكنّ القرصان الأصفر وضع يدَه على كلّ شيءٍ، وحياتُكِ اليوم بيده، لا تنسي أنّه إذا عثرَ عليكِ فإنّه سيقتُلُكِ، واحمدي الله أنّه لا يعرفُ من أيّ أرضٍ أنتِ، وإلّا ما ادّخرَ جهداً للقدوم إلى هنا ووضعِ حدٍّ لحياتِكِ يا حبيبتي الّتي لم يُخلق اللهُ مثلها في البلاد.

- أعرف ذلك جيّداً، ولا داعي لأن تذكّرني به. أنا الآن بحاجة إلى بيتٍ أقضي فيه ما تبقّى من عمري، وأنتَ بثمارك الحُمر هذه لا يمكنكَ أن توفّر لي البيت الّذي أحلمُ به.
- يا إلهي، كيف تقولين هذا، أنا مازلتُ عاشقَكِ المتيّم الأبديّ، إذا لم تعجبْكِ ثماري، فخُذي جسَدي هذا افعلي بأغصانه ما تشائين من بيوت.

سمعت لبانة كلمات مرجان العاشق، ثم ذهبت إلى الغابة وأحضرت فأساً، وبدأت تهوي بها عليه وتقطع أغصانهُ جميعها ولمْ تترك منه إلا الجذر الدّائري. بنَتْ بيتَها الذي كانت تحلمُ به طيلة عمرها، ونسيَتْ مرجان إلى الأبد. لكنّ أهل القرية لم ينسوا هذا الرّجل الشجرة أبداً، فهُو الجذر الدّائري الذي ظلّ يبكي طيلة عمره صمغاً حارَ في نقاء عطره الجميع، حتى أنّ شيوخ المعابد بدأوا يحجّون إليه من كلّ مكان ليجمعوا دمعه البنّي الصّافي ويجعلون منهُ بخوراً ينثرون به نُسْغَ الحُبِّ في المعابد والمساجد والكنائس، ذاك الحبُّ الّذي لم تفتح لهُ لبانة قلبَها لأنّها أصبحت كأيّ إنسان لا يعرف إلّا لغةَ الأخذ والاستغلال والطّمع. نعم، يا صحبيَ الأعزّاء، فالحبّ الّذي في الشّجرة هُو للمقرّبين من أهل الله والحضرة فقط، أولئك الّذين لا تقيّدهم الأموالُ والأطماعُ ولا النّواميس والشّرائع لأنّهم من أهل الصّمت، صمت الحقول والجنان الّتي بها أعلنُ عليكَ الحبَّ والعشقَ أيُّها القارئُ في كلّ مكان.

***

٣٢) مِن الحبّ البشريّ يُمكن للفرد أن يصل إلى الحبّ الإلهيّ الأكبر، ماذا عن دور الجنس في هذه الرّحلة الرّوحيّة الكبرى؟

الحديثُ هنا سيكون عن الطّاقة الجنسيّة الّتي هي مفتاح الحياة في الكون بأسره وليس في مملكة الإنسان فحسب، ولا حياء في الدّين، وإنّ لجسدك عليك حقّ. والواقع يقول إنّ الطّبيعة أكثر حبّاً وعشقاً من الإنسان لأنّها تعرفُ كيفَ تتصرّفُ

في طاقَتِهَا الجنسيّة بمحبّة عارمة، واحترام وتقديس كبيريْن، والإنسانُ يا حسرةَ الكونِ عليه لا يعرفُ شيئاً عن طاقته هذه ولا عن أسرارِها، وكلّ ما قام به هو أن سنّ كلّ القوانين ووضع كلّ القيود من أجل الحدّ منها، اعتقاداً منهُ أنّها من أبواب جهنّم والشّيطان. العرفاء والحكماء والأنبياء فقط هم الّذين أدركوا أنّه من باب الطّاقة الجنسيّة يُمكنُ الوصول إلى مقام العفّة والبتوليّة، مادام المفتاحُ يوجد في الجسد البشريّ نفسه باعتباره محراباً للقداسة لا بيتاً للعُهر والنّجاسة. وأقول محراباً لأنّ به يمكن للإنسان أن يختبر موتَ الأنا والفكر من أجل الوصول إلى السّكينة المطلقة الّتي أعني بها صمتَ القدّيسين والأولياء أو ما أسمّيه بالرّعشة الكونيّة الكبرى. واسألوا القدّيس سان فرانشيسكو داسّيسي يخبركم ماهي هذه الرّعشة، فقد عرفَها وخبرها جيّداً، وكان يخرجُ ليلطّفَ من حرارة جذوتها بين أحضان ثلوج الصّباح.

الطّاقةُ الجنسيّة إذا عرفَ الإنسانُ كيف يوجّهُها نحو الاتّجاه الصّحيح الّذي يقود إلى البتوليّة، فإنّه يمكنه جيّداً أن يحوّل بهَا خشب الجسد إلى فحم ثمَّ بعد ذلك إلى ألماس، عبر بلوغ ذروة النّشوة الّتي تفتح الطّريق نحو الرّوح السّاكنة في جسد العابد. وهذه الطّاقة لا هي شهوة ولا نزوة وإنّما يقظة وصحوة ووعي يُشعِر الإنسانَ بقيمته وحقيقته المتألّهة حيثُ يتمُّ الولوج إلى عوالم الرّوح بدون احتراق.

الإنسانيّة اليوم في حاجة ماسّة إلى معرفة هذه الأسرار، والبداية لا بدّ أن تكون من المدارس والمناهج الدّراسيّة والأكاديميّة، لا بدّ من إعادة النّظر في كلّ شيء حتّى يكفَّ النّاس عن العادات السّيئة الّتي أصبحت تُشَكّلُ سلوكاً يوميّاً يحكمُه الكبتُ بين شذوذ جنسيّ، وإدمان على الأفلام والمجلّات الإباحيّة وما إلى ذلك من أمراض نفسيّة وإعاقات عقليّة وفكريّة بسبب الجهل المُطبق الّذي يغرقُ فيه الإنسان. يا لهذا الزّمن العجيب، مرضَ الإنسانُ ومرضتْ من حوله الطّبيعة والأكوان. حتّى الأمّهات ما عُدنَ يعرفْنَ عن أجسادهنّ شيئاً، فكيف لهنّ بالله عليكم أن يُعلّمن بناتهنّ كيف

تُحترمُ الأجسادُ، والآباء أشدّ جهلاً في مثل هذه الأمور من أبنائهم، ولا يعرفون عن الجنس سوى القشور والسّموم الّتي توارثتْها الأجيالُ عبر تاريخ أسود من الكبت والتّحريم والتّجريم؟!

على العلماء أن يدخلوا إلى الأعماق، أن يفكّوا القيود، أن يفصحوا عن المكتوم، أن يشعلوا الشّموع ويطردوا الظّلام، ليعيش الكلّ في انسجام ومحبّة ووئام يصلون به إلى مكارم الأخلاق، والعفّة والنّيّة والفطرة الصّافية السّليمة.

***

٣٣) ماذا عن الزّواج، هل يقيّدُ الإنسانَ ويحرمُه من الوصول إلى حالة الصّفاء والسّلام؟

الزّواجُ اليوم هو سببُ المصائب والمحن الّتي يعاني منها الإنسان، وذلك لأنّه زواج أجساد لا أرواح، إنّه دعارة مُشَرْعنة ويباركها الجميع. والمرأة في الزّواج منذ بداية الخليقة ظُلِمتْ كثيراً؛ انظر ماذا فعلتِ النّصوصُ الدّينية بحوّاء: إنّها فيها الشّيطانة الّتي أغوت آدم فأخرجته من الفردوس، وهي لأجل هذا ظلّ الرّجلُ يخاف منها وينعتُها لليوم برأس الفتنة والسّحر والغواية. وهذا ما هو في حقيقة الأمر سوى اعترافٍ ضمنيٍّ بضعف الرّجل وعدم قدرته على فهم المرأة، ولا على الدّخول إلى محرابها الرّوحيّ بالطّهارة والصّفاء الحقيقييْن. معظم الرّجال لا يرون في المرأة إلّا الجانب الأحاديّ الأقصى من الصّورة، فهي إمّا "قدّيسة" وإمّا "عاهرة"، ومن تكونُ هذه القدّيسة يا ترى، والحال أنّ أهل العلم والإيمان والحضرة العلّيّة، لا يرون في صورة "القداسة" هذه إلّا وجهاً من أوجه الاعتداء والعنف المبطّن تجاه النّساء. فأنت قدّيسة في عرف الرّجل لأنّك تعرفين كيف تكبتين نفسك وتحرمينها من كلّ متطلّبات الحياة الحقّة، وهو كبت فرضته عليْكِ مؤسَّسة الرّجل الّذي فقِه منذ البداية إلى كلّ نقاط قوّتك المتمثّلة في كونكِ صاحبة القدرة على إنتاج الحياة الّتي سيطر

عليها الرّجل بقوّة العضل ليُثبتَ لكِ أنّه هو السّيّد وهو الحاكم وربُّ البيت والمُجتمع والعالم أجمع، ناسياً بأنّ القوّة العضليّة هي جزء من الخصائص الحيوانيّة في الإنسان، وبأنّ المرأة هي الأقدر على الحبّ منه لأنّها لا تستخدم فكرَها وإنّما روحَها وحدسها، وهو السَّبب الّذي من أجله يظلُّ الرّجل يلهثُ خلف الحبّ الجسديّ والزّواج التَّعدّديّ، والمرأةُ خلفَ الحبّ الرّوحيّ والزَّواج الأحاديّ بعد أن فطنت جيّداً إلى أنّ الرّجل خُلق ضعيفاً جدّاً من حيث النّشاط الجنسيّ لأنّه لا يملكُ إلّا نشوة جنسيّة واحدة في الوقت الّذي تتمتّعُ فيه شريكتُهُ بالطّاقة التَّعدّديّة، وهو الفرق الّذي يُسبّبُ لليوم حرجاً مريعاً للرّجل الّذي يعرف جيّداً أنّ نشوته موضعيّة ومحصورة في الطّاقة التّناسلية بالمقارنة مع المرأة الّتي تشمل نشوتُها كلّ تمظهراتها الجسديّة الماديّ منها والأثيريّ وكلّ حواسّها وأطيافها بألف ضعف الرّجل من حيث العُمق والمعنى والمغزى. ومن هنا مأساة المرأة ومعاناتها لأنّ الرّجلَ لم يُدرك لليوم سرّها الأنثويّ، ولم يعرف كيف يفتحُ أسرارَ معبدها. ولتتذكّر عزيزي القارئ ما الّذي يفعلهُ الأزواج في مخدع النّوم؛ لا شيء سوى الخداعِ والخديعة، لا الحبّ والسّكينة، كيف لا وفي المخدع يبدأ العتاب واللّوم والسُّمُّ الّذي يليه العسلُ المزيّف لتُكلّلَ لحظات الاتّحاد بنوم الرّجل وشخيره بعد نشوته المؤقّتة، وتدورُ المرأة وهي تحلم بالقرط الذّهبي أو بعقد اللُّؤلؤ، وهو يفكّر في الصّفقات والعمل، ثمّ بعد ذلك يولدُ الأولاد وهُم يحملون كلّ علل الخداع والزّيف، لا قداسةً ولا ارتقاء ولا سموّاً، إنّما نجاسةً ودنساً تولد بهما الأجيال. أين الإنسانيّة من طفل سليم نقيّ كمحمّد وعيسى؟ أينَ طفل المغارة الّتي تُعلّمُ الطُّهرَ والاستنارة؟ إنّه مازال موجوداً في الإنسان، لكنّه يحتاج لأرحام نقيّة، ليحدثَ الحملُ بلا دنس؟ أينَ أنتِ يا مريمُ، بل أينكِ يا فاطمة؟ لماذا لا يدع الإنسانُ القداسةَ تمحو دنسَ الماضي؟ كيف يحدثُ هذا والحبّ أصبح فريضة من الرّجل على زوجته وحتّى على عشيقته السّرّيّة؟ كيف والنّساء يعشن لإرضاء النّزوة مقابلَ نشوة تأتي بعدها رشوة. هذا هو حبّكم اليوم أيّها النّاس، لذا فلا تسألوا

كيف اندلعت من حولكم الحربُ، والنُّطَفُ قدْ نُجّست، وما عاد شيء اسمه الحبّ بالنّظرة الإلهيّة!

وماذا بعدُ، وقد خرجت النّساء ثائرات ضدّ الرّجال بشكلٍ فيه من الجهل ما لا يتصوّره عقل ولا فكر، إنّهن اليوم يطالبن بالمساواة في كلّ شيء، حتّى في اللّباس والعمل والعضل، ومنهنّ من أصبحن يتحوّلن حتّى جسديّاً من امرأة إلى رجل: ما هذه السّخافة؟ ليس بهذا الغباء تستقيم إبرة الميزان! الأمر لا يحتاج إلى كلّ هذه الجمعيات التّحرّريّة، ولا إلى كلّ هذه الحركات النَّسويّة الَّتي لا تبثّ سوى السّموم والعنصريّة والمزيدَ من الحروب والعداوة بين الرّجل والمرأة. ثم ما هي نتيجة كلّ هذا، لقد أصبحنا نرى الرّجل فوق الرّجل في السّرير، والمرأة على المرأة، ما هذا الجحيم يا إلهي؟! نار فوق نار، لا نور فوق نار، ولأجل هذا الدّمار الّذي حدث لا يحقُّ لكم أن تتساءلوا لماذا لا يحدثُ التّنوّرُ، ولا لماذا لا تُزهِرُ الأرواح، ولا لماذا لا يتحوّلُ الفحمُ إلى ألماس؟! ولأجل هذا أيضاً لا أطلبُ شيئاً من الرّجل، وإنّما من المرأة الَّتي أقول إنّ عليها أن تدفع شريكها في الحياة إلى الدِّفء السّماوي، لأنّني أثق بقدرتها على الصّبر والتَّحمّل، ولأنّي أعلمُ جيّداً أنّها تملكُ الطّاقة الّتي تؤهّلها إلى الصّعود والارتقاء، فهي الحضنُ وهي الرّحم المتّصل بعرش الرّحمان!

***

٣٤) أرى أنَّ من أهمّ أسباب تراجع السَّلام في العالم، هو تراجع الحسّ الأخلاقيّ، كيف ممكن أن نعالج هذه المشكلة العويصة، ونعيد للأخلاق الرَّاقية دورها الرَّائد وبالتّالي نعمّق عبر الأخلاق ثقافة السَّلام؟!

بالعودة إلى المرأة ودورها الفعّال في بناء مجتمعاتٍ سليمةٍ فكريّاً وخُلُقيّاً. فالمرأة هي أساس الصّلاح والنّجاح في كلّ الأرض. وكلّ ما يجبُ فعله هو إعادة النّظر في حجم الأخطاء الَّتي ارتُكِبَتْ في حقّها باسم التّحرّر والدّيمقراطيّة وما إليها من

إيديولوجيات جديدة هي نتاج ما حدث في المجتمعات من تغييرات بعد الثَّورة الصِّناعيّة فما فوق. تحرير المرأة من براثن الجهل والعبوديّة شيء لا جدال فيه، لكن المطلوب هو قبل كلّ شيء الحفاظ على فطرتها النَّقيّة وسلامتها الصّحِّيّة والفكريّة، دون الزّجّ بها في أشكال جديدة من الاستعباد والابتزاز الجسديّ والفكريّ. ضِف إلى ذلك أنّ المرأة هي بحاجة اليوم وأكثر من أيّ زمن مضى إلى تنشئة وتربية من نوع خاصّ، إذ يجب التّركيز على فكرها وروحانيّتها العالية. كما يجب أيضاً إعادة النّظر في مفاهيم الجندر والمساواة وتطويعها بشكل يجعلُ المرأةَ سيّدة نفسها وماسكة لزمام أمورها. خروج المرأة إلى العمل شيء جيّد وحضاريّ، لكن يجبُ الحرص بشكل مكثّف على ضمان الأجواء السَّليمة لعملها هذا، كما يجبُ الاعتناء بحقوقها وتوعيتها بما عليها من واجبات، مع الأخذ بعين الاعتبار اختلافاتها العقائديّة والفكريّة وتحويلها إلى مصدرٍ لثراء الإنسانيّة، كما أنّه من الضُّروريّ تعميق نظرتها إلى الرّجل، شريكَها في الحياة، وبدل أن تستمرّ في التَّعامل معه بالكذب والدّجل والخداع وكأنّه عدوّها اللّدود، فحريّ بها أن تتحرّر من كلّ السّموم الَّتي تنفثها الكتبُ والجمعيّات النِّسائيّة المُضَلّلة وما إليها، لتعود إلى فطرتها وتغسل قلبَها بالمحبّة والعشق الإلهيَّيْن، علّ ذلكَ يُساعدُ بصيرتَها على التّفتّح فترى بنور الله رجُلَها هديةَ الرّحمن إليها وتأخذَ بيده وتسير معه على درب الحياة مقمّطة بالأمل والرّغبة في النُّموّ أكثر وأكثر والوصول إلى شاطئ الأمان والسّلام.

***

٣٥) ما هي أفضل السُّبل لتوعية المرأة بدورها الجديد؟!

تخليصها من الأفكار المضلّة الَّتي تصلها من كلّ ما يحيط بها في حياتها اليوميّة، بما في ذلك التّلفزيون والصّحافة وكل وسائل الإعلام والمعلوماتيّة. على المرأة أن تعيد النّظر ليس فقط في طريقة تفكيرها، بل أيضاً في طريقة تعاملها مع جسدها وتغذيتها لأنّ هذه الأخيرة لها دور كبير في إحياء عالمها الرّوحي الدّاخلي وتحريره ممّا يعانيه من ركود واحتجاب. إنّ حرص المرأة على سلامتها الصّحيّة يعني أنّها ستسمح لفكرها وجسدِها بأن يستمدّا ما هما بحاجة له من طاقة تُحَسِّن من الأداء الوظيفيّ على كافّة المستويات والأجهزة البدنيّة. فحينما يكون هذا المسارُ مُتحَرّراً من كلّ السّموم المعاصرة، فإنّ المرأة ستشعر بأنّها متوحّدة مع العالم بدون أدنى شكّ، وهذا سيؤثّر مباشرة على أسرتها ومجتمعها بشكل فيه الكثير من الإيجابيّة والتَّطوّر الرّوحيّ.

على المرأة أن تقول وداعاً للرّكود الرّوحيّ الَّذي عادة ما يُسبّب الكثير من الأمراض بما فيها انفصام الشّخصيَة والتَّفكير المحدود، والخوف والتَّعصّب.

عودي سيّدتي الجميلة إلى مطبخكِ، وأعيدي النّظر فيه، تخلّصي من الملح والسّكّر والدّهون والدّقيق الأبيض والمشروبات الكحوليّة والمأكولات المجمّدة، والأخرى الجاهزة مسبقاً. حرّري مسارك الرّوحي من مطبخكِ قبل كلّ شيء، ليتحرّر عالمُكِ الدّاخليّ، هذا هو الطّريق، والمفتاح بين يديْك، وما عليك سوى أن تفتحي الباب وتقولي: بسم الله مجراها ومرساها.

٣٦) لماذا لا نستغلُّ تقنيّات العصر في ترويج ثقافة الحبّ والسّلام والوئام بين البشر، ويتمُّ التَّركيز على الأفكار الاستهلاكيّة والمتع الفضفاضة، ولا يتمُّ التَّركيز على قضايا جوهريّة تهمُّ حياة ومستقبل الإنسان؟

من يقول إنّ تقنيات العصر وُجدت لخدمة الإنسان فهو واهم جدّاً، لأنّ الحقيقة تقول إنّ الإنسان وإن كان يبدو أنّه قد حقّق تقدّماً علميّاً كبيراً في شتّى المجالات، فإنّه مع كامل الأسف تقهقر إلى الوراء بمئات السّنين، كيف لا وهو يستغلّ تقنية العصر هذه أبشع استغلال، فبها ينشر الأمراض، وبها يفرّق بين الشّعوب، وبها يُكرّس لثقافة التَّمييز العنصريّ وفوبيا الأديان، وبها يستعبد الأجيال، ولا يهمّه في كلّ هذا سوى جني المزيد من الأرباح عبر تحويله للأرض قاطبة إلى شعوب تستهلك دون أن تفكّر في أيّ شيء سوى المزيد من فقدان الحرِّيّة والهويّة والغرق في حروب لا أوّل لها ولا آخر.

***

٣٧) هناك ثقافة استهلاكيّة تهيمنُ على أغلبِ وسائل الإعلام في العالم، لماذا لا يتمُّ نشر الثَّقافة والفكر الرَّصين عبر منابر الإعلام المختلفة، أين دور المسرح والسِّينما والأدب الرّاقي لنشر الفكر الخلّاق؟!

الكلّ مقصّر في هذا المجال، والأمر يقتضي البدء بالتَّخلُّص من ثقافة الأوهام الّتي تدعمها كافّة المجتمعات. سأروي لكَ حكاية تؤكّد ما تفعله ثقافة الوهم بالإنسان: حينما كنتُ صغيرة كانت فكرتي عن العالم محدودةً جدّاً، كنتُ أتخيّلهُ كما تلقّيتُه في كتب الجغرافيا والتّاريخ: مجموعة من الدّول بحدود جغرافيّة وتقسيمات سياسيّة وتاريخيّة، وحينما شاء الله لي أن أكبر وتتسّع آفاق طلبي للعلم، ركبتُ الطّائرة وحملتني أوّل ما حملتني إلى بلدي الثّاني إيطاليا، هل تعرفُ ما الّذي فاجَأتني به السّماء حينما كنت أنظر من خلف زجاج النّافذة الصّغيرة؟! لم أجد أثراً لتلك الحدود الّتي كانت تحدّثني عنها المراجع والكتب المدرسيّة، يا إلهي لقد رأيتُ الأنهار والغابات والجبال والمحيطات، ورأيتُ الغمام يتحرّك حرّاً طليقاً من أرض

إلى أخرى دون أن يكون في يده جواز سفرٍ، ولا بطاقة هويّة ولا عَلَمٌ يؤطّر انتماءَه إلى بلد ما!

يا إلهي، لماذا حدث كلّ هذا؟ وقد رأيتُ المطر حرّاً في حلّه وترحاله. هل يُمكنُكَ أن تتخيّل لو أنّ بحراً ما أصيب بالتَّلوّث والتَّسمّم؟ العالم كلّه سيؤدّي الثّمن، لأنّه في عرف الله أرضٌ واحدة، قلب واحد، لا يحمل جنسيّة معيّنة ولا يميّزه دين معيّن. لا بدّ لك أيّها الإنسان أن تفهم أنّ الطَّبيعة لم تكن بهذا الشّكل المنفصل والمنقسم، أنت فقط من خلق الحدود والملكيّة وحقوق السِّيادة والضّرائب والحكومات، والكلّ شاركَكَ في هذه اللُّعبة الكبيرة، والثَّمن كان باهظاً جدّاً: حروب في كلّ مكان، وفقر، ومجاعة وجريمة وإرهاب. عليك أن تحرّر نفسك الآن وليس غداً، عليك أن تستيقظ بسرعة من كلّ هذه الكوابيس، وتَأكّد أنّك إذا فعلتَ هذا سوف تكتشف أنَّ العالمَ سريع الزّوال، لذا عليك ألّا تتعلّق به كثيراً، وكن متأهّباً للرّحيل في أيّ وقتٍ ومستعدّاً لأن تقول لمن عرفتَ إلى اللّقاء، وشكراً جزيلاً لكم، لأنّ الحياة معكم كانت فعلاً ممتعة، وأرجو لكم أن تستمتعوا بأوقاتكم قدر ما يُمكنكم ذلك. ومن يدري لربّما نلتقي من جديد!

***

٣٨) بمَن تأثَّرتِ من الأنبياء والقدِّيسين والرُّسل ورجالات الفكر والحكمة ممَّن كرّسوا حياتهم للسَّلام؟!

شيء جميل أن يتأثّر الإنسانُ بسيرة الأنبياء والرّجال الصّالحين والأولياء والقدّيسين ويقرأ لهم ويتعمّق في فكرهم، لكن الأجمل من هذا هو أن تشقّ لنفسك طريقاً ومنهاجاً يحملكَ إلى الملكوت الدّاخلي. هُم جرّبوا ذلكَ فرأوا ووصلوا، وأنتَ عليكَ أن تفعل الشَّيء نفسه إذا أحببتَ أن تكون مثلهم، أنتَ أيضاً لك الحقّ في في تجربة متفرّدة وخاصّة بكَ، ولا ينفع أن تحكي عنها لأحدٍ، لأنّك لستَ مُجبراً على

ذلكَ مادمتَ تؤمنُ إيماناً مطلقاً بأنّ لكلّ عالمه الخاصّ، ولكلّ تجربته الرّوحيّة وحدائقه السِّرّيّة الَّتي عليه أن يدخلها لوحده، ليكتشف هو الآخر ما اكتشفه غيره. صدّقني أيّها القارئ العزيز، وحدها التَّجربة الفرديّة كفيلة بأن تعيد لك ترتيب ما يزعزعه النّاس من حولك بجهلهم وغرقهم في المادّة والفكر السّطحيّ. وتأكّد أنّه كلّما كانت التَّجربة صافية وصادقةً، كلّما لفّك صمتٌ مهيب يدفعُكَ إلى الحفاظ على عالمك وأسرارِكَ بيقين عجيب، دون أن تفسده بالرّياء والتَّكبّر: اكتموا محاسنكم يا أهل الله، وإن كان لا بدّ من أن تطلعوا أحداً على جواهركم فلتفعلوه مع صحب الحضرة الأحرار، أهل النّور والسّناء الأبرار.

***

٣٩) ماذا يراودكِ وأنتِ تنظرينَ إلى ملايين ملايين البشر وهم غائصون في حياة استهلاكيّة فاقعة، وهم بعيدون كلَّ البعد عن كلِّ ما فيه حكمة وسلام ووئام وكأنّهم لم يفهموا حتَّى الآن لماذا جاؤوا إلى الحياة؟!

نعم، إنّهم لم يفهموا حقّاً لماذا أتوا إلى الحياة، والعالم بأسره بحاجة إلى إعادة النّظر في البنية الأُسَريّة السّليمة والَّتي منها ينطلق التّغيير والتّجديد. فكما نلاحظ اليوم ليست هناك بِنية عائليّة قويّة وقد انهار كلّ شيء والعائلات تتفكّكُ في كلّ يوم بشكل رهيب، لا أحد يجتمع مثلاً حول مائدة الطّعام كما في سابق العهود ومازال يهوذا يُسقط الملح فوق الموائد وداخل البيوت. نعم عزيزي القارئ، لربّما تستغرب كيف أنّني أربطُ سلام الإنسانيّة بالمائدة والأكل، ولكن صدّقني، فكلّ شيء يبدأ ممّا تأكل، لأنّ تدهورك الفكريّ ناتج عن تدهورك الصِّحّيّ بسبب ما تتناوله من سموم، وبسبب غياب الدّفء الإنسانيّ من حول الموائد، وتأكّد أنّه حينما ستتّبِعُ العائلات الطّرُقَ الصّحِّيّة في تناول الأطعمة، فسوف نحصل على مجتمعات سليمة، وسيبدأ التَّفكير العالميّ في التّغيير، ولن تكون هناك أيّة ضرورة لفرض أيّ قرار تسييريّ

من قبل أيّة سلطة أو حكومة، لأنّ أوضاع تنظيم المجتمعات نفسها ستتغيّر بتغيّر التَّفكير السِّياسيّ والاقتصاديّ الَّذي ستصبح بموجبه الحكومات موجَّهةً نحو العمل على الدّعم الزِّراعيّ والتَّعليميّ والصّحّيّ مع السّهر على معالجة كلّ المشاكل الّتي قد تصادفها خلال اهتمامكَ بتحسين بنية عالمنا الجديد.

***

٤٠) ماذا تقصدين بالعالم الجديد؟

عالمي الجديد، هو عالم مبنيّ على العائلة السّليمة، حيث الأعضاء الأكبر سنّاً لا يُعانون من الأمراض المزمنة، ويتمتّعون بفكر ثاقب مفعم بالحيويّة والنّشاط، ولهم القدرة على تنوير الأجيال الجديدة بما يملكونه من خبرات واسعة في تسيير أمور الحياة بكلّ مستوياتها الفكريّة والسِّياسيّة والاقتصاديّة والعلميّة. عالمي الجديد قائم على قوانين كونيّة لا يُظلمُ فيها الإنسانُ ولا يُقهر، لأنّها تحترمُ مبادئ التَّحوّل والتَّقدّم، لذا فإنّي أرى أنّه على الحكومات المستقبليّة أن تكون قادرة على تطبيق هذه القوانين والأنظمة بإعداد علماء جُدد لهم القدرة على تفسير الكون من حيث أنّه العالم الأكبر المتجلّي في الإنسان.

ولا بدّ لأبناء العائلة الإنسانيّة كما أتصوّرها أن يكونوا ممّن يتمتّعون بالحكمة والصّحّة الجيّدة والوعي الرّوحيّ المُكتمل ليُصبحوا مؤهّلين إلى بناء كون جديد قائمٍ على احترام الأرض والإنسان والحيوان، ومكتوبٍ بلغة عالميّة جديدة بعيدة عن لغة الدّمار والعنف والكذب والدّجل، ولا تؤمن إلّا بالسّلام والسّلم والأمن والأمان.

***

٤١) إنَّ السَّلام هو أكثر حاجة يحتاجها الإنسان على وجه الدُّنيا، ما هي أنجع الطُّرق لتحقيق السَّلام؟!

لن يظلّ السّلام مجرّد حُلمٍ يراود المفكّرين والمثقّفين من النّاس، قريباً سيستيقظُ الإنسانُ من نومه العميق، وسوف يسعى إلى تصحيح أخطاء الماضي الفادحة. وقريباً سيعرف معنى العائلة التّي أشرتُ إليها في الأجوبة السّابقة، وسيظهر على ساحة الواقع اليوميّ اقتصاد يكون هدفه الاندماج مع الطّبيعة الكونيَّة بدل استغلالها بهذا الشَّكل البشع الَّذي تقوم به السِّياسات الاقتصاديّة الحاليّة. وسيهتمّ الطّبّ بالحمية الصّحِّيّة وطرق العيش اليومي، وسيستغني عن العقاقير وستصبح الوقاية أفضل من العلاج، لأنّ الكلّ سيُكَوِّنُ قناعات جديدة قائمة على ربط الفكر بالغذاء، ممّا سيحدّ من انتشار العديد من المشاكل الاجتماعيّة والخُلقيّة بما فيها الجرائم والعنف الأسريّ.

***

٤٢) هذه نقلة نوعيّة كبيرة في الفكر أساسها الغذاء السّليم، كيف برأيكِ ممكن تبنّيها من أجل إحلال السّلام في العالم؟

الغذاء الصّحّيّ الآمن السّليم سيُنهي مشاكل الجوع في العالم، وسيضمن للإنسان كمِّيّة هائلة من الطّاقة تساعده على فهم الكون من حوله، وتطوير قدراته الفكريّة والرّوحي!ة بشكلٍ خلّاق، ومن الممكن جدّاً أن يؤدّي كلّ هذا إلى أن تصبح البشريّة على تواصل مع العوالم الخارجيّة الذكّية وتستفيد من علومها المتقدّمة. لأجل هذا أقول إنّه لا بدّ لإنسان اليوم أن يغيّر نظرته للعلوم والطّبّ والفلك والتَّاريخ والكونيات بشكل عامّ.

***

٤٣) يبدو لي أنّكِ تتحدّثين عن ثورة صناعية جديدة، أليس كذلك؟!

نعم، هذا بالضّبط ما أتحدّثُ عنه، الثَّورة العلميّة والصِّناعيّة الجديدة ستكون قائمة على التَّطوّر المستمرّ في علم التّحوّل الذَّرّي، وهو التَّطوّر الّذي سيقود الإنسان عبر علوم الفيزياء والكيمياء إلى اكتشاف طاقة كونيّة جديدة ستغيّر كلّ النَّظريّات العلميّة البالية، وستدفعه إلى تبنّي نظريات جديدة ترى أنّ الذَّرّات تتحوَّل باستمرار تحت ظروف جويّة طبيعيّة، وهذا سيؤدّي إلى انتشار تكنولوجيا التَّحوّل في العالم، ممّا سيلغي التَّسابق على الموارد الطبيعيّة والحروب على مصادر الطّاقة، لأنّ الإنسان سيكتشف مصادر أخرى بما فيها الطّاقة الإلكتروميغناطيسيّة، وكيف لا يتحقّق ذلك والعِلم سيتوحّد مع الفلسفة والثّيولوجيا، وسيصبح الكلّ في خدمة الإنسان!.

***

٤٤) الفكر الخلَّاق، التَّطوُّر وتراكم تقنيّات كلّ العصور، الإنسانيّة بكلِّ سموِّها وأخلاقيّاتها، إلى أين؟! هل الكرة الأرضيّة، في خطر ممّا يموج في فكر الإنسان، أم أنَّ هناك تآلف فيما بينهما لحلِّ المفارقات؟!

لا تقلق عزيزي القارئ، سنقول وداعاً للخطر، ربّما سيحتاج الأمر إلى مئة سنة أخرى من تاريخ الإنسانيّة، لكنّ التَّغيير سيحدث بالتّأكيد، لأنّ الإنسان سيستدلّ بثورته العلميّة الجديدة على مفاهيم أخرى تقوده نحو أصالته الرّوحيّة والكونيّة، والّتي بها سيكسرُ العوائق الثّقافيّة والدّينيّة القائمة على التَّعصّب والتَّطرّف وعدم تقبّل الآخر، ليحقَّق بعد ذلك نوعاً من الوحدة الإنسانيّة تحت إحساس عامّ بروحيّة كلّ الأكوان. وهذا سيعزّز من رغبة الإنسان في التَّحرّك نحو العوالم الأخرى وستبدأ الأسفار الشَّمسيّة تمهيداً لعهد جديد من حياة الإنسان، وسنقولُ وداعاً لجوازات السّفر والتّأشيرات.

٤٥) عمر البشرية ملايين ملايين السِّنين، والحروبُ تزدادُ عاماً بعدَ عام وقرناً بعد قرن، متى سيحلُّ علينا عصر السَّلام وتعمُّ علينا ثقافة السَّلام في كلِّ أرجاء المعمورة وتصبح الحروب من الماضي الغابر؟!

السرّ في التّربية الرّوحيّة المنبنية على الغذاء السَّليم والعلم الآمن، لذا فإنّي لستُ قلقة بشأن مستقبل الإنسان لأنّ حروبه ستصبح فعلاً من الماضي الغابر، وقد صدق اللهُ وعده حينما كرّمَ الإنسانَ وجعله أفضل المخلوقات. وليس لنا سوى أن نعطي للأشياء الوقت الكافي لتتحقّق، لأنَّ الأمر يتعلّق بمسار تطوّري يحتاج إلى صبر وزمن لتتكلّل التَّجربة الإنسانيّة بالنّجاح وبلوغ أرقى مدارج الكمال.

***

٤٦) تشتغلينَ بهدوءٍ عميق وصبرٍ عندما تكتبين، تترجمين، تقيّمين وتحلِّلين النُّصوص. من أين تستمدِّين هذه الخصوصيّة والفرادة في تواصلكِ مع الحرف والكتابة والتّرجمة والإبداع؟!

رُبّيتُ على الصّبر والحِلم عند الشّدائد، والكتابةُ شدّة من شدائد الزّمان لمن لا يعرفُها، لأنّها عملٌ يحتاج إلى عمق في التَّفكير، وهو العمق الّذي لا تُكسبكَ إيّاهُ سوى التَّجارب والخبرات العميقة في الحياة. إنّها شيء يشبه ابتلاع نار الكون، وبدل أن تنفثها على الجمهور كما يفعل نافث النّار في السّيرك فإنّك تنفثها في أعماق روحك وتحوّلها إلى نور يتلألأ فوق الورق. لأجل هذا فإنّ الأدب الحقّ هو شُغل من يحوّل النّار إلى نور ببركة الرّوح القُدُس الّتي بها أعمل في كلّ مجالات إبداعي من شعر وترجمة ونقد وفنّ تشكيليّ أيضاً.

***

٤٧) ماذا ينتابُكِ وأنتِ تشاهدينَ تفاقم الحروب في الكثيرِ من البلدانِ، وما هو موقفكِ من الحروب؟!

سينتهي كلّ هذا، اطمئنّ. سيسطع فجر السّلام، وستأكل القمحَ تحت الشمس الذّهبية ووسط الحقول الغنّاءة المعطاءة. تذكّر فقط أنّ ثمن الانتظار باهظ جدّاً، لأنّه مازالت هناك دموع في الأفق، وأحزان وليل طويل. لكنّ الأمل في استيقاظ الإنسان من غفوته كبير.

***

٤٨) ما رأيكِ، باللُّغة، الكلمة؟ مندهشٌ كيفَ لا يستطيع الإنسان التّفاهم مع بني جنسه وهو الكائن العاقل؟

مازال الإنسان سيّد المخلوقات وأعقلها، أنا أحبّه وأؤمن به، لأنّه مِن صُنع الرّحمن، ولا يُمكنُ لشيء خلقَه الله أن يكون سوى على صورته. ما تراه أنت عزيزي القارئ، هو مجرّد غشاوة لا بدّ ستزولُ، وسيُظهِرُ لكَ اللهُ الإنسانَ بكلّ مجده وقدسيّته. تذكّر أجدادك العظام، وانظر إلى البرهان، وثق بأن الشّمس ستشرق على مرّ الأزمان. قل يا الله وافتح قلبك الّذي هو كتابك الكونيّ، واقرأ عليّ منه سورة الإنسان!

***

٤٩) كيف ممكن أن يعيشَ المرء من دون لغة، أم أنّه حمل اللُّغة في مشاعره الدَّفينة وتشرّبها مع الزّمن؟!

لغتي لغة الإنسان، ذاك البكر القادم من أطهر الأزمان، إنّها لغة حبّ ومحبّة، تخرجُ نوراً من جسدي العاشق الصّوفيّ، لتنتشي بصبابتي، وترتعش بوجدي، وتتدثّرَ عند الهجر بالحداد. ومثلما يتعرّى المحبّ من أعراف وتقاليد من يدّعي العقل

والمنطق، فإن لغتي هي لغة أهل الحضرة والقلوب؛ ولأجل هذا فإنّي أرى اللّغات الرّسميّة الممتدة عبر هذا العالم الفسيح عقالاً وسجناً وحجاباً لأنّها غير قادرة على استيعاب دلالات المحبّة والعشق، ولأجل هذا أيضاً أكتفي في كثير من الأحيان بالإشارة، لأنقل ذوقي ومواجيدي وأجعلها تتدفّق نحو أهل القلوب المتبتّلة في محاريب العشق. لغتي لغة محو ونسيان، تخترقُ لغة الظَّاهر وتجاوزها، ولا شأن لي بلغة أهل هذا الزّمان.

***

٥٠) لغتُكِ حيرى إنها تخترق الأُلْفَة وتدفع بالحرف نحو أفق الغرابة والدّهشة، كيف تفسّرين ذلك؟!

أعتقد أنّ ذلك نابع من خصوصية التّجربة الّتي أحياها، والّتي غالباً ما أجد نفسي ضمنها مدفوعةً إلى وصف ما لا يوصف؛ وقول ما لا يُقال، وكتابة ما لا يُطيقُه قلم إنسان. لأنّي كمن يرقم وَجده على الماء، بصمتٍ مثخن بالحيرة، بل صمت تُفصح عنه لغةٌ مبلّلة بالنّدى، ندى الغيب والجمال. لأنّني أقول الوحدانيّة بلغة التَّعدّد، وأفصحُ عن الوتريّة بلغة الشّفع، وأعلن عن الجمع بلغة الفرق. من هنا حيرتي المنحفرة كما الوشم فوق جسدي العاشق.

***

٥١) كثيراً ما تتحدّثينَ عن ضرورة معرفة النّفس كوسيلة يتحقّقُ بها السّلامُ الرّوحيّ، هل برأيكِ يحتاجُ الإنسانُ بعدَ هذه المرحلة إلى مُعلّمٍ أو مُرشد روحيّ يُكمِلُ معه وبهِ طريق الحياة نحو الكمال والسّموّ الذّاتي والفكريّ؟

هذا سؤال مهمٌّ للغاية لأنّ فيه إشارة إلى العلاقة الرّوحيّة بين المُعلّم والمُريد، ولو أنّي أجدُ مصطلح "العلاقة" لا يفي بالغرض المطلوب، واللّغة هنا تبدو ضيّقة وضعيفة جدّاً ولا تُسعفني أو تساعدُني على تحديد المعنى الصّحيح الَّذي به يُعَرَّفُ هذا النّوع من الرّوابط الرّوحيّة. عموماً لا بدّ من الحديث أوّلاً عن معنى المعلّم: من يكونُ، ولماذا هو بالذّات دوناً عن غيره؟

اعلم يا أيّدكَ اللهُ بنوره وعلمِه ومحبّتِه، أنّ المُعَلّمَ لا يُحَدَّدُ بعُمرٍ ولا بجنسٍ ولا بزمان أو مكانٍ أو دينٍ، فقد يكونُ أصغرَ من المُريد بسنوات عدّة، وقد يكون طفلاً، وقد يكونُ من رجالِ الزّمن الماضي، أو من أهل الحاضر، أو من صحْب الزّمن المُقبلِ، وقد تكون امرأةً بصفة معلّمٍ لرجل أكبر منها بكثير في السّنّ يكونُ سالكاً وواقفاً عند باب الرّجاء والدّعاء والحضرة. لكن عليك أن تعرف أيضاً أنّه مهما اختلف جنسُ المُعلِّم ذكراً كانَ أم أنثى، فإنّه يبقى على خلاف المُريدِ "ذكوريَّ" الصّفةِ من حيثُ فَيْضِه وعطائِه المُسْتَمرّ، لأنّهُ – أو (لأنّها) غيمةٌ حبلى تبحثُ عن إناءٍ تفيضُ فيه بالمطر، والإناء هو المُريد الّذي يكونُ "أنثويَّ" الصّفة لأنّهُ – أو (لأنّهَا) الرّحمُ المستقبلُ لفيْضِ المُعَلّم. واعلم أنّ المُعلِّمَ دائمُ البحث عن مُريده يسعى نحوه باستمرارٍ، والشَّأنُ نفسه بالنّسبة للمريد تجاه معلّمه، ولا بدّ للاثنيْن أن يلتقيا، ليس جسديّاً بالضّرورة وإنّما روحيّاً قبل كلّ شيءٍ ليتحقّقَ الانصهار بينهُما. و"العلاقة" السلّيمة بين الاثنيْن هي تلك الّتي لا يطلبُ فيها المُريدُ شيئاً، ولا يَعِدُ فيها المعلّمُ بشيء، إنّما يحدث الفيض والاستقبال لوحدهما ومن ذاتهما، مادام في المُريد عطَشٌ وفي المعلّم فيضٌ. ولا أحد في هذه "العلاقة" أفضل أو أهمَّ أو أكبرَ من أحد. وعليكَ أن تتذكّر جيّداً أيّها القارئ أنّه ثمّة فرق كبير بين المُريد والتّلميذ، وبين

المعلّم والأستاذ. فالمُريد من أهل العلم اللّدنيّ، والمعلّم حاضنُه، أمّا التّلميذُ فيطلبُ العلومَ الدّنيويّة الجاهزة، والأستاذُ قد درس طويلاً في حياته من أجلِ أن يحصل عليها في المدارس والجامعات، فيعطيها لتلميذه من باب الثّقافة والمؤسّسة والمجتمع، بقلبٍ قد يكون في كثير من الأحيان غارقاً في الغفلة والظّلام، في حين وبالإضافة إلى العلم الدّنيويّ والأكاديميّ، فإنّهُ من الممكن جدّاً أن يكون مُعلّمُك طفلاً وهو لا يدري أنّهُ معلّمُكَ، أو طفلةً، أو شيخاً عجوزاً لم يسبق له أنْ دخل إلى مدرسة، والعِلمُ الّذي في قلبه أكبر بكثير ممّا قد يتوقَّعُهُ فيلسوف أو مُنَظِّرٌ من أهل الثّقافة والعلوم.

المعلّمُ أو الشّيخُ شمعةٌ مُشتعلة، والمُريدُ كذلك، وحينما يقعُ اللّقاء بينهما تتوحّدُ الشّعلتان ولا يهمّ إذا ظلّ الجسدان منفصلان بحُكم الزّمان والمكان والتّاريخ والجغرافيا.

حينما يلتقي المُريد بمعلِّمه يقعُ العشقُ، لذا، عليكَ أيّها المُريدُ أنْ تعرفَ هذا جيّداً، وعليكَ أيّها المعلّمُ أن تعرفَ متى تنفصلُ عن مريدِك وتدَعَه يُكمِلُ الطّريق لوحده حينما ترى أنّه قد أصبح هُو أيضاً بدوره معلّماً أو شيخاً كبيراً، ربّما أفضل منكَ بكثيرٍ، وإلّا فلا خيْر فيكَ ولا في عِلمكَ ومعرفتكَ. أمّا أنت أيّها المُريد، فاعلم أنّ الفيْضَ لا يحدثُ إلّا إذا تحقّقت لديْكَ الثّقة بمُعلّمكَ، لأنّك بهَا فقط يُمكنُكَ أن تتعرّى وتتحرّرَ من كلّ قيودك، وأنْ تُصبحَ قادراً على أن تقول له: وداعاً يا صاحبي سأكمل الطّريق بدونكَ. عندها فقط ستجدهُ يباركُ لكَ ولادتكَ الجديدة وانفصالكَ عنه بأمْنٍ وأمان وسلام ومحبّة عظيمة:

((مُذ لبستُ قميصكَ الصّوفيّ

عرفتُ مَن أنتَ

مُعلّماً في الطّريق إليّ

رأيتُكَ تبكي

وأنت تلتقطُ ساهماً
بين كلّ خطوة وأخرى
العناكبَ والأفاعي والعقاربَ
وتُلقيها بين يديّ
تختبرُ صبري عليكَ
وتنتظرُ إشارةَ البوح بالسرّ
أيّها العارفُ الّذي لم أعرفْ سواه
قلتَ ستفتحُ عيني الثَّالثة
وستُطلعني على فاتناتكَ السُّمر والسّود
قلتَ ستُدخلُني إلى ملكوت الموتى
قلتَ وقلتَ وقلتَ ...
ولم تكُنْ تدري أنّي عيْنُكَ الثَّالثة
وفاتناتُكَ السُّمر والبيض والحُمر
وأنّي مَلَكُ الموت الَّذي يرقُدُ بجانبكَ
كلّما أويتَ إلى سرير السِّرّ
بالأمسِ قبّلتُ يدكَ
وأنتَ تلبسُ وجهَ جدّي وعباءَته
بالأمسِ أعطيتنِي كيساً من الخبز الأبيض
وذهبتَ إلى لقاء والدِي
بالأمسِ رأيتُكَ كما أنتَ
شيخاً بعيون كحيلة
وجبهة منقوشةٍ بالنّقاط الفضِّيّة والذَّهبيّة
تمشي الهوينى في الهواء

وبين يديْك أنا
وردتَك الصّوفيّة
تُغْرقني بالنّدى
وتَفيضُ عليّ بالأسرار)).

***

٥٢) نحن في زمن وإنْ كثُرَ فيه المعلّمون والأطبّاء الرّوحيّون، فإنّ الحروب مازالت مندلعة في كلّ شِبْرٍ من الأرض، أينَ يوجدُ الخلل؟

أينهُمُ المعلّمون الرّوحيون؟ أنا لا أراهُم من حولنا، والموجودون حقيقةً يعدّون على رؤوس الأصابع، ولا يُدركُهم صدقاً وعياناً وروحاً سوى أهل الحضرة. وإذا كنتُ قد أشرتُ في جوابي السّابق إلى العلاقة بين المُعلّم والمريد، فإنّني أريدُ هُنا أن أفسح المجالَ للحديث عن المعلّم والمُرشد الدّاخليّ الّذي لن يدلّكَ عليه أيُّ مُرشد آخر مادامت فكرةُ المعلّم الرّوحيّ أصبحتِ اليومَ نابعة من فكرة ترسيخ الحاجة للغير في زمن يتلاعبُ فيه الجميع بالجميع.

لتعلم أيّها القارئ المحبّ، أنّك لست وحيداً في هذه الدُّنيا، ولا وُلدتَ يتيماً في هذا الكون الفسيح، بل على العكس من ذلك تماماً، فأنت مطلوب ومحبوب من طرف الكون بأسره، وأنت أهمّ شيء في الوجود بالنّسبة لخالقِه الّذي وسِعت رحمته كلّ شيء. لأجل هذا، فإنّي أقول لك إنّه في زمن العُسر والضّيق أصبح من الأفضل لكَ أن تتحصّن بالخُويْصة وترمي فكرة هؤلاء المرشدين "الرّوحيين" الّذين أصبحوا ينبتون في كلّ مكان كنبات الفطر في الغاب ولا شيء يفعلون سوى فرضِ أفكارهم وآرائهم وأحكامهم وشرائعهم الّتي لا سلام ولا محبّة فيها، وإلّا فكيف تُفسّرُ كلّ هذه الحروب المشتعلة من حولنا، لماذا لم يتوصّلوا إلى إرشاد أحدٍ إلى مرافئ السِّلام الحقّة؟! عليْكَ اليوم وأكثر من أيّ وقتٍ مضى أن تهربَ بنفسكَ منهم، فأنت فريد

جدّاً بكينونتكَ الخاصّة، إنّك كنز نادر ويجبُ أن تسمحَ لنفسك بأن تتفتّح وتتنوّر بعيداً عن كلّ هذا الجنون. ولتعلم أنّ الكلّ مُصرٌّ على أن يستمرّ في قولبَتِك وتعليبكَ وفقاً لأنظمة معيّنة وأفكار جاهزة ونماذج صُنعت قديماً ومازال يُعاد تحويرها وتسخينها كحساء حامض. عُدْ إلى فطرتك، واغسل روحَك من أدران الماضي ومخلّفات الإرث العقيم، واسْعَ إلى الحجّ الدّاخليّ، هناك حجر أسود بداخلك ينتظرُ أن تلمسهُ ليفوح بالعطر الزّكيّ، عطر روحك المشتعلة بنور الله. ولا تنسَ أنّ أكبر ممّن ادّعى الإرشاد الرّوحي بمن فيهم الأطبّاء النَّفسيّون هم النّاسُ الأكثر مرضاً وهمّاً وغمّاً من غيرهم، انظر إلى فرويد مثلاً، أنا في حياتي ما رأيتُ طبيباً أشدّ منه مرضاً.

يكفي أنّه أغلق في حياته بنظرياته تلك بابَ الاجتهاد أمام الآخرين لفهم النّفس البشريّة وفهم الإنسان من يكون حقيقةً، هذا الإنسان الَّذي قال بشأنه صاحب العزّة والملكوت وهو يتحدّث للملائكة: إنّي أعلمُ ما لا تعلمون.

فمن يكون الإنسانُ حقيقةً يا صاحبي فرويد، وماذا يحدثُ لهُ حينما تمرضُ نفسه، ما الّذي يختلّ فيه، وأيّ توازن يفقد، بل كيف تمرضُ نفسه وتفقدُ سلامها؟ ولماذا؟

أنت قد أجبتَ عن هذه الأسئلة بطريقتك الخاصّة في العديد من مؤلّفاتك من قبيل الكبت، والحب والحرب والحضارة والموت، ثمّ ما فوق مبدأ اللّذّة، والأنا والهو وغيرها من الكتب الأخرى، إلّا أنّي أريدُكَ الآن أن تنصت لي بعين الفحص إذا سمح لك بذلك ألمُ الأسنان الفظيع الَّذي عانيْتَ منه جرّاء تدخين ذاك السِّيجار الكبير الَّذي لا أعرف ما الّذي كان يُعجبك فيه، مع أنّه تسبّب في إصابتك بسرطان الفكّين وقادك إلى القبر بقدميْكَ وأنت في "كامل قواك العقليّة"، واسمح لي أن أضع العبارة بين مزدوجتين لأنّني سأعود إلى مناقشتها معك، وأسألك بشكل صريح: هل كنتَ وأنت المريض بسرطان الفم، والمدمن للهيروين، والمُعاني من أمراض أخرى في جهازك العظميّ بكامل قواك العقليّة؟ أو هل كنتَ حقّاً مؤهّلاً لأن تُقدّمَ للإنسانيّة

حلولاً لمشاكلها وأمراضها النّفسيّة وأنت الّذي كنت تعاني من أمراض لم يتجرّأ لليوم أحد على أن يضعها تحت مجهر التّحليل والفحص النّفسيّ؟! أنا سألتُ الكُتُبَ عن تلميذك وليام رايخ فقالتْ لي إنّكَ طردْتَهُ من مكتبِكَ لمجرّد أنَّه سألكَ أن تُريه إنساناً شُفي من مرضه بمجرّد تطبيق نظريات تحليلك النّفسيّ عليهِ.

ألا ترى يا أخي فرويد أنّك قد جنيتَ على مرضاكَ وأنت تُسْقِطُ عليهم تجارب طفولتك ومرضك العصابي الّذي لم تنفعك نظرياتُك في الشّفاء منه أبداً؟! كونك كنتَ تحمل عداءً مَرضيّاً تجاه أبيك وحبّاً أعمى تجاه والدتك، فهذا لا يعني أن كلّ النّاس مصابون بعقدة أوديب أو إلكترا. ثمّ ماذا سأقول عن علاقتكَ العاطفيّة بأخت زوجتك، أين سأصنّفها أيُّها "العالِمُ" المبجّل! اسمعني جيّداً يا فرويد؛ قد تكون بنظريَّاتك طرقتَ أبواباً لم يطرقها أحد من قبلك، لكن دعني أقلْ لكَ إنّ الحياة وما قرأتُه لكَ وعنكَ علّماني ألّا أثق كثيراً بمَا قيل عنك وعن شخصيَّتك الّتي أحاطها مريدوك وحواريوك بهالة من التَّقديس، والأسباب في ذلك عديدة، فأنا أرى أنّك نتاج ظروف عصيبة كانت تمرّ بها الإنسانيّة في ظلّ الحربيْن العالميَّتَين الأولى والثّانية، وكان شيء طبيعي أن يجد النّاس في نظريَّاتك الجديدة آنذاك وهُم الّذين أثقلتهم هموم الحروب الكبرى قشّةً يتعلَّقون بها ويعلّقون عليها آمالهم الباهتة في الخروج من جحيم الفقد والألم والمرض. نعم لقد كنت خشبةَ خلاص بالنّسبة لهم، وكيف لا وأنت الّذي عانى أيضاً من مطاردةِ النَّازيّة وجبروتها فتعاطف معك النّاسُ كثيراً وكانوا يصدّقونكَ في كلّ شيء حتَّى وإن كنتَ تقول لهم أنت ومن عاصرَك من بعض الفلاسفة أشياء لا يتقبّلها عقل حكيم ولا منطق سليم، فهل يُعقل يا رجل أنَّنا مثلاً ورثنا عن أجدادنا ذكريات العيش السّابق في الغابات مع الوحوش وفي الكهوف المظلمة لأنَّنا كنّا في الماضي السّحيق مجرّد قردة نعيش فوق الأشجار ونخشى الوقوع من فوق الأغصان، ولهذا فإنَّنا لليوم مازلنا نرى في أحلامنا أنّنا نقع من الارتفاعات الشَّاهقة؟! وهل عليّ أن أصدّق أيضاً أنّني في يوم من الأيام كنتُ

سمكةً أو طائراً لذا فإنّي قد أحلم أنّني أسبح أو أطير؟! أستغربُ حقّاً كلّ هذا منكَ وأنا الّتي علّمني اللهُ تفسيرَ الأحلام وأعرف جيّداً ما يعنيه الطّيران أو السّباحة في الماء أو السّقوط من الارتفاعات الشّاهقة في المنام، ثمَّ تعال هنا يا صديقي وقل لي: لماذا لم تتعلّم بالله عليك من يوسف (عليه السّلام) رائد علماء تفسير الأحلام بلا منازع، ألم تحدّثك عنه التّوراة؟ ألم تقرأ عن بقراته السّبع العجاف منها والسِّمان؟ ألم يصلك نبأ عن مدرسته الإيزوتيريّة الّتي ما تركتْ رمزاً إلّا وأحاطت به علماً في دنيا الأحلام؟ لا فائدة من كلّ هذه الأسئلة الآن، فأنت لم تكن ممّن يحبّون الأديان، لأنّك كنتَ ترى أنّها نشأت بسبب جريمة قديمة ارتكبها الإنسانُ الأوّل حينما قتل هو وإخوته أباهُم لأنَّه كان يحول بينهم وبين أمّهم وهم الّذين كانوا يرغبون في ممارسة الجنس معها، وعندما أصبح النّهار ندموا على فعلتهم تلك ندماً شديداً، ومزجوا قضيبَ والدهم ببيْض حيوان ما من الغابة، وأصبحوا يقدّسونه لأنّه يذكّرهُم بأبيهم، فكان هذا التّقديس أثرَ أوّل ديانة ظهرتْ في الوجود!

أنا صراحةً عزيزي فرويد لا أملكُ أمام ما قلتَه عن ميلاد أوّل دين في حياةِ البشر سوى أن أقول لكَ إنّني أرى بعضاً من تأثير ذاك المسحوق الأبيض الّذي كنتَ تتناولُهُ وتنصحُ المرضى بتناوله أيضاً، أنت تعرفُ طبعاً عمّاذا أتحدّث: إنّه الكوكايين يا رجل، وهو سبب كلّ هذه الهلوسات الّتي لا أوّل لها ولا آخر. طيّب إذا لم يكن الأمر كذلك فأخبرني بالله عليك من أين أتيتَ بهذه القصّة؟ ومتى قتلَ الإنسانُ الأوّلُ أبيهِ من أجل أن يحظى بأمّه؟ ومن أين جئتَ بأمر التّقديس ذاك؟ لقد كان بعضُ الأبناءِ يتزوّجونَ بأمّهاتهم في العهودِ الأولى ولم يكنِ الأمرُ حراماً ولم يكُنِ الآباءُ يرون في ذلك جريمةً، ولكنّك أنتَ أبيْتَ إلّا أن تربط نشأةَ الدّين بكلّ هذه القضيّة دون أن تستوعبَ حقيقة أنّك هكذا ربّما دنّستَ أصل العبادة والإيمان الفطريّ داخل قلوب النَّاس وعقولهم. حرام عليك يا رجل كلّ ما فعلتَه، فأنتَ حتّى وإن كنتَ تقول إنّ طريقتك ونظريّاتك في التّحليل النَّفسيّ ساعدت الكثير من النّاس

على الشّفاء، فإنّ الحقائق الّتي بين يديّ تقول غير ما كنتَ تدّعي، لم يُشفَ أحدٌ على يديْك وكلَّ ما أسّسْتَ له لم يكن سوى ثقافة وهْمٍ وخيال أثَّرْتَ بها على أجيال عديدة من الأدباء والفنّانين والمثقّفين من كلَا العالميْن الغربيّ والشَّرقيّ. مريضتُكَ بيرثا بابينهام هل تتذكّرُها؟ تلك الّتي كان يتابع في البداية حالتها زميلك جوزيف برويرٍ؟ نعم، هي المريضة المصابة بالهستيريا الاكتئابيّة والّتي كنتَ تنشر مقالات عنها وتشير إليها فيها بِاسم مستعار هو (آنّا أو). بيرثا هذه كما تقول وثائقها المؤرشفة في مستشفى Bellevue Sanatorium لمْ تكن مصابةً فقط بالهستيريا الاكتئابيّة وإنّما كان سببُ مرضها الحقيقي العدوى الّتي انتقلت إليها من والدها الّذي كانت تعتني به لأنّه كان مصاباً بداء السّلّ الرئويّ، وكان يونج أو كما كنتَ أنتَ تسميه بالكاثوليكيّ القرويّ المجنون، يُعارضُ كلّ ادّعاءاتِكَ عن هذه المريضة، ويؤكِّدُ زيفَ تحليلاتك وإصرارَكَ على شفائها من مرضها بفضل تطبيقك لنظريّة التَّحليل النَّفسي عليها! أرأيتَ يا فرويد، مَن عليّ أن أصدّق الآن، أنت أم كارل يونج الّذي كنتَ تحاربُه بكلّ ما أوتيتَ من حقد وحسد؟!

دعنا من كلّ هذا يا فرويد فبيرثا لم تشفَ أبداً، لقد بقيت مريضة إلى أن وافتها المنيّة وهي تعاني من شدّة الألم والعذاب، ولتعلم أنّ النّوم شيء مهمّ جدّاً في حياة الإنسان، والأحلام عالم فسيح شاسع مازلنا لم نكتشف منه شيئاً، ولا يمكن في الوقت نفسه التَّغاضي عن أهمّيّة بعض ما قدّمته بشأن ضرورة الاهتمام بالحياة الجنسيّة وظاهرة الكبت عند الإنسان، لكنّني أضيف أيضاً أنّهُ لا يمكننا أبداً وبأيّ شكل من الأشكال أن نعتبره الطَّريق الوحيد الّذي يؤدّي إلى دراسة النّفس البشريّة وعوالم الرّوح بشكل جيّد، وإنّما الطّرق متعدّدة بتعدّد أنفاس الخلائق. عزيزي فرويد، عالم الأحلام لا يحكُمُه فقط الأنا والأنا الأعلى والهو، وإنّما أشياء كثيرة أخرى مازلنا في طريق كشفها واكتشاف أوقاتها وساعاتها في اللّيل كما في النّهار، وإذا شئتَ علّمتُك بعضاً منها، يكفي فقط أن تنسى كلّ شيء وتبدأ معي صفحة جديدة

كما أقول في هذه القصيدة الَّتي نظَّمتُها خصّيصاً من أجلك داعيةً من خلالها علماء النّفس ومفسّري الأحلام إلى فتح باب جديد من أبواب العلوم النَّفسيّة والتّركيز فيها على البعد الرّؤيَويّ والبصيريّ في عوالم النّفس والرّوح والعقل:

((صديقِي فرُويد،
طالما أذنتُ لكَ بالجُلوسِ إلى مَائدتِي
أعْنِي إلى مائدَة ألفِي وبَائي
فليسَ منْ حقّكَ أبَداً
وأنتَ تُبَادلنِي أطرافَ البَوْح الشّعْري
أنْ تخْلعَ وِزْرَتكَ البيْضَاء
وترْتَدِي عَبَاءتكَ الخَضْراء وعَمامتكَ السّوداء

*

صديقي فرُويْد،
أيّها الضّابطُ المُدجّج بالرُّتَبِ والأوْسِمة
طالما فتحتُ لكَ بابَ النّقطَة
أو باب الوهْم العظيمِ والنّقمَة والنّعيمِ
فليسَ من حقِّكَ أبداً
وأنت تبحثُ عبثاً وسطَ جِنَانِي
عنِ الوَرْدِ الأسود والوِرْدِ الأزرقِ
أن تَخْلعَ بدلتكَ العسكريّة
وترتدي أمَامي خرقةَ الصّبابة والجوى

*

صديقي فرُويد،
أيُّها الطَّبيبُ المُصَاب بداء اليقظةِ والنّسيانِ

طالما دخلتَ خِدْر حَرفِي فارِمِ كلَّ شيء عندَ قدميّ:
وِزرتكَ البيضاء وبدْلة الخدمةِ العسكريّة
ثمّ عمَامتك السَّوداء والسّبحة الخضراء
وتمدّدْ عاريا فوق سَريري،
أعني سريرَ السّوطِ والنُّطقِ
واختَرْ بأيّ لسان تريدُ أن تحدّثني:
أبلسانِ أهل الوحْي، أم بلسانِ أهل العشقِ
أو أبلسانِ أهل الطّبّ والنَّياشينِ، أم بلسان أهل الشّعر؟
*
فرويد، يا صاحبِي الحزين
لا أقراصُ الحروف والنّقاطِ نفعَتْ معكَ
ولا التّسجيلُ الصَّوتِي لحِكاياتكَ البَاكية
ولا التَّنويمُ المغناطيسيّ
ولا حتّى الصّدَماتُ الكهربائيّة
فَقُل لِي بالله عليكَ:
ما عساي أفعله لكَ أو مَعكَ أو بكَ
وقد اختلطتِ الأوراق بينَ يديْكَ
فبِتَّ لا تعرفُ بأيّ حبرٍ ستكتبُ لي
أبحبرِ حم أم بحبْر يس؟
*
فرويد يا صاحبِي الوَديع
انْسَ كلّ شيءٍ،
وتعال افتحْ صفحةً جديدةً فِي حياتكَ

انسَ نظريَّاتكَ البالية،
انسَ أوديب وإلكترا
وانسَ عَجْزَ السّاقِ وَحسَدَ السّكّينِ
وتعالَ ادخلْ إلى عيادَتي الجديدة،
عيادةَ الهَاءِ والوَاو
وتمدّد فوق سريرهَا الأسْوَد،
ثمّ افتحْ عينَيْ قلبِكَ
فقد كشفتُ عنكَ غطاءكَ
واليومَ بصرُكَ حَديد.)).

***

٥٣) إنَّ تبنِّي ثقافة السَّلام تتشكّل منذ الطُّفولة، لماذا لا تزرع الأسرة هذه الثَّقافة في نفوس البنين؟

كلّ ما تعيشه الإنسانيّةُ اليوم من فوضى وحروب هي بسبب ما ألحقَهُ الإنسانُ من خراب ودمار بالطّفل والطّفولة في كلّ أصقاع العالم: انظر إلى الأمّ اليوم كيف تُحِبُّ، وكيف تتزوّج وكيف تحبل ثمّ كيف تلدُ الأطفال وتربّيهم؟ إنّ الأمر كارثيّ بما في الكلمة من معنى! المرأة تحيا في ضنك وضيق عيش رهيبيْن، أوّلاً لأنّها لا تحبُّ ولا تعشقُ وفقاً للنّاموس الإلهيّ الكونيّ البديع، ثانياً لأنّها لا تعيش في هناءة البال ولا تعرف للسّعادة ولا للسّلام الرّوحيّ طريقاً، ثالثاً لأنّها مقموعة باستمرار تحت ألف مسمّى وسبب وعلّة، وهذا كلّه قادها لأن تفقد توازنَها الفكريّ والنّفسي وثقتها بالحياة: انظر من حولكَ إلى عددِ العوانس في العالم، وعدد المطلّقات والأرامل، وعدد المتزوّجات القابعات وراء جدران المنازل، وانظر إلى الشّوارع وإلى لحمِ وجسد المرأة المبيع فوق الأرصفة وعلى المجلّات والشّاشات، وانظر إلى الفقر

والجهل والظّلم الَّذي ينهشُها كلّ يوم، وانظر إلى الحروب الَّتي دمّرت حياتها وحرمتها من كلّ شيء، وانظر إلى أكلها كيف سمّموه، وإلى لباسها كيف شوّهوهُ بإسم الموضة والتَّقدّم، وانظر إلى تقاسيم وملامح جمالها كيف مُسخت بكلّ الموادّ الكيماوية والمستحضرات السّامّة. ماتت المرأةُ أيّها السّادة، وبموتها أُعلِنُ الحدادَ الرّسميّ على كلّ أطفال العالم، من أتى منهُم منذ زمن، وأولئك القادمين في الطّريق أيضاً. أيُّ مستقبل ينتظرهُم، وأيّة تربية ستُعطى لهم، والجهلُ أصبح العلمَ الَّذي يتسلّح به الجميع، ولا أحد يرى النّار المشتعلة في كلّ مكان. فما الّذي سيأكله الطّفْلُ وأمّه تقضي معظم وقتها خارج البيت، ومن سيؤنسُ وحدته والأمّ ترميه في حضانة الأطفال منذ سنواته الأولى، وأيّ سلام سيعرفه وهو منذ يفاعته يفتح عينيه على أبٍ وأمّ يتشاجران باستمرار، أين هو الحبّ، أين هو التّناغم والعشق بين الوالديْن، أينَ الأمّ الَّتي تحبُّ نفسَها وأطفالها؟ لا أمل، إنّه زمن الفوضى والضّياع الَّذي لم ينجُ منه أحد:

((لَمْ ينجُ أحدٌ يا صاحبي
صدّقنِي،
كلّهم ركبوا السّفينةَ
وكلّهُم غرقُوا
*
أجَلْ يا صاحبي
فنُوحٌ كانَ نجّاراً طيّباً وفقيراً
مثلِي ومثلَكَ
ولمْ يكنْ معهُ حتّى ثمنَ خرقةٍ
يكسو بها عُريَهُ وعُرينَا
*

وكانتِ السَّفينةُ متآكلةَ الخشبِ
والنّارُ مشتعلةً في نصفِها الأماميّ
ولم يكُنْ بِها لا الطّيْرُ ولا الفِيَلَةُ
ولا حتّى القِردَةُ
يا صاحبِي
*
فالطُّيورُ والبهائمُ أذكَى
منْ أن ترميَ بنفسِها
في سفينةٍ مثقوبة محروقةٍ
وسطَ بحرٍ من الأمواج المتلاطمةِ
*
لكنَّ النَّاس فعَلوا هذا
وكانوا يتزاحمُون كالمجانينِ
وسط المَاء على سفينةِ نوح
الرَّجل الحنون الكريم
*
وكنتُ أنا ونوح نصْرُخُ ونبْكي
منْ هولِ المصيبة
فلا أحدَ من هؤلاء النّاس كانَ يرى
ثُقوبَ السّفينةِ ولا نيرانَها
*
فلماذا رميتَ بنفسكَ معهُمْ
فوقَ ظهرهَا يا صاحبي؟

أَلَمْ أرْسِلْ لكَ الغُرابَ الأبيض
كيْ يُحَذّرَكَ من سُوءِ العاقبةِ
والحمامةَ الحمراء كي تَرْبِطَ على قلبِكَ
وأنتَ وسَطَ الموج؟!
*
عبثاً يا صاحبِي،
لمْ تعُدِ الكلماتُ تنْفَع الآنَ
ولا الدّمْعُ ولا النّدَم
فقد كانَ أولى بكَ أن ترميَ بجسدكَ
فوقَ الماء مُباشرة
*
جسدُكَ وَحْدَهُ سَفينتُكَ
وأنتَ وَحْدَكَ نوحَه النّجّار
وإذا لَمْ تَبْنِهِ بيَدَيْكَ
خَشبةً خشبةً
فلنْ يَبْنِيَهُ أحدٌ مكانكَ
*
عبثا تحاولُ يا صاحبي
قُضيَ الأمرُ وستبقى هكذَا تغرقُ
في كلِّ يومٍ ألفَ مرة
كَمُهاجرٍ يبيعُ حقولَ الوردِ والنّعناع
ويتركُ خلفَهُ دموعَ الأهل والأحبّة
ثمَّ يرمي بنفسهِ فوقَ سفينة

منخُورة الخشبِ
علّها تصلُ بهِ إلى الضّفّة الأخْرى
*
أيّة ضفةٍ هيَ،
أهيَ الجنّةُ أم الجحيمُ؟
لا أحدَ يعلمُ عنهَا شيئاً
سوى الغراب والحمامة
فسَلهُما إذن
إذا أنتَ يوماً نجَوتَ
يا صاحبي.))

***

٥٤) كيف يُمكنُ أن نحثَّ الإنسان على السّعي نحو آفاق السّلام وتشجيعه بالتّالي على تفادي الحروب القادمة والحيلولة دون وقوعها؟

ليست الحربُ تلك التي تقعُ بسبب استكبار الدّول والأنظمة العالمية فحسب، وإنّما هي تعبير خارجيّ عن حالة الإنسان الدّاخليّة، وكلّما ازداد الظّلام الرّوحي كانت الحروبُ على سطح الأرض أكثر ضراوة ودمويّة، لذا فإنّي أقول إنّ غياب حالة السّلام الرّوحي داخل كلّ فرد هو السّبب ليس فقط في الحروب المندلعة وإنّما في الكوارث الّتي تصيب الطّبيعة من زلازل وحرائق وفياضانات وأمراض وهلّم جرّاً. وإذا كانت هناك حروب قادمة، فلا يُمكن بأيّ حالٍ من الأحوال إيقافها، لأنّها واقعة مسبقاً داخل الأفراد على المستوى النّفسيّ. إنّ الأمر يشبه نوعاً ما حادثة شبوب حريق في منزل ما، كلّ ما يُمكنُ للإنسان أن يفعله هو أن يعرف سبب اندلاعه، وبالتّالي السّعي إلى تفادي وقوعه مرّة أخرى بالسّعي مثلاً إلى بناء المنازل وتجهيزها

بموادّ غير قابلة للاشتعال. عليك عزيزي القارئ أن تحدّدَ الأسبابَ الّتي تؤدّي إلى اندلاع الحروب ومن ثمّ تفاديها. والبداية تبدأ منك أنت عبر السّعي إلى التَّغيُّر الذّاتيّ، ولتعلم أنّ الإيمان بعدّة معتقدات سياسيّة وأخرى دينيّة وثالثة إيديولوجيّة هي الّتي عادة ما تتَسبّبُ في نشوب الحروب بشكل عامّ، لذا أقول إنّه ليس المهمّ عقيدتُكَ بقدر ما هي نيّتُكَ الطّيّبة وخُلُقكَ الحسن وبساطتُك في العيش. أمّا إذا كنتَ ممّن يسعى إلى القوّة والمركز والسّلطة والحكم، فاعلم أنّه لا يُمكنكَ بهذه الصّفات سوى أن تكون من أهل الحروب والاستكبار لأنّك ستسعى إلى بناء مجتمع يُنتِجُ الدّمار لا العمار.

من المُمكنِ جدّاً أن أظلّ هنا أنتَ وأنا نتحدّث عبر ألف جواب وجواب عن السّلام، وقد نعقدُ بشأنه المؤتمرات ونجلس حول الطّاولات لنناقش كلّ قضاياه، لكن سيبقى كلّ حديثنا كاذباً ومزيّفاً مادام لا يخترقُ النّفسَ من الدّاخل. فأنتَ تُريد القوّة، وتريد أن تفرض دينكَ مثلاً، أو قوميّتكَ أو إيديولوجيّتكَ، وهذا من حقّكَ تماماً لكنّك لا تستوعبُ حقيقةً أنّك بهذه المقوّمات تسعى إلى خراب العالم. إحلال السّلام ليس بالأمر اليسير أبداً، إنّه يقتضي ثورة داخليّة، ولا أقول ثورة اقتصاديّة ولا سياسيّة فقط، لأنّك أنت السّبب كفرد ولا بدّ أن تبحث قبل كلّ شيء عن علاج لنفسك من كلّ ما تخزّنُه من محفّزات للغضب، والحقد والحسد والكذب والغشّ والخداع وسوء النّيّة الدّائم والوسواس وحبّ الامتلاك والسّيطرة. من هنا يجب أن تكون البداية، لأنّ تحوّلكَ الدّاخلي سيقود حتماً إلى التَّحوّل الخارجيّ. ربّما قد توافقني على ما أقول، لكنّ هذا ليس كافياً، لأنّك بمجرّد ما ستنتهي من قراءة هذه الأسطر ستخرجُ من غرفتكَ وستستمرّ في فعل ما كنت تفعله دائماً، ألمْ تسمع اللهَ وهو يقول في مثل ما يحدثُ لكَ وللعديد ممّن يفكّرون بالطّريقة ذاتها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا

يَعْلَمُونَ، وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ، اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)) (سورة البقرة: ١٣-١٦). لن تؤمنَ بالسّلام أيّها القارئ ولن تعرفهُ ما لم تتحوّل من الموافقة اللّفظيّة إلى الموافقة الفعليّة، ولتعلم أنّ حالة الحرب في العالم لن تتوقّف بمجرّد الموافقات الشّكليّة، وإنما تستوجبُ حالة وعي عميق بالخطر القادم دون أن ترميَ بالمسؤولية لا على حاكم ولا على رجل دولة أو سلطة، لأنّ المسؤولية تبدأ من كلّ واحدٍ فرداً فرداً، ولن يأتي السّلام ما لم تبلغوا سلام الذّات مع أنفسكم وفي بيتكم ومع أهلكم وجيرانكم، ثمّ بعد ذلك مع بقيّة أفراد المجتمع، لا بدَّ من البداية من النّواة الصَّغيرة ليتّسع إشعاع التَّغيير على مستويات أوسع وأكبر من الذّات والفكر والجسد.

***

٥٥) كيفَ تنظرين إلى ذكريات الطُّفولة، هل ممكن ربطها بما يحدث لاحقاً، وكيف نسترجع الذّكريات؟!

ذكريات الطُّفولة مشكلة كبيرة جدّاً، لا سيّما وأنّني أعتقد أنّه من الأفضل للإنسان أن يرمي وراء ظهره كلّ شيء، حتّى وإن كانت الذّكريات جميلة وفيها من العذوبة والحلاوة والمتعة الشَّيء الكثير. حركة الحياة عليها أن تكون إلى الأمام وليس إلى الخلف، لأنّها تطوّر مستمرّ: لا يُمكنُ للفرد دائماً أن يعيش في سجن الماضي وإن كان جميلاً. الحنين والأمل مفهومان ساحران ورائعان جدّاً، لكنّهما قيْد كبير لمَن يسعى دائماً إلى تجديد نفسه وتطويرها لحظة بلحظة. يجب الانفتاح على العالم الدّاخلي للنّفس بشكل أكبر وأوسع: هناك مستقبل ينتظر الاكتشاف، لنطلّ من خلاله على أسرار الكون والطّبيعة. الطّفولة جميلة، نعم، لكن النّضج والتَّطوّر أجمل بكثير، إنّه سعي نحو الحرِّيّة. العرفاء مثلاً، يسعون دائماً نحو هذا النّوع من

الحرِّيّة، لا ماضي ولا مستقبل، إنّما هي اللّحظة الّتي يُبني فيها الفراغ، ويُرمى فيها كلّ شيء: اضبط نفسك واتبعني.

***

٥٦) هل كنتِ تتخيَّلي أنَّ مجموعة حروف وكلمات ممكن أن يترجمها العقل ويحوِّلها إلى فكرٍ وإبداع؟!

اللّغة قيْد كبير، والحرفُ لا يُحرِّرُ، لأنّ الإنسانَ كينونةٌ أكبر بكثيرٍ من الحرف واللّغة. صحيح أنّ تاريخ الفكر هو أيضاً تأريخ للحرفِ واللّغة، وقد جرّب الإنسانُ ضمنَهُ كلّ شيء بدءاً من الكتابة على جدران الكهوف وصولاً إلى الكتابة على الشّاشات الرّقميّة والهواتف الذّكيّة، لكنّ هذا غير كافٍ. لأنّ قيْد الحرفِ فيه أصبح أكثر قوةّ وألماً، وذلك بسبب كمّ الإبهار الّذي يمارسُهُ على الإنسان وعقله وقلبه ونفسه. وهو الإبهار الّذي لا يعنيني في شيء، لأنّني أطمح إلى ما هو أرقى وأقوى، مادمتُ أؤمن بالإنسان كائناً من نور، يُمكنهُ أن يعود إلى طبيعته وفطرته الأولى ليصبح حرفه ولغته من خلال منظومة: كُن فيكون. ولأجل هذا علينا أن نسعى نحو إعادة اكتشاف الإنسان حقّاً وحقيقة.

***

٥٧) من هو الإنسانُ إذن من وجهة نظركَ؟

الإنسانُ جسد وروح، جسدٌ هو البيت، وروح هي نفخ الله فيه. أيْ مَعْبَدٌ ومعبود. لكن والحال أنّ المعبد قد فسُدَ، فقد أصبحت الرّوح تقيم في سجن وقبر لا في بيت من نور. ولأجل هذا أقول دائماً، لا بدّ من العودة إلى حالة الفطرة الإنسانيّة عبر التَّجدّد الرّوحي. وعليك أن تعرف أيّها المكلّلُ بالمحبّة والبهاء أنّ جسدك هو وسيطُك وأنت بداخله عليك أن تقوم بتهذيب روحك للتغلّب على محدوديّة المادّة

وتعتق نفسك بالتّدريج من دوّامة الموت والفناء. ولتعلم أنّ روحك هي كالمثلث المتساوي الأضلاع، ورأسهُ المتّجه نحو الأسفل هو الّذي به تهبط إلى وهم الوجود لفترة محدودة من الزّمن، بينما الجزء الّذي لا ينغمر في مادة الوجود هو القسم الخارقُ منكَ، وهو نفسُكَ الكلّيّة الّتي تشمل كينونة الإنسان الكونيّ والّتي هي في تواصل واندماج مع النّفوس الكلّية الأخرى لكافة بني البشر، ومن هنا يأتي تعبير صبري يوسف دائما في تعليقاته على بعض أجوبتي قائلاً (انظر الملحق): ((وكم أشعر في بعض الأحيان أنَّكِ أنا، أو أناكِ تتقاطع مع أناي في الكثير من تحاليلك، فهل نحن البشر لدينا رؤى متعانقة مع بعضنا بعضاً ولا ندري، وهل تتواصل هذه الأرواح مع بعضها في صيغة سؤال أو رؤيا أو تحليل؟!)).

***

٥٨) ما هي المنابع الّتي رافقت تشكيل وعيكِ وخيالكِ وسموّ روحك نحو آفاق السَّلام والكلمة الخلّاقة؟!

مازلتُ أنتظرُ ولاداتي الجديدة، ومازالت الرّحلاتُ في بداياتها، لأنَّني كلّ يوم في شأنٍ، لا يُمكنني أن أقول إنَّني وصلتُ، أو إنّ وعيي وخيالي قد اكتملَ تشكيلهُما بشكل نهائي، لأنّ الحياة لا تنتهي، والعمر الّذي يُمنحُ لنا غير كافٍ أبداً لختم الرّحلة. هناك دائماً أشياء لابدّ من اكتشافها والاطّلاع عليها، وهناك خبرات لا بدّ من اكتسابها، ولا بدّ لكلّ فرد أن يُحدّدَ مقامَهُ في الوجود، ودورَه في الكون. لا أعتقد أنّني سأكتفي بنفسي ككاتبة أو شاعرة أو ناقدة أو رسّامة: هناك حيوات أخرى غير هاته الّتي سبق واطّلعتُ عليها واكتشفتُها. دعني أقُلْ أنْ لا شيء ممّا وصلتُ إليه اليوم يُرضيني. لقد خبرتُ مجال الكتابة واطّلعتُ على مسارات العديد من الكتّاب، ثمَّ رأيتُ حالة الكتابة في عصري والثّقافة بشكل عامّ، وهي لا تُبشّر بخيرٍ أبداً، ممّا يجعلني أقول، إنّ الحياة فيها أشياء أخرى غير واقع الكتّاب المزري وثقافتهم السّطحيّة، أشياء أجمل وأبهى، لا بدّ أن أجد طريقاً لتجربتها، وعُمُراً جديداً لأتذوّق

وأستمتعَ بطعمها. أعتقد أنّ الانشغال بالكتابة فقط وبأهل الفكر في عصري أصبحَ أمراً يجلبُ الكثير من الملل والاكتئاب. فما الّذي يفعله كلّ هؤلاء الكتّاب سوى أنّهم مقيّدون أمام حواسيبهم يكتبون ويبثّون شكواهم وأحزانهم وأفكارهم إلى ما لا نهاية وينتظرون أن يستضيفهم أحد ما في برنامج إذاعيّ أو تلفزيوني أشدّ تفاهة وسطحيّة ممّن يرضى بهذه المهزلة المشينة! في كثير من الأحيان أسأل نفسي هل هناك عالم آخر خارج منظومة هذا الحرف الّذي فقد وهجه وسحرَه؟ لا بدّ أنَّ السّعادة ليست محصورة فيه فقط وبدون أدنى شكّ! إنّني كلّ يوم أرمي ثوبَ الكتابة والحروف، وأمحو وأحذف ما أكتبُ، وأجرّبُ الكثير من الأشياء. أجرّبُ أن أكتبَ بشكلٍ آخر غير الجلوس أمام الحاسوب، وغير قراءة الكتب والأوراق وما إليها: فأنا أحبّ الطّيور مثلاً، وأسعى إلى تعميق علاقتي بهم وبعوالمهم، علّني أخرج من حرف الكاتب السّجين، وأدخل إلى حرف الطّير الطّليق. هذه بالنّسبة لي سعادة من نوع آخر، وعالم جديد أرغب في دخوله، فمن يدري ربّما دلّني الطّيرُ عليّ، وعلّمني من أكون:

((كثيرٌ عليّ يا مولاي
أن تحدِّثنِي اليومَ النّوارسُ
وأراها فوقَ عرشِ السّرِّ
تشدُو وتغنِّي
وتكسِرُ بلَحْنٍ شجيٍّ
بيضَ الحرفِ
لتُرِيَني مُحَّ المعنى
ونشربَهُ معاً كاملاً
ساعةَ التّسبِيحِ الأكبَر!
كثيرٌ عليّ يا مولاي

أن تكشِفَ لي صلاةَ النّورَسِ الملكيّ
وتدْعوَني عند الفجرِ القُطبِيّ
لأنضمّ إلى جوقتِه المُجنّحَة
كيْ أعزفَ عند النّبع الصّافي
أنشودةَ القلب المُشْتعل
بينمَا طيور اليمام من حولي
ينظرون مندهشينَ إلى يدي اليُمنى
تنغمسُ في البحرِ الأخضَر
ولا تبْتلُّ
ويدي اليُسرى تدخلُ في اللّهبِ الأزرق
ولا تحترقُ!
*
كثير عليّ يا مولاي
أنْ أسافرَ على جناح الغُربة
إلى فيافي الارتواء
وأرى اسمَكَ الأعظم منقوشاً فوق الماءِ
وهو يحدّثُني ويقول:
إنّي أنا ربُّ الماء
والنّار واللّهب
وربُّ الرّوح والقلب
صاحبُكِ الأزليّ
فتعالي واقتربي منّي
أكثر فأكثر!))

٥٩) كيف تموسقين إبداعيّاً: توهّجات الخيال، انبعاث الذّكريات، صفاء الرّوح وتجلّيات ألق السَّلام؟!

ربّما هذا السّؤال كان صالحاً لسنوات قليلة مضت من حياتي الإبداعيّة، أمّا اليوم فما عدتُ أتخيّلُ شيئاً، أسفاري الدّاخليّة ماعادت تسمحُ لي بالخيال وإن كان فقط على مستوى الإبداع والكتابة، لا سيّما وأنّني اكتشفتُ أنّ فِعل (كتَبَ) فيه جناس مع فعل (كذبَ) والكاتِب قد يكون في كثير من الأحيان (كاذِباً)، وإن كان كذبه كذب خيال لضرورات إبداعيّة محضة تخدمُ القصيدة أو القصّة أو الرّواية. هنا في عالم روحِي صدقٌ يفوق كلّ خيالٍ، وهو من شدّة صدقه ونُدرته يصعبُ على النّاس تصديقه وهم المحجوبون عن عالم الفطرة والبيان. ومن عالم روحِي وأكوانها أستقي مادّتي الإبداعيّة، وأنا أعلم تماماً أنّها ستبدو في أعين النّاس محسّنات كتابية، أو صور شعريّة خياليّة ليس إلّا، ووحدي أعرف كيف نبعت ومن أين أتيتُ بها. وأعرفُ أيضاً أنّ الأمر مكلف جدّاً، لأنّه يقتضي العزلة والكثير من الصّوم والعزوف عن العديد من الأشياء:

((أبي يُشبهُني كثيراً؛
لا يحلمُ أبداً وإنّما يَرى
وكثيرا ما يُفَسِّرُ هُو بنفسِه
رُؤاهُ الخُضر والحُمر والبيض
هكذا عَرفْتُهُ وعَرَفْتُكَ أيضاً
أيّها العابدُ السّاجدُ المدثَّرُ بإزار الألم
والمُتبرقعُ بخرقة الدَّمْعِ والأنينِ
*
أبي يُشْبهُني كثيراً؛
لا يكتبُ شِعْراً أبداً

وإنّما يَرْوي ما يَرَى
فيحسبهُ النّاس كلاماً
مِنْ نسج الذّاكرةِ والخيالِ
لذا، حينما اقتربَ مَوْعدُ ميلادي
رأى بعيْنِ قلبهِ
شمساً عظيمةً تُشْرقُ مِنْ أسيف
قالَ عنْها النّاسُ إنَّهَا مُجرّدُ قصيدةٍ
مِنْ قصائدهِ الجديدة
*
أبي يُشبهُني كثيراً؛
لهُ قلبٌ أبيض وأنا فيهِ
شمسٌ لا تتحدَّثُ إلّا معَ العذارى
ولا تروِي لأحدٍ سواكَ
أيُّها النَّاسكُ الأخضَر
حكايات تلكَ الحُقول
الّتي تتسَرْبَلُ بالعِشقِ
كُلّمَا أزْهَرَ الرَّبيعُ
فوقَ ضفافِ الشّعبة الأحْمر
*
أبي يُشبهُني كثيراً؛
فهُو مِزهريّةٌ منَ الزّمُرُّد الخالص
تزيّنُ مائدةَ الحرفِ
وتملأُ صباحَ الفُؤاد بأريج المسكِ الدِّمشقيّ

والعنبر اليَمَنيّ والبخُور النَّجَفيّ،
مزهريّةٌ فيها باقة كبيرةٌ مِنْ أزهار الأذريون؛
الأذريونِ الذَّهبيّ الأحمَر
والأذريونِ النّاريّ الأصفر
والأذريون الزّئبقيّ الأزرق
وكل زهرةٍ في هذه الباقةِ هي صلاةٌ
لا تلهجُ إلّا بالتّسْعةِ والتّسعين اِسْماً
وباِسْمِ الهُو الّذي لا أحدَ يعرفُهُ سواكَ
أنتَ أيها النَّجْمُ الزّمزميّ
يا صاحبَ الخاتم بينَ الكتِفيْن
والغيمةِ الّتي هطلتْ على الكون
رحمةً للعالمين)).

***

٦٠) كيفَ تشكَّلَ سموُّ الحرفِ وصفاءُ الرّوحِ كأنّك مجبولة من أجنحةِ سلامٍ ترفرفُ فوقَ طينِ الحياةِ؟!

كان لا بدّ لي أن أدخل إلى عالمي الصّغير الكامنِ بمحبّة ولطف بين أحضان الكون الكبير. كان لا بدّ لي أن أذهب إليّ وأسافر فيّ لأكتشف حرفي، وأعرف أنّني كما الجنين معلّقة بأرواحي الثّلاثة في شبكة الوجود، وأعرف أيضاً أنّ لي جسد أرضيّ في تناغم مستمرّ مع الأرض، وروح نجميّة في انسجام وتجاوب كبير مع روح الكون الحيّ. كان لا بدّ من كلّ هذا لأرى روحي الكونيّة السّرمديّة وأتلقّى منها أبجديّتي، لأنّني أنا الكتابُ، وأنا الكاتبُ والقارئُ في الوقت نفسه، وكلّ أسرار الكون في جسدي كما كلّ إنسان، مع فارق بسيط فقط: ثمّة من يعنيه جدّاً فتحُ

الكتاب والتَّواصل به مع روحه الكونيّة، وثمّة من لا يعنيه الحرفُ في شيء، فيغلق الكتابَ، ويلقي بجسده في عالم المادّة والطّين بدون أدنى شفقة ولا رحمة.

***

٦١) متى تكتبين، هل تسمعين خلال الكتابة إلى موسيقى على إيقاعِ هدوءِ اللّيلِ وسكونِ الصَّباح فيولد حرفكِ من مخيالٍ جامح نحو ألق السّماء، كأنّكِ تترجمين تجلّيات الرّوح في أصفى حبورها معَ السّماء؟!

من المستحيل أن أكتُبَ وأنا أستمعُ إلى الموسيقى، إذ لا يُمكنُني أن أخلطَ بيْنَ سماعٍ واستماع، سماع إلى موسيقى تنبعثُ على شكل حروف وكلام متدفّق بداخلي، واستماع إلى موسيقى قادمة من خارج جسدي. السّماعُ أعمق من الاستماع ويقتضي صمتاً وهدوءاً كاملَيْن، وإذا كان لا بدّ من الموسيقى فإنّني أستمعُ لها قبل أو بعد الكتابة، وأخصّص لها وقتاً كاملاً، أختار فيه المعزوفات أو القطع الّتي تريحني وتُساعدني على التّأمل والسّلام والاطمئنان الرّوحيّ.

***

٦٢) لماذا مازال الإنسانُ غارقاً لليوم في خوفه من الآخر المختلف عنهُ لدرجة أنّه قد يجدُ نفسه مدفوعاً دفعاً إلى ارتكاب أبشع الجرائم والحروب في حقّه؟!

الإنسان يقتلُ بِاسم كلّ شيء يراهُ مطلقاً، فهو يقتلُ بِاسمِ الله الّذي يدين به، وبِاسمِ الشّعب الّذي ينتمي إليه، وبِاسم الثّقافة الّتي يعتنقُها وبِاسم أفكاره الّتي يتعصّب لها بشكل لا نقاش فيه أيضاً، لدرجة أنّ الثّقافة بالنّسبة له أصبحتْ لها نفس القوّة والتَّسلّط الّذي يتمتّعُ به التَّعصّب الدّيني، ولها القدرة على أن تهزم غريزة الحياة في الفرد وتدفعه إلى أن يتحوّل إلى قاتل سفّاح. وهناك العديد من الحروب

الّتي نشبت في تاريخ الإنسانيّة من هذا الباب، لكأنّ اليقين بالثّقافة أصبح يقفُ على قدم المساواة مع اليقين المستمدّ من الله!

وكلّ هذا يأتي بسبب اهتزاز ثقة الإنسان في هويّته، وهشاشة الإحساس بالانتماء الّتي تدفع به إلى رفض كل ما هو مختلف عنه، وإنّي لأجد روسّو أكثرَ الفلاسفة شجاعة حينما قال – في زمن يُمَجِّدُ الثّقافة ويعتبرها أساس التَّقدّم البشريّ–، إنّ الثّقافة والعلوم هما المسؤولَين عن هذا التَّحوّل الرّهيب في كلّ فرد، أيْ من إنسان نبيل ونقيّ، إلى وحش طيّب لحدّ ما. وانظر إلى تاريخ الاستعمار والتَّبشير الدّيني لتعرف كم هي الجرائم الّتي ارتُكبت في حقّ الشّعوب المختلفة، حتّى أنّه مازال العديد من المثقّفين لليوم مَن يستخدم كلمة "إنسان" للإشارة فقط إلى من ينتمي إليهم بالفكر والمجتمع، بينما الآخرون فهُم ليسوا سوى غرباء، وقد يصفهم خيال هؤلاء المثقَّفين بأوصاف أخرى فيها الكثير من التَّوجّس والرّعب والعداء. انظر مثلاً إلى ما تركه تاريخ الثَّقافة في هذا المجال من حكايات وكتب، كتلك الّتي تُعلي من شأن البطل الجديد طرزان والّذي أرى فيه رمزاً للعقليّة العنصريّة على غرار ماوكلي الّذي أرضعته الذّئاب. وحتّى اليوم وعلى الرّغم من هذا التّقدّم التّكنولوجيّ الرّهيب الّذي وصلت إليه الإنسانيّة فمازالت الصَّالونات الأدبيّة في العديد من العواصم الغربيّة تجد صعوبة كبيرة في تقبّل هؤلاء "الغرباء" المختلفين جدّاً عنهم، وتجدهم يناقشون أمور السّود الأفارقة مثلاً، وكذا المغاربة والهنود والصّينيِّين والفُرس بكثير من السّطحيّة والسّذاجة المغلّفة بالاستخفاف والاحتقار. الشَّيء ذاته يحدثُ حينما يتحدّثون عن الكائنات القادمة من العوالم الأخرى، انظر إلى أفلامهم كيف تصوّرهم، إنّهم دائماً الأعداء الّذين يتربّصون بالأرض، ويرغبون في استعمار الإنسان وإلحاق الأذى به.

وقد عبّر عن هذا الخوف من الأجنبيّ عموماً بكثير من العبقريّة المحلّل النفسيّ دانييل سيبوني حينما قال: ((هل تمزحون؟ أيّ شيء أسمى وأعلى يمكن أن يكون

بحوزة هؤلاء الأفارقة والمغاربة الّذين يغزوننا؟ قد تكون لديهم جذور وعادات وتقاليد وهويّة، وهم بالتّأكيد ليسوا بحاجة إلى رفضك أنت لهم، فلهم هويَّتُهم وكفى، بينما أنتَ (ويقصد نفسه)، فإنَّك تحتاج إلى رفضهم لتحلم بهويَّتِكَ ... وأنت ربّما قد تذهب عندهم كسائح وتشعر بالحنين إلى روابط القبيلة والهويّة الَّتي لا تمتلكها، أيْ إلى هويَّتِهم)).

إنّها كلمات تمسُّ بعمق هشاشة المفكّر والمثقّف الغربيّ الَّذي يسكنه الخوف من الآخر، لأنّه يُفضّلُ أن يبقى حبيس إطارات يعتبرها بروازاً لكيانه، على أن يتخلّى عنها ويذهب للقاء الآخر والتّحاور معه، لأنّ هذا سيجعله يفقد إحساسه بالأمان. لذا، فإنّ الكراهيّة والرّغبة في القضاء على الآخر باعتباره عدوّاً يُهدّد سلامكَ، تطفوان على السّطح حينما يستطيعُ هذا الآخر المختلفُ عنكَ أن يُظهر ضعفك وهشاشة يقينك المزعوم بثقافتكَ وحضارتكَ وانتماءاتك الّتي لا حدّ ولا حصر لها:

((هذا الشّعبُ مازال حُرّاً أبيّاً وثرّيّاً،
ضعه في الأغلال إذن
واتركه عارياً
ثمّ كمّم فمه
وانتزع منه العمل
وجواز السّفر
والمائدة الّتي يأكلُ عليها
والسّرير الّذي ينامُ عليه.
ولتعلمْ أنّ أيّ شعبٍ
يُصبحُ فقيراً ومُستعبَداً
حينما تُسرَقُ لغتهُ
الّتي ورثها عن الأجداد

هكذا فقط يضيع إلى الأبد.
أيّ شعب
يُصبحُ عبداً فقيراً
حينما تعجزُ الكلماتُ عن خلقِ الكلمات
وتأكلُ بعضها بعضاً
الآن انتبهتُ إلى هذا الأمرِ
وأنا أدوزنُ قيثارة اللّهجة
الّتي باتتْ تفقدُ كلّ يومٍ وتراً من أوتارها.
*
إينياتسيو بوتّيتّا من (لغة ولهجة، ١٩٧٠)))

((Un populu
mittitilu a catina
spughiatilu
attuppatici a vucca
è ancora libiru.
Livatici u travagghiu
u passaportu
a tavula unni mancia
u lettu unni dormi,
è ancora riccu.
Un populu
diventa poviru e servu
quannu ci arrubbanu a lingua
addutata di patri:
è persu pi sempri.
Diventa poviru e servu
quannu i paroli non figghianu paroli
e si mancianu tra d'iddi.

Mi nn’addugnu ora,
mentri accordu la chitarra du dialettu
ca perdi na corda lu jornu.
*
Ignazio Buttitta
(da *Lingua e dialettu*, 1970)))

***

٦٣) نصوصُكِ حافلة بألقِ السَّلامِ والسُّموِّ، من أينَ تستمدِّينَ انبعاث تجلِّيات السَّلام والوئام بين البشر؟!

من وجوه مَنْ أحبُّ وحضورهم في حياتي: أبي وأمّي وزوجي وإخوتي. فالأسرة شيء جميل جدّاً، إنّها هبة الرّحمن الَّتي بها نعرف أنفسنا حقّ المعرفة. حينما أنظر إلى وجه والدي فإنّني أرى نفسي، ليس لأنّي امتداد له بالدّم فقط، وإنّما لأنّي أرى كيف أنّه كَبُر ونضجَ هو أيضاً من خلالي، فكونه أصبح أباً، فهذا حدث لا يتكرّر كلّ يوم، إنّه شيء خارق، لأنّ به تعلّمَ كيف يحبّني كأبٍ، وكيف يسهر على تربيتي، وكيف يدلّني على طريق الفضيلة والصّلاح. حينما أنظر إلى وجه أبي تحضرني خطاباته ومناقشاته الّتي كانت غالباً باللُّغة العربيّة الفصحى والَّتي من خلالها كان يحثّني على التَّميّز والتّشبّث بهويّتي، والسَّعي نحو حياة أفضل. حينما أنظر في وجه أبي أعرفُ أنّه وُجدَ من أجلي وإخوتي، وكيف لا وهو الّذي كان سيّد الإيثار في كلّ شيء، وسيّد نكران الذَّات من أجلنا جميعاً. ولأجل هذا حينما أكتبُ أكون محاطةً بهالة أبي، بوجوده من حولي، والشّيء ذاته أقوله عن أمّي الَّتي أرى في وجهها الهدوء والطَّمأنينة والأمان: هي من علّمتني كيف أكون سيّدة الصّابرين. وقد كتبتُ في حقّها العديد من القصائد هي وأبي، لأنّهما معي باستمرار، وقد كذب من قال إنّ الأبوّة تنتهي برحيل الوالدين من الدّنيا: هذا ليس بصحيح أبداً، لأنّ

والديّ مازالا معي على الرّغم من رحيلهما إلى عالم البرزخ. إنّهما هنا ولأجلهما أكتب وأعرف أنّهما يقرآني كما تفعلُ أنت كذلك أيّها القارئ العزيز.

أمّا زوجي فهو شجرة الإلهام الوارفة في حياتي، يُحيطني بمحبّته النّادرة الوجود، وبصدقه ونبله العظيمَين، وله أهديتُ وأهدي كلّ حرفي ولغاتي ومنجزاتي. في حين يبقى قلبي مشرعاً على مصراعيه لمحبّة إخوتي وأسرهم الكريمة واللَّطيفة، لأنّ السّلام يبدأ من أقرب المقرّبين، أيْ من علاقة المحبّة المتبرعمة في الشَّجرة الأولى، وبعد ذلك يمكنه أن يتمدّد ليشمل العالم بأسره. ضروري جدّاً أن يكون القلب فيّاضاً بالحبّ نحو الأهل والأحبّة والمقرّبين، وإلّا فلا سلام يمكن تحقيقه على وجه الدُّنيا.

***

٦٤) كيف تنظرين إلى الرُّؤيا، الحلم، فيما إذا ظهرتِ لصديقة في الحلم، وأنتِ في كاملِ وئامكِ ووداكِ معها، تتفرَّغين لها لبعض الوقت وهي في أوجِ فرحها، هل تتعانقُ وتتواصلُ الأرواح عبر تجلِّيات الأحلام؟

الإنسان عدوّ ما يجهلُ، قلتُها منذ زمن ومازلتُ لليوم وسأظلّ أكرّرُها إلى الأبد، فالإنسانُ يجهلُ نفسَه وكينونتَه من تكونان حقّاً وحقيقة وهو لهذا سيبقى عدوّ نفسه وعدوّ من حوله إلى أن يرثَ اللهُ الأرض ومن عليها. فلو عرف الإنسان من يكون ما استهجن حال العرفاء باللّه، الأحقّاء ولا استغرب أمورهم ولا كراماتهم، ولا حاربَهم أحد كما كانت تفعل الكنائس قديما مع النّساء منهم متّهمة إيّاهن بالهرطقة والزَّندقة والشّعوذة، وكما كان يفعل أهلُ الجهل في العديد من الدّيانات الأخرى الَّتي لا تفقه شيئاً في عالم الله وأهله، وعالم الرّؤيا والبصيرة، فما بالك إذا كان المعني بالأمر امرأةً، وما بالك إذا كانت ممّن رأى النّور في عصرنا الحالي، عصر الفتن والقلاقل والحروب والشِّرْكِ الظّاهر والخفيّ. وإنّي لأعلمُ أنّني أظهر في الرّؤى للعديد من النّاس، وأقاربُهم وأحاذيهم بالمحبّة بمن فيهم الأدباء الّذين جمعتني بهم بعض

الأعمال النّقديّة والشّعريّة، –وقد أشرتُ لهذا الأمر في أكثر من نصّ شعريّ وقصصيّ–، لا سيما مَن يعاني منهم من الأمراض وضنك العيش والحزن والتّعاسة. وسيراً على نهج صاحبتي رابعة العدويّة فإنّي أفضّلُ ألّا أستفيض في الحديث عن هذا الشّأن وهي الّتي كانت تقول: "اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم"، راجيةً فقط من الله عزّ وجلّ أن يزرعَ في قلوب من أظهرُ لهم السّكينةَ والطّمأنينة ويشفيهم من كلّ علّة وداء، ويرزقَهم الخير الوفير، ويكلّلهم بتاج الصّحّة الرّوحيّة والبدنيّة، ويكونوا لي أصدقاء مخلصين متبتّلين متدثّرين بالعفاف والبتوليّة، كما كان رياح بن عمرو القيسي، وعبد الواحد بن زيد والحسن البصري مع حبيبتهم في الله وحبيبتي رابعة.

***

٦٥) ماذا تقرَئِين، وما هي أكثر الكتب الّتي عمّقتْ رؤاكِ في السَّلام والحبِّ والصَّفاء والعدالة الإنسانيّة؟!

قراءاتي غزيرة ومتنوّعة كما سبق وأشرتُ في الجزء الأوّل من (رحلة المئة سؤال وجواب)، لكنّني اليوم بدأت أتّجه إلى كتب علم النّفس والطّبّ البديل والتّغذية السّليمة بشكل أكثر تركيزاً، أريد أن أعمّق معرفتي أكثر فأكثر بالإنسان، أريد أن أفهم هذا الجسد من هو؟ أريد أن أقرأ كتابي الحقّ: جسدي، عقلي، كينونتي، ذاتي، ولأفعل هذا لا بدّ لي أن أستعين بكتب العلماء كتمهيد ومدخل لعالمي وأسفاري الدّاخليّة، إذا لا بدّ للإنسان أن ينجو بنفسه من منظومة القراءات السّامّة والمعلومات الخاطئة والمغلوطة الّتي تتدفّق باستمرار من كلّ جانب وفي كلّ بلد منذ الأزل: لا بدّ لكلّ فردٍ أن يسعى نحو العلوم الحقّة، لابدّ أن نتعرّف أيضاً على كونِنا الفسيح وعلى نوع هذه العلاقة الحميميّة الّتي تربطنا به، ربّما هكذا نعرف حقّاً، من يكون الإنسان؟!

٦٦) ما رأيكِ بأدب الحوار حول السَّلام وترويج أدب وثقافة السَّلام وتعميمها في كل أنحاء العالم؟!

أعمق الحوارات هي تلك الّتي تكون مع النّفس، لأنّها تحرّرُ الإنسانَ من مكبوتاته وأحزانه وأفكاره وتساعده على الرّؤية بشكل أوضح: لا يُمكنُ لإنسان لا يُحاورُ نفسه أن يسعى لمحاورة غيره، وهذا يعني أنّ الهدف الأساس يجب أن يكون تحقيق السّلام الذّاتي أوّلاً ثمّ بعد ذلك الانطلاق من أجل تحقيق السّلام والتّواصل بالمحبّة والوئام مع الآخرين، والأفضل البداية بالأقربين والجيران والأصدقاء، ثمّ توسيع الدّائرة تدريجيّاً إلى أن تشمل المجتمع الأكبر والأسرة الإنسانيّة. وإذا كان الإنسانُ من أصحاب الفكر، فإنّه ملزم بأن يشحذ قلمه من أجل خدمة قضيّة السّلام، عبر الكتابة عن السّلام وأهله وحكاياته والعِبر المستقاة منها، والرّوائيون معنيون أيضاً بهذه المهمّة الجليلة، يجب أن يكتبوا للنّاس عن قصص الحرب والحبّ، أن يوثّقوا ما حدث في عصرنا الحالي من حروب في فلسطين والعراق وسوريا واليمن وغيرها من الدّول، يجب أن يدخلوا إلى عمق المعاناة الإنسانيّة، بمشرط طبيب لمعالجة الجراح والتّخفيف من المآسي الّتي عانى منها ومايزال إنسان هذا العصر القاسي والأليم.

***

٦٧) هل الشِّعر أقرب شموخ إبداعي إلى السَّلام، لأنّه ينبعُ من جوانحِ الرّوح، ويحلِّق نحو مآقي السّماء؟!

الشّعر هو سيّد السّلام، لأنّه يأخذُ الإنسانَ إلى عوالمه الدّاخليّة، ويحفر فيها بإزميل العارف باللّه، ولا يتردّدُ أبداً في الدّخول إلى المناطق المظلمة والجحيم المستعرة ليدلّ الإنسانَ على عيوبه ويستأصلَها معه بقلب محبّ، لأنّه يعرف أنّه هكذا فقط يُمكن الدّخول إلى فردوس السّلام. لهذا أقول لابدّ من الشّعر ومن يدِه ومشرطهِ وناره وجحيمه. وكلّ إنسانٍ شاعر، وليس كلّ شاعر إنسان. الشّعر مركبة

تأخذُ إلى الأكوان الفسيحة، وتُعرّفُ الإنسانَ بذاته، وهو لهذا يجبُ أن يكون خبزنا اليوميّ:

((أيُّ سرٍّ هذا الّذي تُخْفيهِ عنّي
قُلْ لي أنتَ
أيُّها الشِّعْرُ
تورّمتْ قدمَايَ مِنَ الوقوفِ ببَابكَ
وما منْ أملٍ،
كمْ أنتَ قاسٍ
يا صاحبَ النّون والقَلَم
لا غيومَ في الأفق
لا مطر
لا شمس
ولا قمر
أيْنَكَ قل لي
باللّه عليكَ
فأنا هُنَا
من مقامِ العشقِ أناديكَ
كيفَ قهرتَنا جميعاً
أيّها الشِّعْرُ
قُل لي:
امرؤ القيسِ
ماتَ شريداً في الصّحارى
ونزار

تعبَ من شدّة الرّكض
خلفَ عِشْقيّاته الكثيرة
والسِّيّاب
صرعَهُ المرضُ
وبودلير
قتلتْهُ باقاتُ الخشخاش الأحمر
كيف فعلتَ بنا هذا
وأنت هناك
بعيد جدّاً عنّا
قل لي
كيف طاوعَك قلبُكَ
وغبتَ عنّي
كلّ هذه السّنين من عُمري
يا حبيبي
يا صاحب السِّرِّ الأخضَر
أسألُ عنكَ قلبي
فيقول إنّكَ
بين الدّمِ والطّين
بين الماء والنّار
بين الزّهر والشّوكِ
بين الذّهَب والحديدِ
وبيْن النّعيمِ والجحيمِ
آآآهٍ يا حبيبي

يا صاحبَ العَقلِ السّامي
أعلمُ أنّهُ لا بدّ لي من سعير الغيابِ
كيْ تبوح لي بسرِّكَ
وهاقد آن الأوانُ لتعرفَ
أنّني البارحةَ طرقتُ ذاكَ البابَ الضَّيّقَ
ففتحتَ لي
ودخلتُ باحثةً عنْكَ
ولم أعرفْ أنّكَ نصبتَ لي الفخّ
وجذبتَني إليْكَ
وما وجدتُ باباً آخر للفرار منكَ
آآآهٍ يا حبيبي الشِّعر
يا صاحبَ القلبِ القاسي
كيف طاوعتكَ روحُكَ
وفعلتَ بي هذا
وأخذتَني على حين غرّةٍ إلى الجحيم
آآآي
أنهارُ النّار تُذيبُ قدميَّ
وتفتحُ عينِي الصّنوبريّة
لأراك أخيراً
جالساً هناك
على عرشٍ من ماء!
قل لي كيف حدث هذا
بل كيف يجتمعان في حضرتكَ

النّار والماء
والتّرابُ والهواء
ثم أنتَ وأنا؟!
هل اجتمعنا حقّاً
يا حبيبي
وهل صهرتِ النّارُ شوائبي
لأراكَ وجهاً لوجهٍ
وتعرفَني وأعرفكَ؟
نعم
في الجحيم التقيْنا
وهناك رأيتُ معكَ
عنترة والثّغلبيّ
وجاك بريفير وتوماس إليوت
وصاحب الطّريق آرثر رامبو
آآآي
يا حبيبي
أيّها الشِّعْرُ
يا صاحبَ البصيرة المُتّقدة
أكان لابدّ من هذا الجحيم
كيْ تُزْهرَ القصائدُ فوق أناملي؟
نعم
لا بدّ من كلّ هذه المحارق؛
محرقة الحروب

ومحرقة الخيانات
والخيبات المريرة
كي تولد القصائدُ
مضرّجة بالدّماء
والحياة
ولأعرفَ بعد النّار
معنى الجنّة والنّعيم
نعم
لا بدّ من الأضداد لأراكَ
يا سيّدي الشِّعْر
لا بدّ من جنون الفراغ
وحكمة الامتلاء
لا بدّ من بحر الأسرار
ومحيطات النّقطة
بل لا بدّ منكَ
لأنّكَ الغرامُ
والحرفُ
والكلامُ
ولأنّكَ سيّد السّلام
ولأنّي أنتَ
أيّها الحبيبُ الأزليّ
يا صاحبَ البابِ والمفتاحِ
والبوحِ والكتمان)).

٦٨) لديك طاقة روحيّة في استكناه ما في أعماق النّص الّذي تحلّلينه، كيف تشكّلت لديك هذه الطّاقة الخلّاقة، وأنت تسبرين عميقاً ما تدرسينه، كأنّك على علاقة وطيدة مع فضاء المبدع الّذي تدرسينه؟!

أنطلقُ من مبدأ الإخلاص في النّيّة، فحينما أقتربُ من عملٍ إبداعيٍّ ما، يعنيني جدّاً أن أمنحهُ وصاحبَهُ أو صاحبتَهُ كلّ الوقت الّذي يستحقّهُ، وقد يتطلّب الأمر شهوراً، وربّما سنة أو سنتيْن. لأنّ ذلك يعني قراءة أعمال هذا المبدع أو ذاك في شموليّتها من أجل كتابة دراسة معيّنة. وكثيراً ما أفكّرُ أنّه كما أحبُّ أن يتعامل الآخرون مع تجربتي الإبداعيّة، عليّ أن أتعامل أنا أيضاً بالعمق والجهد المطلوب في العمل والبحث. وعلى هذا الأساس أرابطُ في صومعة أديبٍ ما لفترة معيّنةٍ من الزّمن أحيط فيها بالعديد من المصادر والمراجع الّتي تفيد في مادّة البحث من أجل أن يأتي عملي مقمّطاً بالمحبّة والبهجة والفرح. وهو الأمر الّذي لم أجده مع كامل الأسف في الأدباء أو الباحثين الّذين طرقوا باب حرفي: معظمهم كتبوا في نصّ واحدٍ أو نصّين من نصوصي العديدة، دون أن يطّلعوا ولا أن يقرأوا دواويني ولا مجاميعي القصصيّة ولا حواراتي ولا ترجماتي ولا أيّ شيء من هذا. ولليوم مازلتُ أتذكّرُ واحداً منهم أبدى نيّته في الكتابة فبدأ بمقالة ثمَّ مقالتيْن، وبعد ذلك طرح سؤاله الّذي كنتُ أنتظره منذ البداية قائلاً: ((ما الّذي ستفعلينه دكتورة بما أنا بصدد كتابته عنك؟)) وللتوّ عرفتُ أنّ مِن وراء اهتمامه طمعُهُ في نشر ما كان بصدد كتابته ضمن كتاب أتكفّلُ أنا بطباعته. هكذا تجري الأمور، دائماً ينتظرون مقابلاً لما يفعلونه، وحينما ترفضين بلباقة أسلوبهم الفجّ تتوقّف الكتاباتُ فجأة، والّتي غالبا ما تكون هشّة وضعيفة ولا تستحقُّ كلّ هذا الضَّجيج والغبار. لكنَّني أعذرهم في كلّ الأحوال، فسوق الإنترنيت والفيسبوك عوّدَهم على هذه الأشياء، والكاتباتُ اليوم يشترين من يكتبُ عنهنّ ويدفعن لدور النّشر لتنشر المديح والنّفخ والتّطبيل. يا لهذه الثّقافة يا إلهي ويا لأهلها الّذين دنّسوا كلّ شيء:

((إلهي،
حينمَا خرجتُ مِنْ بيضةِ حرْفِكَ
تخاصمتْ حُروفُ النّقدِ بشأني
وكثُرَ لغَطُهُم حَولِي
وبدأ كلُّ واحدٍ منهُم ينظُر إليّ
تارةً بعينِ الخوفِ
وتارةً بعينِ الشَّكِّ والتَّرقّبِ
وتاراتٍ أخرى بعينِ الفتنةِ والحسدِ
(٢)
إلهِي،
الآنَ وقدْ قامَ كبيرهُم منْ على كُرسيّه
مُدجّجاً بنظريّاتهِ الجذّابة العَجِيبَة
وبقلمِهِ الفضيّ ونظّاراته الطّبِّيّة الأنيقة
ومسطرَتهِ السَّوداء
فما الَّذي يا تُرى سيقولهُ لهُم؟
(٣)
هذهِ قصيدةٌ جديدة، لا عهدَ لي بحرفِها
سأسألُ عنْها "فرديناند دي سوسير"
و"تزيفيتان تودوروف"
وقد أعرضُها أيضاً على "جاك ديريدا"
و"أومبرتو إيكو"
قال النّاقدُ الأكاديميّ
ثمّ نفضَ يديهِ منْ غُبارِ المكتب

وهُو لا يعرفُ حتّى من يكونُ
"دي سوسير" ولا "تودوروف"
(٤)
إلهي،
أهذا الذي سيقرأ حُروفي؟
ألا يوجدُ أحدٌ غيرهُ
إنّ أبياتِي لتبكِي بدلَ الدّمع دماً
أما منْ حرف آخر؟
(٥)
سمعَ بُكائِي ناقدٌ آخر
ثمَّ قامَ مِن على كُرسيّهِ الخشبيّ
وشمّر عن ساعدِ الجدّ
ثمَّ قال:
لا يا سَادتي،
هذه ليستْ بقصيدةٍ جديدة
هذا حرفٌ فاتنٌ يحتاجُ للغةٍ من نوعٍ آخرَ
سأسألُ عنه أخي الجاحظ وابن رشيق القيرواني
ثمَّ أتدارسُ شأنَه في الغدِ القريبِ
مع صاحبي الجرجاني وابن جنّي
(٦)
إلهي،
ما شأنُ هذا الرّجل بي
فقد ارتعدتْ فَرائصِي خوفاً منهُ

أعْني من نظرةِ الشّبقِ في عينيْه
فأنا أعرفُها جيّداً
إنّهُ يركضُ وراءَ العسلِ الأسودِ
قُلْ لهُ أن يخرجَ من محرابكَ
فإنّهُ حرفٌ كذّابٌ أشِر
لا هُو يعرفُ شيئاً عن البيان والتّبْيينِ
ولا عن كتابِ الخَصَائصِ
(٧)
خرجَ الحرفُ الكاذب
ودخل الحرفُ الطّائفيّ السّاحرُ
يرتدي جُبّةً خضراءَ
وفي يدهِ سبحةٌ سوْداء
نظر إليّ بعينٍ ماكرةٍ زرقاء
ثمَّ صرخَ قائلاً:
يا سادتي
هذهِ ليستْ بقصيدة
إنّها امرأةٌ كاهنَة
تكتبُ الطّلاسم
وتجيدُ نقْش الرّقع والجَداولِ
آتوني باللّبان والحرملِ
والشّبّ وملح البحْرِ
ولا تنسوا الجمْرَ وسَوْط النُّطق
فإنّي لجالدُها وجاعِلُها اليومَ تنطقُ

وترسمُ لكُم خريطةَ كنوزهَا

(٨)

إلهي،

ما العملُ الآن؟

فأنتَ تعلمُ أكثرَ منّي ألّا أمانَ للسّحرة

ولا رحمةَ في قلوبهِم

فلهمْ في كلِّ ساعةٍ قول

ولن يُجيدَ أحدٌ منهُم قراءَتي

ليتكَ تطردُهم منْ رحمتكَ يا إلهي

(٩)

خرجَ السّاحرُ مذموماً مدْحوراً

ودخلتْ هذه المرّة امرأةٌ حسنَةُ المَظهر والمبْسمِ

تكرهُ الشِّعْر والشُّعَراء

وَقالتْ بتأفّف وغرورٍ:

ما لنَا وقصائدُ الصّوفيّة

ألا تعلمونَ يا إخوتِي

أنّهُم مَجانين ومَرْضى نفسيّون

يعانُون مِن الوحدَة والإحباطِ

ويتخيّلون أشياءَ ما أنزلَ الله بها من سلطانٍ؟

(١٠)

إلهي،

دعْ هذه المرأةَ هُنا

فقد أعجبنِي قولُها،

فهيَ أوّل من اعترفَ بي
وسطَ حشدِ النّوْكى هذا
أيْ نعمْ لم تُحْسِنِ التّعبيرَ عمّا يجولُ بخاطِرها
ولكنّها على الأقل نَعَتَتْنِي بالقصيدة الصُّوفيّة
وغداً ستشرقُ شمسُها
وستكونُ أوّلَ من يكتبُ عنْ حرفِي
(١١)
إلهي،
الآنَ وقد طردْتَ حتّى المرأة النّاقدَة
وقُلتَ إنّ في قلبِها حقداً وحسداً
وإنّها سَتلوِي عُنُقي
ما إن تشمّ رائحةَ الشّمس فيَّ
وتراودُ أَلِفِي الأحمرَ عن نفسِه
كلّما رأته يعانقُ بينْ أبياتي نقطتِي البيضَاء
فإنّي لديّ اقتراحٌ آخر
(١٢)
إلهي،
ضَعْنِي وسَطَ إزارٍ أبيض
واجمعْ كبارَ أهلِ النّقْد حولِي
واجعلهُم يجْرون القُرعَة فيما بيْنهُم
وليُلقوا بِأقلامِهُم في مَاءِ حرْفي
ومن سَار قلمُه ضدّ التيّار
فهُو الغالبُ

(١٣)

إلهي،

يا للمفاجأةِ العظيمةِ

أهِيَ هذه الطّفلةُ الخجولةُ الّتي سَتَقرأنِي،

أهيَ الّتي ستَفُكُّ رموزي وأسرارِي؟

شكرا لكَ يا إلهِي

على نِعَمِكَ الّتي لا تُعدّ ولا تُحْصَى

فإنّي أرى في قلبِهِا آدم وإبراهيمَ ونوحاً

وموسَى وعيسى ومريمَ

ثمّ محمَّدَاً وعليّاً

وفاطمَة والحسنَ والحُسينَ

دعْها إذن تتحدَّثُ عنِّي:

(١٤)

يا سَادَتِي،

إنّ هَذه ليستْ بقصيدةٍ فقط:

إنّها فردوسٌ منَ الشّمُوس والأقمَار والكواكبِ

إنّهَا محيطٌ أخضر ونوارسُ بيضٌ

بلْ قلبٌ صبٌّ متيّم

وأشجارٌ مِنَ المنّ والسّلوى

إنّها أنتَ يا إلهي

قالتِ الطّفلة بلسانٍ ألثغ

ثمَّ غاصَتْ في محيطِي الأخضَر

أنا القصيدة الذَّهبيّة.)).

٦٩) أدعو كل مبدعي ومبدعات هذا العالم إلى تأسيس مؤسّسات وهيئات دوليّة لرعاية السَّلام وفرضه على كل دول العالم، وتحقيقه عبر هيئات ومنظّمات دوليّة بقوَّة القانون، ما رأيك بهكذا دعوة وهكذا تطلُّع؟

سيستخفُّ بكَ أهلُ زمانك أيّها الكريم، وسوف يتظاهرون بموافقتكَ على دعوتكَ هذه، وحينما تصبح الأمور أكثر جدّيّة سينسحبون ويتفرّقون من حولك. لا أحد يعنيه السّلام في شيء، وهُم معذورون في ذلك لأنّ ضنك العيش، والفراغ الرّوحي الّذي يعيشون فيه أقوى من تطلّعكَ ومَا تطمحُ إليه. قد تجدُ بعض المخلصين، لكنّهم قلّة أمام كثرة. نقطة من نور في بحر من ظلام، قطرة محبّة في محيط من الحقد والكراهيّة. وقد تنجح في البداية لكن النّهاية واحدة، اسأل عنها المسيح ومحمّداً وعليّاً والحسين. مازال الإنسان يرتكبُ نفس الأخطاء، لأنّه هو نفسه خطأ يتكرّرُ باستمرار، لا هو عرف الشّجرة، ولا ذاق الثّمرة، إنّه مازال يشربُ من البحر، ويقول يا لعذوبة هذا الماء، وكلّ يوم يزداد عطشه وحرمانه وألمه وتعاسته، وكلّ يوم يُنكرُ النّورَ وأهلَه وسعيَهم إلى السّلام والوئام ولأجل هذا أقولُ لهذا الإنسان الضّائع التّائه:

((حينمَا جلسَ يسوعُ إلى المائدةِ
لمْ يكنْ ذاكَ عشاءَه الأخير
وإنّي حقّاً لا أعرفُ لماذا تصرّونَ إلى اليوم
على إشاعةِ هذه الكذبة الكبيرة
أَلَمْ يكْفِكُم ما فعلَهُ بهِ الفريسيّون؟!
هيّا، قُمِ الآنَ يا يهوذا وانطقْ بالحقيقة؛
قُل لهُم إنَّ المائدةَ لمْ تزَلْ منصوبةً
ويسوع لمْ يَزَلْ جالساً إليْها!

*

أعلمُ جيّداً أنّكَ لنْ تفعلَ ما آمُرُكَ بهِ
فمازال رؤساءُ الكهنةِ يشترونَكَ كلَّ يومٍ
بثلاثينَ مِنَ الفضّة!
وإن كنتَ تُنْكِرُ هذا أيضاً فقُلْ لي إذن:
مَنْ قطّعَ جَسَدَ جدّي رَعْ
ورماهُ للكلابِ في كلّ أرضِ مصر؟
ومَنْ ألقى بيوسُف فِي البئر،
ومَنْ سرقَ قصورَ أمِّي نفرتيتي،
ومَنِ استولى على شجرةِ مريم؟
بلْ مَنْ قطَعَ رأسَ أخي يحيى،
ومَنْ بَاعَ أرضَ الكنعانيّين إلى الذّئابِ،
ومَنْ أشعَلَ فتيلَ الحروب في بلاد آشور وسومر
أَلَسْتَ أنتَ منْ فعلتَ
ومازلتَ تفعلُ هذا كُلَّ يوم؟
*
عبثاً تستمرُّ في الكذب يا سمعان
فالمائدةُ منصوبة شئتَ أمْ أبَيْتَ
ومازال يسوع حيّاً يُرْزَقُ بَيْنَنَا
شِئْتَ أمْ أبَيْتَ
والعشاءُ مازال هُوَ هُوَ لا حَمُضَ ولا تعفّنَ
فعلومُ الحقّ لا تحمُضُ، ولا تجفُّ أنهارُها أبداً
وهيَ وحدها خبْزُنَا وعسلُنا وخمرُنا
ولبَنُنَا الّذي بهِ نُذْهِبُ ظمَأنَا

ومائدتُنا إنْ كنتَ لا تعرفُ
هي جسدُنا وأرضُنَا وسماؤنا الوهّاجة
ويسوعُ مازال يؤَذِّنُ فيهَا
قائماً بكلمةِ الحيّ القيّوم الدّيمومي الأزليّ
ومريمُ مازالتْ تُرَفْرِفُ حولنا تُضَمِّدُ جراحَنا،
وتمسحُ دمعَنا وتُشْعِلُ شموعَ المحبّة في قلوبنَا
شئتَ أمْ أبَيْتَ
ولتذهبْ أنتَ ومَنْ معكَ إلى الجحيم
وخُذْ معكَ هواتِفَكَ الذَّكيّة ومحطّاتكَ الفضائيّة
وأقمارَكَ الصّناعيّة وجواسيسَكَ الآليّة
وحروبَكَ البيولوجيّة
ولا تنسَ قبلَ هذا وذاكَ،
أنَّني مازلتُ جالسةً إلى المائدة
أحملُ الشّمسَ فوقَ رأسي
وأشربُ مِنْ عطرِ أبي يسوع
وآكلُ مِن خبزه الحيِّ الَّذي لا يموتُ أبداً
شِئْتَ أمْ أبَيْتَ!))

***

٧٠) كيف ممكن أن يحقّق الإنسان صوتاً موحّداً مع بني جنسه المجنّح نحو السَّلام ويطلق موقفاً واحداً لإغلاق معامل السَّلاح كي ينقذ البشريّة من كلِّ هذا الخراب والدّمار، ونحن في القرن الحادي والعشرين؟!

سيفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم ودون أن يطلب منهم أيّ أحد القيام به، ولكن ليس الآن لأنّهم جميعهم، هؤلاء الكبار منشغلون بالاستعداد إلى الحروب القادمة، اطّلع على أخبار التّسليح والتّسلّح والاستعدادات العسكريّة، والتّقنيات المتطوِّرة جدّاً في عالم السِّلاح والجيوش الّتي ستصبح إلكترونيّة أكثر منها بشريّة، وسوف ترى أنّ الجميع يستعدّون إلى شيء يفوقُ كلّ خيال وتصوّر. لكنّهم سيفيقون من غفوتهم وسكرتهم هذه بكبسة خاطئة على زرّ خطأ في مكان خاطئ أيضاً وسينفجرُ كلّ شيء وينتهي الإنسان بكارثة حقيقيّة أكبر حجماً وبشاعة ممّا حدث في هيروشيما وناكازاكي. بالكوارث فقط يستيقظُ الغافلون، بالأخطاء الفادحة الّتي غالباً ما تنتج عن شدّة ثقتهم العمياء بالعلم والتّكنولوجيا. عندئذ فقط سيفكّرُ النّاجون في السّلام، في الأمن والأمان، وفي إعادة تركيبة تفكير هذا الإنسان، وسينتبهون إلى أنّه ذات يوم كان هناك من النّاس من ينادون بالسّلام وينشرون فكره في كلّ الأصقاع لكن لم ينتبه إليهم أحد، نعم سينتبهون إلى ما كنّا نكتبه ونقول، بعد أن يكون قد فات الأوانُ، واحسرتاه!

***

٧١) من أينَ تستمدّينَ شعركِ، كيفَ تكتبينَ نشيدكِ وتترجمينَ ما يعتري في مخيالك وتجلِّيات روحك؟!

من أسفار روحي وتحليقها في ملكوت البهجة والفرح. من لقاءاتي مع إخوتي في النّور. من سعيي نحو البشر، نحو الطّير والشّجر والحجر، نحو الماء والنّار، والتُّراب والهواء. من حركتي في الكون طلوعاً وهبوطاً ودوراناً أفقيّاً تارةً وعموديّاً

تارات أخرى. من سباحتي في حليب المجرّات، ومنّي أنَا الشّعر والشّاعرة، أنا الكاتبة والمكتوبة، أنا القارئة والمقروءة. فالشّعر سرّ الأسرار ولا بدّ له من سرير يتمدّدُ فوقه الفكر، ليرى بعيون البصيرة من يكون هذا الشّعر حقّاً وحقيقة والذّي أقول له هنا في هذه الأبيات بلسان المحبّة والعشق:

((حينما تكونُ معِي
فوقَ سرير الدَّهْشَةِ
يتحوّلُ قلبِي
إلى شجرةٍ بيضاء
مشتعلة بالحروف والأسْرار
ويُصبحُ عقلي
سماء خضراء
متوهجّة بالنّقاط والدّوائر
وأنتَ وأنَا فيها
شمسٌ ذهبيّة
تسجدُ لها الكواكبُ
والنّجومُ الفضِّيّة
نعم،
كلُّ هذا يحدثُ
حينما تكونُ معي
وربّما أكثر؛
بالأمسِ مثلاً
تبرعمَ السِّرُّ نخلةً بينَ عينيّ
وبين يديْه آلةُ هارمونيكا حمراء

عزفَ لي بها
حكايتَكَ معي
أيُّها البحرُ والفجرُ
والسِّحْرُ والحياة.
أيكفيكَ هذا،
وأنتَ ترافقُني كلّ يوم
فوقَ سرير الحرفِ
وتقولُ لي عندَ كلّ سَحَرٍ
إنّكَ أنتَ الوحيُ
وأنا الزّمنُ الماضي
والحاضرُ والمستقبل؟!
أيكفيكَ هذا
وقد بِتَّ رفيقَ أبجديّتي
أكتبُ بكَ أيّها الشِّعْرُ النّثرَ
وأقرأُ بكَ كتبَ الأجدادِ
وأفكُّ بكَ طلاسمَ منْ مضى
ومن لمْ يأتِ بعدُ،
أمْ تُراكَ مازلتَ لمْ تعرفْ
أنَّكَ أنتَ السّرُّ حقيقةً
وأنا السّريرُ منذُ الأزل؟!))

***

٧٢) **هل تدفُّق الشّعر أقرب من انبعاث الحلم ـ الرُّؤيا، منه إلى تجلِّيات الخيال، أم ينبعث من كليهما معاً؟**

الشّعرُ الحقُّ هو الرّؤيا، وقد يكونُ في بعض الأحيان قاسياً، ويضع الإنسانَ أمام المرآة بدون مساحيق ولا رتوش، ليُريَهُ أينَ هو وإلى أينَ يجبُ الذّهاب. الشّعرُ الحقّ كتابة بالمِشرط، ينكأ في كثير من الأحيان جراح الذّاكرة الكونيّة وكما قد يحملك إلى الجنّة، فإنّه يقذف بك أيضاً بدون رحمة ولا شفقة إلى الجحيم. ليواجهك بمازال مظلماً فيك، ويدعوكَ إلى تطهيره ومعالجتِه من أجل ولادة يوميّة جديدة:

((لطالما تساءلتُ
منذ طفولتي البعيدة
منْ هُو الشِّعرُ،
وما شكلُه وما رائحتُهُ وطعمُهُ؟
لكنّي ما كنتُ لأصدّقَ يوماً ما
أنّه سيطرقُ بابي
حقّا وحقيقةً
فأنا كبقيّة الشّعراء
كنتُ أحسبهُ مجرّد قصائد
تتنزّلُ من سماء الزّخ
أبوحُ فيها بمكنوناتي
وأطرحُ فيها قضايا
تنزعُ النّوم من عينيّ،
لكنّهُ زارني
ورأيتُهُ أخيراً
وجهاً لوجه:

مَلَكًا ذو حُسنٍ فاتن
في وجهٍ صارمٍ
وله تاجٌ تُرصّعُه
أحجارُ الزّفير الأزرق والبنفسجيّ،
وعيونٌ سودٌ كحيلة
برموش صقيلة
تُزَخْرِفُها خطوطٌ من الذّهب الخالص،
وجسدٌ بثوبٍ أبيض برّاق،
ويدٍ بيضاء
تحملُ بِجدّيّةٍ متناهية
ريشةً حمراء ولوحةً سوداء.
أربكني كثيراً
هذا المنظر الملكيُّ
وهاهُو الآن سيّدُ الشّعرِ
يقول لي بنظرةٍ خارقةٍ
أنِ ارسمْ حرفَكَ،
وحينما انتهيتُ صعَقَتْنِي لوحتي:
لقد كنتُ فيها مَلَكاً بتاجٍ مُضيء
وقَدَميْنِ مبتورتيْن
وبطنٍ مبقورٍ
وثديٍ مقضومٍ
وفرسٍ جريحةٍ إلى جانبي
تنزُّ منها الدّماءُ فوق سرير السِّرِّ.

إنّها حكايتي:
قائداً آشوريَّاً أخذَ جيوشَه الجرّارة
إلى ساحة الوغى والحرف
وقبلَ الحربِ وقفَ ليُلقيَ بين جنوده
آخرَ القصائد في العشقِ والسّلم والسّلام
ثمَّ عادَ معهُم بنصرٍ مبين،
يا لوحشيّة الشّعرِ والقصيدة
ما أصدقَهُما معاً
مرآة، رأيتُ فوقها من أكونُ
وكيفَ أصبحتُ،
هذا كل ما في الأمر!)).

***

٧٣) كيف تسترجع الذَّاكرة ما هو في خضمِّ الذّاكرة البعيدة ومتناثر مثل الغمام في متاهات الخيال؟!

من رحمة الله بالإنسان أنّ هناك شيءٌ اسمُه النّسيان. نعم لا بدّ من النّسيان، وإلّا فإنّ المرء لنْ يعرفَ كم من الذّكريات عليه أن يتذكّر، وكم من الحيوات عليه أن يعرفَ. لا بدّ للبرازخ أن تفصلَ بين عهْد وعهد، وإلّا فالويل للإنسانِ ممّا قد تكشفه الذّاكرة الكونيّة. ما كلّ ذكرى فيها فرح ومسرّة، وما تاريخ الإنسان إلّا تاريخ بكاء ودموع وآهات بما اقترفته أيدي النّاس بسبب الجهل المتوارث عبر الأزمنة والعصور:

((حينما وصلتُ إلى المدينة المنحُوتَة فوقَ الصّخر الأحمَر
وجدتُ في انتظاري ناقةً سوداء

قالتْ إنّها أختي في الطّريق
وحينما فكَكْتُ قيْدَها واعتليْتُ ظَهْرَها
أخذتنِي إلى المعبَد الأخضر العتيق
ثمَّ وقفتْ عندَ بابهِ وقالتْ:
ادخلي آمنةً
واسألي حرّاسَه
يدلّوك على فوهةِ السّعير
دخلتُ وما وجدتُ سوى مَلِكٍ
حينما رآنِي عرَفَنِي
وسلّمَنِي صولجانه الفضّيّ وقال:
ادخلي ولا تتأخّرِي.
آآه يا إلهي
في سعيرِ الصّخرةِ الحمراء
وجدْتُ ثلاثَ قاعاتٍ
كلُّ قاعة بحجْمِ الدّنيا
لم أقف كثيراً في القاعة الأولى
فلمْ يكنْ فيها سوى بضعة فتيانٍ
يلعبون ويمرحون
لذا، دخلتُ إلى القاعةِ الثَّانية مباشرةً
وفيها رأيتُ العديدَ من النّساء
فطفقتُ أملأُ الجِرَارَ بالماء البارد
وأصبُّه عليهنَّ وهنّ عاريات
يشكينَ الحرَّ والعطَشَ

ويألمْنَ من شدّة العذاب
وفي القاعة الثّالثة
– وكانت حاميَةً جدّاً –
وجدتُ الرّجالَ عُراة حُفاة
يغسلون أجسادَهُم بالرّصاص
ويضربون النّساءَ بالنّساء
وفي غرفةٍ مُنزوية
سمعتُ بعضَهُم يَسْتَمْنُون
ولهُم شهيقٌ وزفيرٌ وزئير؛
لَمْ يَرَنِي أحد
وكانَ كُلّ ما فعلتُه أنْ فتحتُ شلّالَ المعبدِ
وتركتهُ يجري بالمَاء البارِدِ
فوقَ أرضِ الرّجال
ثمّ خرجتُ وفي قلبي ألَمٌ شديد
والنّسَاءُ يسألنَنِي:
ماذا رأيتِ يا سيّدة؟
ماذا رأيتِ؟
فتلكَ قاعةٌ لمْ يسبِقْ لأحدٍ أن دخلَهَا
سواي،
يا إلهي لطفكَ بالعباد
وافتح من عندكَ كلّ الشّلّالات الباردة
لتغسلَ ما على أرض النّيرانِ
من زفير، وزئيرٍ وشهيق

ولتُطْفِأ كلّ هذا السّعير؛
سعير القلوب والأرواح الَّتي لا تنامُ أبداً.)).

***

٧٤) كيف وصلتِ إلى حالةِ صفاءٍ ذهني، وقدرة فائقة على تحصين الذَّات والرُّوح من مغبّاتِ الحياة؟!

ومن ذا الّذي يستطيعُ أن يُحصّن الرّوح من مغبّات الحياة؟! هي دعوة إلى الأرض استجبْنا لها لا عن طيب خاطر، وإنّما جُبِرنا ولمْ نُسْتشَرْ. وكلّ ما يُمكنُنَا أن نفعلَهُ هو أن نحاول ما أمكن أنْ نكون من أهل الله، علّنا نسلمُ من شرٍّ مُستَطَر. يا إلهي كم في الحياة من حياة، كي نحافظ على صفاء الذّهن والقلب، وأين السّبيلُ إلى ذلك في زمن يتجسّسُ فيه الكلُّ على الكلّ، والقلوب طافحة بالأحقاد ومستعرة بنيران الغضب والكراهيّة؟! إنّنا نحاول يا مولاي، أن ندخل كهف العزلة والخويصة، ونصدّ الرّيح بالنّور والحقّ، لكن منْ يترُكُنا وحالَنا، من يتركُنا لاختياراتنا، الكلّ مصرّ على أن يطرق أبوابَنا، ويغرفَ من مائنا، وما العمل والبحر من خلفنا والنِّيران أمامنا: ملحٌ سامٌّ ولهب حارقٌ في كلّ مكان، والدّنيا لمن لا رحمة ولا شفقة في قلبه يا مولاي، أمّا نحن فقد خاصمناها منذ زمان ولا ننتظر سوى نفخةِ الصّور، ووقوف إبرة الميزان، فهل ستعتبر يا إنسان؟!.

***

٧٥) عندك ثقافة موسوعيّة روحيّة دينيّة وفكريّة وأدبيّة، هل رؤيتكِ الموسوعيّة قادتكِ إلى مرامي السَّلام؟!

ثقافتي موسوعية حقّاً، لكنّها لا تعني شيئاً في ميزان العلم اللّدنيّ. قرأتُ كثيراً وبغزارة وفي كلّ مجالات المعرفة، لكنّني لن أصل إلّا بعد أن أفرغ ذاكرتي الكونيّة ممّا حشوتُها به طيلة هذه السّنوات. اطّلاعي على الكثير من الكتب أفادني في التَّعرّف على كيفيّة غربلة المعلومة والاكتفاء بالذّهب الخالص منها، وساعدني أكثر على أن أعرف أنّه إذا كنتُ أريد أن أفهم ديني مثلاً، فعليّ أن أطّلع على بقية الأديان وما كُتب فيها من علوم وشروح وفلسفة ولاهوت، وهكذا بالإبحار في الكلّ يمكنُكَ أن تخلُصَ إلى خميرة العلم، والّتي بها يمكنكَ أيضاً أن تلج إلى العوالم الدّاخليّة، والإبحار بالتّالي في العلوم اللّدنيّة كلّ على حسب عزيمته وعلوّ همّته. ومع ذلك فإنّني أقول دائماً إنّني مازلتُ عند الشّاطئ، ومازالتْ قدمي لمْ يُبلّلها ماءُ العلم الحقّ بعْدُ.

***

٧٦) لكِ طقوس في الكتابة تنمُّ عن تشرُّبٍ روحاني عميق، كيف تشكَّلَ هذا النُّزوع الوئامي معَ الكون؟!

الكتابة خبزي اليوميّ، وهي لا تحتاج منّي إلى أيّ طقس أو تحضير، إنّها بداخلي تتدفّقُ باستمرار، الشَّيء الوحيد الّذي لا بدّ من توفُّره لكي يحدث فعل الكتابة عندي هو الصّمتُ: لا موسيقى، لا ضجيج، لا شوارع ولا أيّ شيء من هذا القبيل. الصّمت ثمَّ الصّمت. لأنَّني أنا نفسي صمتٌ مطلق، وحينما أكتب أضع الحقائق، وأتواصل مع ذاتي الوجوديّة، وأغرف الحرفَ من بئر الأبجديّة صافياً زلالاً، حييَّاً وكثير الخجل أيضاً، كطفلة تطلّ على العالم من وراء حجاب، وتنثر ياقوتها ولآلئها ثمَّ تمضي على عجل لا تلتفتُ إلى أحد.

٧٧) **إذا كلّ إنسان انطلق من ذاتِهِ وكان مسالماً ونشرَ ثقافةَ السَّلام، سيعمُّ السَّلام في العالم، أليس كذلك؟**

ليسَ إنسانُ السّلام من يدعو إلى السّلام والوئام مع البشر والطّبيعة فقط، ولا هُو المسالمُ مع نفسه ومع الآخرين، ولا هو ذاك الّذي يعارضُ الحرب؛ إنسان السّلام هو قبل هذا وذاك الرّجل الّذي وصلَ إلى حالة الصّمتِ المُطلق بعد سفر روحيّ عميق وطويل، إنّه يُشبه بحيرة كبيرة صافيةً صامتة، لا يُعكّرُ صفوها شيءٌ أبداً، وهو يُشيع من حوله بصَمتِه هذا طاقةً جديدةً للحياة، ويغنّي أنشودة جديدة للنّقاء والطّهارة والصّفاء، لأنّ حياتَه بركةُ البركات، صلاة ودعاء مستمرَّيْن، إنّه مُشاركٌ للمحبّة على أوسع نطاق، حتّى أنّ أيّ إنسانٍ قد يجلسُ معه ولو للحظات قصيرة يُمكنه أنْ يشعر بالأمان، وبالسّلام، لأنّ طاقتهُ تخترقُ أجساد وأرواح من حوله. إنسان السّلام رجل مبدع بامتياز، خلّاق وعاشق. وحينما قلتُ أنّهُ لا يُمكنه حقيقة أن يكون ضدّ الحرب، فإنّي قصدتُ بذلك أنّ كلّ رجل سلام هو في الحقيقة إنسان يعرفُ جيّداً لماذا توجد الحروب، وهو بوعيه هذا يُصبح ممتلئاً بالسّلام. تخيّل معي لو لدينا أكثر من رجل وامرأة من هذا النّموذج، أيْ من نوع البحيرة الصّامتة، فإنّ العالم كلّه سيتغيّر، والحروب ستختفي بشكل تلقائيّ وإلى الأبد. فقط بتعدّد هذا النّوع من النّاس يمكن إحداث التّغيير المطلوب، لأنّ كلّ طاقة الوجود ستتجّه من خلالهم نحو الحبّ والعشق. لذا فإنّي أقول إنّه بدل أن تتوجّه العلوم إلى مَكْنَنَةِ العقل البشريّ، وتحويله إلى عقل آليّ، فإنّهُ من الأفضل السّعي إلى تطوير هذا العقل وتفجير طاقاته الكامنة وتوجيهها نحو علوم السّلام الّتي بها بلغَ أجدادُنا الأوائل عنان السَّماء: انظروا إلى الفراعنة كيف كانوا، والآشورين والسُّومريين، انظروا إلى أمجادهم وعلومهم السِّرّيّة الّتي دمّرتها الحروب فيما بعد ولم تترك لنا منها شيئاً لننتفع به. على الجامعات أن تُحدِثَ ثورة في التّعليم، وبدل غسل أدمغة الطّلبة بالعلوم الّتي تسلبهم عقولهم وتزيدهم ضياعاً وهوساً وجنوناً وعطالة وبطالة،

فإنّه من الأفضل التَّوجّه نحو البناء الدّاخليّ للعقل والقلب والرّوح، ليتمَّ خلقُ نماذج من أفراد تُصبح لديهم القدرة على إشاعة السّلام وطاقة المحبّة في العالم بل في الكون بأسره بشكلٍ ذاتيّ خلّاق.

***

٧٨) عندما تترجمين، أو تحلِّلين نصَّاً، شعراً، روايةً، تبحرين في أعماقِ الحرفِ كمَن يبحثُ عن الدُّررِ المتناثرة في فضاء الكتابة، ما هي الأسس الّتي تنطلقينَ منها أثناء ترجماتك وتحاليلك النّقديّة؟!

هذا سؤال سبق وأجبتُ عنه في الجزء الأوّل من (رحلة المئة سؤال وجواب) وبالضّبط في الأجوبة رقم (٢٠ /٢١ / ٢٢ / ٣٥ / و ٣٩). إلّا أنّني هنا سأحاول التّطرّق إليه من زاوية أخرى، وعليه أقول إنّني قد نضجتُ كثيراً خلال هذه السّنوات الّتي قاربتُ فيها أبجديّة العديد من المبدعين سواءً عبر التّرجمة أو النّقد، وأصبحتُ أدقّقُ جدّاً في اختياراتي، وتجاوزتُ مرحلةَ الكتابة والتّرجمة للعديد من الأدباء بمن فيهم أولئكَ الّذين حقّقوا انتشاراً معيّناً عبر فضاء الإنترنيت الواسع، لأدخلَ إلى مرحلة أخرى أشدّ عمقاً وسبراً وتنقيحاً، ويمكنني أن أصرّح في هذا الصّدد وأقول إنّ الكنوز الحقيقيّة يُمكن اكتشافُها في عالم لا يمتّ بصلة إلى الإنترنيت أو الفيسبوك أو غيرهما من وسائل التّكنولوجيا والمعلوماتيّة الجديدة. فهناك وبعيداً عن كلّ هذا الزّخم والضّجيج من الأسماء الّتي تتغلّف برداء النّجوميّة والبهرجة المزيّفتَيْنِ، أدبٌ وفنٌّ أكثر جدّيّةً وإبداعاً وتفرّداً، وإليه بدأتُ منذ فترة أوجّه بوصلتي بكلّيّتي لأغوص في فَرادته وندرته بمحبّة الخيميائيّين، ويقين العارفين.

***

٧٩) ماذا يعني لكِ الرّسم جنباً إلى جنب مع الحرف، متى ترسمين، هل ترسمين بحثاً عن تجلّيات الرّوح؟

الرّسم كتابة باللّون، جراحة بمشرط المحبّة، غوص في الأكوان الدّاخليّة، عيادة للتواصل مع كينونة الإنسان والحيوان والنُّجوم والأجرام. إنّه سفر الأسفار الكبرى، ولا يعنيني فيه التَّكوين الأكاديميّ لأنّني ممّن دخله من باب الفطرة، وليس من باب المدارس الفنّيّة. إذ كلّ ما أقوم، هو أن أحمل ريشتي وأرسم ما تمليه عليّ كينونتي وما أراه متبرعماً فوق تراب قلبي المدهام وسماء روحي الخضراء من أسرار. هذا كلّ ما في الأمر. لم أدرس الرّسم في أيّ مكان، والطّبيعة أمّي، وأكواني الدّاخليّة أكاديميَّتي. ومرشدي الرّوحي وأستاذي ومعلّمي الأوّل، هو قلبي المبصر بنور المحبّة. إنّني في تطوّر مستمرّ، ولا يهمّني أن يدرسني النّقاد، لأنّني أنا اللَّوحة والفنّان، وأنا المرسوم والمرسوم له، وأنا اللّون والخميرة، وأنا الثَّوب والرّيشة، وأنا المتلقّي والمبدع، وإذا ما رسمتُ أيّ شيء فإنّني أحاور وأخاطب به نفسي، لأرى في المرآة روحي وأعرف من أنا، وإلى أين أنا ماضية، ومن أين أتيتُ، وما كلّ هذه العلوم والعوالم بداخلي: إنّني بإيجاز شديد، الإنسان: هذا الكائن الّذي حار فيه العلماء والعرفاء!

((باثنين يومٍ مَا
منْ شهرٍ ما
في سنةٍ ما
صادَفتْ عيناهُ عينَيْها
رآها ولمْ ترَهُ
خاطبَ قلبُه قلبَها
سمِعَها ولم تسمعْهُ
تقدّمَ خُطوةً نحوها، فرّتْ منْهُ

وأغلقتْ على نفسِها حُجْرة ألوَانِها
تقدّم خُطوة أخرى نحْوها
طَرَقَ بَابَها
مرّةً ومرّتيْن وثلاثاً
ولمْ تفْتحْ
عادَ أدراجَه حزيناً
يَحْمِلُها برُوحه، بعيْنه، وبقلبِهِ
*
مرّتِ السّنينُ طَويلة عَريضَة
ثمّ زارَها مرّة أخرى
في فجْر خَميسٍ ما
من شهرٍ ما
بسنةٍ ما
طَرَقَ بَابَها
سبْع مرّات فَفَتَحَتْ
رَفعَ إليْها عيْنيْهِ
فرآها فَراشة شفّافة هشّة،
رفعَتْ إليْه عيْنيْهَا
ورأتْه مَلاكاً وعَلى يَمِينِهِ
نَبَتَتْ ثلاثة أجْنِحةٍ
وفوْق يَسارِه ثلاثة أخرى
ووسَطَ ظهْره جَناحٌ سَابع
*

ابتسمتْ وابتسَم
سلّمَ وسَلّمتْ
قرأ الفَاتحة
قرأتْها من بعدِه ثلاثاً
أجْلسَها فوق سَريرها
وَضَع فوْق رُكبَتَيْهَا ريشةً
وقارورَةَ مِسْكٍ
وجرّةً من ألوان الطّيف
ثمّ سَكَبَ فوْق جَنَاحَيْها
فِضّة السّماء وزُمُرّد الأرْض
وقال لها:
"حَبيبتي هَذه أنتِ
هذه ألوانُك وكُنوزكِ الخَلّابة
فلا تتْرُكي أحداً يُدنّس رَبيعَكِ
فأنتِ فَرَاشَةُ الكوْن
يذْهَبُ لوْنُك إذا ما لمَستْكِ الأصَابِعُ
وَلا رِيشة بعْد ذَلكَ
يُمْكنُها أن تُعيد إليكِ
بهْجة القلبِ وطُفولتَهُ"
*
ودّعَها وطَار
ودّعتهُ وأغْلقتْ بابَ المَرْسَمِ
ثمّ خطَتْ خُطوة أولى نحو مرآة رُوحِها

تغْمِسُ ريشَة المَلاك في نُسْغ المِسْكِ
وترْسُم ما تراه مُتبَرْعِماً
فوق أرْض قلبِها النّدية
وتُرابهِ المُدْهَام.))

وهذه نماذج لبعض من لوحاتي

وما خلقت الجن

ASMA GHERIB

***

٨٠) ما هي علاقة صفاء وتجلّيات الرُّوح بالكتابة، هل تنعكس مكنونات الرّوح عبر الكتابة والتّرجمة؟!

لا علاقة للكتابة الحقّة بحالة الصّفاء أو الهدوء، لأنّ فعل الكتابة نفسه هو عبارة عن جرح أو فتقٍ كونيّ كبير في حالة نزيف مستمرّ. ومن يكتبُ يعرف هذا جيّداً. يعرفُ أنّ الأمر يستدعي حالةً من الصّمت العميق من أجل الإنصات إلى ألم الكينونة الوجوديّة وإيصال صوته إلى أبعد حدود. والكتابة الإبداعيّة حتّى وهي في أقصى حالات صمتها هذا، هي صراخ يدوّي في القلوب، إنّها تُعلنُ عن كلّ شيء، وتفضح كلّ شيء، طبعاً أعني الكتابةَ البِكر، الكتابةَ القادمة من البرِّيّة الّتي لم تطأها قدم مُستكشف بعد، تلك الضّاجّة بأصوات الأجداد، وأصوات من مضى ومن سيأتي، أصوات الكواكب، وأصوات الثّقوب السّوداء وهي تجرف إلى النّور كلّ نجم وكوكبٍ لتقوده إلى مدارات الضّوء الكثيف والنّور الفسيح.

لكي تكتبَ عليْك أن تكون ممّن يجيد الاستماع إلى صوت الكون، وإلى ذبذباته

واهتزازاته، وإلّا فإنّك ستكون كما هؤلاء النّاس المنشغلين بالكتابة عن حياة لا شيء فيها سوى أحداثٍ وقصص تتكرّر منذ اكتشف الإنسان الحرف. لكي تكتبَ عليك أن تعود إلى الكهف والحجر، إلى الطّين والشّجر، إلى البحر والطّير والمطر. عليك أن تعود إليكَ، وتترك الأبجديّة تفيض وحدها منك حبلى بالنّقاط والحروف، والمثلّثات والأوشام. عليكَ أن تعيد اكتشاف بيتك الأوّل، جسدكَ الّذي فيه تقيم، هكذا فقط يُمكنُك أن تشفى من آلامكَ، وهكذا فقط يُمكنُكَ أن تقول عن نفسكَ أنّك كاتبٌ، أديب ومبدع مقمّط بالسّلام والأمن والأمان:

((أربعون عاماً وأنا أمشي
تارةً تحتَ القيْظِ
وتارةً تحتَ المطر
الرّيحُ عاصفةٌ في رأسي
والجمرُ جبالٌ تأكلُ يديّ
والشّوكُ طريقٌ تحتَ قدميّ
وأنا وحيدة
في صحراء العطَش
أمشي والنّارُ شعلة بيْنَ عينيّ
لا شيء يُخفّفُ من ألمِي
سوى كوني أعرفُ مُسبقاً
أنَّهُ لا بدّ من كلّ هذا
كيْ تتجلّى لي أخيراً
أيَا جسدي
فأنا لا أعرفُكَ،
نعم، نعم،

دعْني من الصّورة إيّاها
هذه أعرفُها جيّداً
ففيكَ القلبُ والدّماغ
والعظامُ وأشياء أخرى ...
لكنّي اليومَ وقدْ رأيتُكَ حقّاً
وجدتُكَ خريطةً منَ الأوشام
من قمّة رأسي
إلى آخر إصبع في قدميّ
وهذا شيء جديدٌ عليّ،
المشكلة الآن
هو أنَّني مازلتُ إلى اللّحظة
أبحثُ عن مفاتيح خاصّة جدّاً
علّني أقرؤُكَ بها
أو أقفُ بهَا على أسرارِكَ
مُثَلّثاتُكَ كثيرة
ونجومُك كبيرة
ودوائركَ صغيرة
وفيك أشياء أخرى؛
خطوط الأنهار مثلاً
وتدويرات الجبال والأمواجِ
وفيك السّفن أيضاً
والنّسور والحمائم
والأسود والنّمور

والأحصنةُ والدّببَة
والذّئابُ والثّعالب
وأسنانُك يا إلهي كثيرة جدّاً
وجماجمكَ متفرّقة هنا وهناكَ
والمياهُ تحيطُ بك من كلّ مكان:
طرقٌ، أقبية
سماوات ودهاليز
من أين سأبدأ
وإلى أين ستأخذني
هذه الشّيفرات
الَّتي لا حدّ ولا حصر لها؟
جزيرةُ كنوزٍ أنتَ يا جَسدي
والقراصنةُ يشدّون الرّحالَ إليكَ
من كلِّ صوبٍ وحدبٍ
وأنا سفينة خضراء
تمخرُ عبابكَ صباح مساء
دون أن أصلَ بعدُ إلى السّرّ
سرّ الهو
ذاك الذي به سأفتحُ الغارَ
وأطَّلعُ حقّاً
على وجهكَ المضيء،
هل تسمعني
يا جسدي؟!))

٨١) ماذا تعني لكِ الولادة، ولادة طفل، بزوغ الشّمس، نمو زهرة، ولادة فكرة، ... كيف تولدُ أفكارُكِ؟!

الولادة هي موقف اختيار حرج جدّاً، تقرير مصير، قرار خطير يحتاجُ إلى الكثير من الشّجاعة والتّدبير، لأجل هذا لا أفرح كثيراً بمشهد طفل يأتي إلى الوجود، لأنّني أتساءل كثيراً عن مصيره، وعن تجاربه كيف ستكون، وعن كتابه كيف سيفتحه ومن أين وكيف سيقرؤُه، وأتساءل أكثر وأكثر عن والديْه، لماذا اتخذا هذا القرار، لا سيَّما في زمننا الّذي لا شيء يبشّر فيه بالخير. الولادة مسؤوليّة كبيرة، وأمرٌ يحتاج إلى الكثير من العدل والرَّصانة والاتّزان. يُفرحني طبعاً منظر بزوغ الشّمس، لأنّ فيه ولادة يوم جديد، بفكر جديد وعُمْر أجدّ يحمل بين طيّاته الكثير من الآمال والوعود، يفرحني أيضاً منظرُ الزّهرة وهي تتفتّح، وهي في هذا أجدها أكثر وعياً من الإنسان، لأنّها حينما تتفتّح فإنّها تعلن عن حالة السّلام والوئام الّتي بلغتها وحقّقتها مع الكون، انظر في المقابل إلى عالم البشر وأسأله كيف يتفاعل مع تفتّح الفتاة والفتى؟ إنّها كارثة بما في الكلمة من معنى، إنّها حرب مستمرّة على الإنسان. لا أحدَ يتفتّحُ بشكل سليم في عالم البشر؛ لا المرأة ولا الرّجل، والنَّتيجة: أرض تضجُّ بالمرضى النَّفسيين والمكبوتين الّذين أشعلوا هذا العالم بالحروب ونشروا فيه الأوبئة والأمراض، ونزلوا فيه إلى الدّرك الأسفل من الجحيم. أمّا كيف تولد أفكاري، فهذا له علاقة بمجموعة من الميكانيزمات الشّديدة التّعقيد، بما فيها تلك الّتي ترتبط بأكلي ونومي، وكيف وأين أقضي يومي، وماذا أقرأ، وإلى أين أسافر وأرحل، ثمَّ أشياء أخرى لها علاقة وطيدة بتركيبتي الرّوحيّة والشَّخصيّة ومدى استعدادي الفكري لتلقّي مكنونات الحرف.

***

٨٢) كيف تقيّمين إلى اليوم القراءات النّقديّة الّتي كُتبتْ بشأن تجربتكِ الإبداعيّة؟

هذا سؤال لا يحتاج إلى كثير من التَّفكير، وأحبُّ أن أستهلّ الحديث فيه بقوله سبحانه وتعالى في سورة (المؤمنون): ((ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ)). قلّة هُم أولئك الّذين كتبوا عنّي من باب المحبّة والسّلام الإلهِيَّيْن، وما عدا ذلك فغثاء أحوى طارتْ به الرّياح ولم يبقَ منه شيءٌ يُذكر أو يستحقُّ الحديث. المشكلة هي أنّ النّقد الحقّ أدب ووعيٌ وجنوح نحو سماوات الإبداع والكلمة الخلّاقة، والنّقاد الّذين يتّصفون بهذه الصّفة ويجمعون في عملهم بيْنَ بتوليّة القلب والحرف نادرون جدّاً، ولا يوجد في السّاحة سوى الغوغاءِ الّذين ليس عندهم أيّة تربية نقديّة وخُلُقيّة، حتّى وإن كانوا من أصحاب الألقاب العلميّة والكراسي الجامعيّة، لا أحد يغوصُ في عمق الحرف بمسؤوليّة الباحث الواعي، والمصيبة تزداد سوءاً حينما ينبَري لمهمّة النّقد الجليلة أناس ليس لهم أيّة علاقة بمجال الكتابة والإبداع فما بالك بمجال النّقد!

هذه مشكلة أزليّة بين المبدع والمتلقّي عموماً، سواء كان ناقداً أو قارئاً عاديًّاً، والكثير ممّن حاول الاقتراب من تجربتي فعل ذلك من باب الاستعلاء، فهو يرى نفسَه "سعادة النّاقد"، و"المبدع" هو التّلميذ المبتدئ أمام حضرتِه المبجّلة، وإنّني لتحضُرني الآن بضع صور من قراءات حُلْتُ دون استمرار "النّاقد" في تدوينها سواءً تعلّق الأمر بتجربتي في مجال الفنّ التَّشكيليّ، أو في الإبداع الأدبيّ، أذكُرُ مثلاً واحداً منهُم شكّلتْ لهُ كلمة الإهداء إلى زوجي العزيز مُعضلة كبيرةً، لا سيَّما وأنّني عادةً ما أفتتِحُ بها دواويني وقصصي وحتّى كتاباتي في مجال التّرجمة وأحياناً في النّقد، وإنّني لكنتُ أستغربُ جدّاً هذا الموقف ومدى إصرار صاحبه على معرفة السّبب وأنا (العارفة) الّتي يجبُ ألّا يكون في قلبها أيّ أثر للحُبّ (الأرضيّ)، لكأنّ الرّجلَ نسي أنّ الحبّ لا يُمكن أن يصل إلى مستوى العشق الإلهيّ المطلق ما لم

ينطلقْ من أمّنا الأرض الّتي منها لحمتنا الأولى، وبغضّ النّظر عن هذا المفهوم، فإنَّني كنتُ أستغربُ كثيراً موقف هذا الرّجل وكيف أنّه ترك كلّ القصائد والأعمال وركّز في معرفة سبب الإهداء بدون خجل ولا حياء. هناك نويْقدٌ آخر كنتُ أذكر أنّه اطّلعَ على إحدى لوحاتي الجديدة، فبدأ يكتبُ بشأنها معلّقات من خياله الجامح وهو يعتدُّ فيها بفضل المدرسة العراقيّة الواسطيّة عليّ وكيف أنّ فنّي متأثّرٌ جدّاً بقطبها الكبير والمعلّم الأوّل يحيى بن محمود الواسطي، وإنّني لولاه لما كنتُ لأعرف عن الفنّ شيئاً، فبقيتُ منذهلة ومتحيّرةً أمام شاشة الحاسوب وأنا أقرأ ما كتبَه من عبقريّ الكلام الّذي جادت به قريحتُه المُهَلوِسة، وأنا أضربُ كفّاً بكفٍّ وأضحكُ بكلّ ما أوتيتُ من قوّة، وأكرّرُ النّظر إلى لوحتي الّتي لم أكن أعبّر فيها سوى عن ألمٍ شديد أصابني في كتفي اليُمنى من كثرة الكتابة والنّقر على لوحة المفاتيح، لدرجة أنّني كثيراً ما كنت أغلق عينيّ من شدّة الألم، ومجرّة التّبانة فوق رأسي أعبّر فيها عن خصوبة الإبداع لديّ وتنوّعه وكثرة الفيض المتدفّق من بئر الحرف بداخلي، والورود المتبرعمة في جسدي أجسّدُ من خلالها الحياة المنبثقة من عمق الألم، والإصرار على المضيّ قدُماً لينتشر عبير فنّي في كافّة أصقاع المعمورة، ولا شأن لي لا بيحيى الواسطي ولا بالمدارس الفنّيّة عموماً، وإن كنتُ قد وجدتُ في تعبير الرّجل إشادة ضمنيّة بعملي لم يكنْ يقصِدْها لأنّه رفعني بدون أن يشعُر إلى مستوى الواسطيّ، وقد سبق لي أن صرّحتُ في جواب سابق بأنّ فنّي التّشكيلي هو نابع من الفطرة الخالصة ولا سبق لي أن درستُه في مدرسة ولا في أيّ أكاديميّة من أكاديميات الفنون لا العربيّ منها ولا الدّولي! والنّماذج من هؤلاء كثيرة وليس هناك مجال للحديث عنهم جميعاً لا سيّما وأنّ الأمر لا يستحقُّ كلّ هذا الضّجيج، لأنّني أعتبره أمراً عارضاً، وشيءٌ طبيعيّ أن يقتربَ من المبدع الدّبابير والذّباب، مادام الغيرُ يطّلع على إبداعه.

هذا فيما يتعلّق بمصائب من يدّعي العلم بالنّقد وأصوله، أما فيما يتعلّق بالمتلقّي العادي –لا سيما وأنّنا في عهد أصبحنا نستخدم فيه حتّى الفيسبوك من أجل عرض بعض إبداعاتنا–، فإنّني صادفتُ من المتلقّين من لهم رهافة إحساس وذوق رفيع لا يوجدان في معشر النّوكى من المُتفيْقهين في عالم النّقد! نعم هناك عدد من المتتبّعين وخاصّة النّساء منهم مَن عندهنّ خُلُق رفيع في محاذاة النَّصّ التَّشكيليّ أو الشّعري، ويتذوّقن الفنّ بأسلوب راقٍ جدّاً، وكأنّهن حوريات يرفرفن بالمحبّة ويرتشفن الفنّ بعشقٍ منقطع النّظير، وفيهنّ كتبتُ أكثر من نصّ شعريّ، لأعبّر عن شكري وامتناني لهنّ ولأخلاقهنّ الحميدة وتربيتهنّ النّقديّة العالية. لكن في المقابل أذكرُ أيضاً أنّه صادفني الكثير من المتلقّين الّذين كانوا كلّما قرؤوا نصّاً اعتقدوا أنّه يعنيهم، وأنا الّتي لا أعرفهم ولا سبق لي حتّى أن رأيتُهم أبداً، وفيهم أيضاً ومع كامل الأسف الشّعراء والكتّاب الّذين يعانون من أمراض نفسيّة عويصة أهونُها الوهم وأعظمُها الكبت العاطفيّ كأنّهم خُشُب مُسنّدَة يحسبون كلّ صيحة عليهم. كثيرة هي الحالات بما فيها تلك الّتي يعاني فيها بعض المبدعين من جنون العظمة الرّهيب لدرجة أنّهم يحسبون أنّ كلّ من يقترب من مجال اختصاصهم فإنّه سارق وكأنَّ اللهَ لمْ يهدِ للحرف ولا إلى مائه الزّلال سواهم. إلى غير ذلك من مظاهر الفساد المستشري الّذي تأنف نفسي عن الخوض فيه لدى هؤلاء المبدعين الّذين من المفروض أن يكونوا من أكرم خلق الله، وأشدّهم تواضعاً وخُلُقاً. لكن ما العمل والحال أنّنا في زمن الوهم والخيال، وزمن الجنون والاستهتار، سوى أن أفوّض أمري إلى الله، وأستغني به عن العالمين، مشهدة إيّاه أنّ حتّى صفحتي على الفيسبوك قد فرُغَتْ قاعتُها من كلّ كاتبٍ وحذفتُ الجميع منها، بعد أن رددتُ الجميلَ مضاعفاً لكلّ واحدٍ كتبَ في تجربتي مقالةً ما بأن كتبتُ عنهُ من باب المحبّة والشّكر والخُلُقِ العظيم، حتّى في حقّ أولئك الّذين ما وصلني منهم إلّا الأذى والظّلمُ والإجحاف، والحمد لله الّذي بنعمته تتمُّ الصّالحات.

٨٣) مَنْ أنتِ، كيف تلخِّصين أسماء غريب، الطّفلة، الشّابة، الأديبة، الشّاعرة، المترجمة، النّاقدة، المفكِّرة، التّشكيليّة، مبدعة في فضاء مفتوح على كلِّ ما هو رهيف وتصبُّ في مروج السَّلام بأبهى صوره وتجلِّياته؟

أسماء إنسانة بسيطة جدّاً، وصبورة جدّاً جدّاً. لا أحبّ الظّلم أبداً. وأبتعد تماماً عن كلّ شيء يُمكنه أن يجلب لي الحزن أو التّعاسة. اختياراتي في الحياة أقوم بها من وحي تربيتي وميلي إلى السّلام الرّوحيّ، ولأجل هذا انعزلتُ عن النّاس منذ يفاعتي لأحافظ على نقائي، لا أحبّ الاقتراب من الحروب الدّاخليّة المشتعلة في قلوب الآخرين، وأسعى دائماً إلى أن أقي نفسي من جهل النّاس وحقدهم.

وجدتُ سعادتي في الحرف عبر الكتابة بعيداً عن كلّ تزّهات الأدباء وغيرهم ممّن يدّعي الإبداع. ومازال قلبي حابلاً بالمشاريع والأحلام، ومازالت شهيّتي مفتوحة على أوسع آفاق الألق والنّقاء، مازلت أريد أن أترجم المزيد وبعيداً عن تجارب التَّرجمات السّابقة، بل مازلتُ أريد أن أكتب في النّقد الكثير، بعد أن تعمّقت تجربتي أكثر فأكثر. لأنّ أجمل التَّجارب برأيي هي تلك الَّتي تُخاض في سنّ النّضج، أي بعد الأربعين وما فوق، أعتقد أنّه تنتظرني ولادات جديدة في مجال الكتابة، ومازال الخير في الطّريق إليّ ضاحكاً باسماً بكلّ ما في الرّوح من نشاط وحيويّة وعنفوان.

***

٨٤) كيف تنظرينَ إلى جغرافيّة الكون، الكائنات، الطّبيعة، علاقة الكائن الحي مع الطّبيعة ومع الحياة؟!

أعتقد أنّني كما كلّ إنسان جزء لا يتجزّأ من جغرافيّة الكون بكلّ ما فيها من طبيعة وكائنات وحياة بشكل عامّ وشامل، أقول هذا لأنّ الإنسان هو صورة مصغّرة للكون الأكبر، وعلاقتُه به هي امتداد لعلاقته بخالق الأكوان كلّها. إنّ كلّ ما هو في المستويات العليا لا بدّ وأن توجدَ له صورة منعكسة على المستويات المتواجدة

على الأرض، وكل ما هو في الأعلى لا بدّ وأن يتوافق في صورته مع ما هو في الأسفل والعكس صحيح، ولا بدّ للكلّ أن يتوافق مع الجزء والعكس بالعكس، وهذا يعني أنَّ الجزء متطابق في تركيبته مع الكلّ وهذا هو الشّكل الَّذي به تمّ تصميم الكون بكلّ أبعاده المتعدّدة، والّذي ما هو سوى تجسّدٍ للوعي الإلهي الّذي من خلاله يمكنُ للإنسان أيضاً أن يجسّدَ وعيَه بنفس الدّرجة والقوّة ويُصبحَ خالقاً كما الذّات العظيمة الّتي منها انحدر وانبثق. وأعتقدُ أنّ الإنسانَ بمجرّد توصّله إلى هذه الحقيقة فإنّه يُمكنه أن يستعيدَ ثقتَه بنفسه ويُصبحَ أكثر قدرة على تفعيل الكثير من القوى والكفاءات بداخله، ليكتشف بحقّ لماذا سجدتْ لهُ الملائكة وهو في حضرة الملأ الأعلى. كلّ ما في الكون خُلقَ من أجل سعادة الإنسان، لكنّ هذا الأخير بظُلمه وجهله لم يستوعب جيّداً هذا الدّرس وبدل أن يسعى إلى فهم الكون وكائناته بالمحبّة وإلى تكوين علاقة مودّة وسلام وانسجام مع مَن حوله من ملكوت فإنّه حرق كلّ ما تركه له الأجداد من تعاليم سرّيّة، ونزل إلى أسفلِ سافلين يعيث في الأرض فساداً، فخلخل موازين الكون، وطعن الطّبيعة طعنة الغدر، وتجبّر على مخلوقاتها ولوّثها بالسّموم وأدمى قلبها النّابض بالحروب، ومازال لمْ يستفق بعد، إنّه في غيٍّ بعد غيّ ولا أحد يعلم متى سيتوقّفُ كلّ هذا الجنون.

***

٨٥) عندما تتوارى بعض التَّدفُّقات الإبداعيّة أثناء الكتابة، هل تستطيعي استرجاع ما توارى عنكِ لاحقاً؟!

أثناء الكتابة أمسكُ بزمام الحرف جيّداً، وحتّى لا تفلت منّي الأفكار فإنّي أدوّن الرَّئيس منها في مذكّرتي اليوميّة وأدقّق فيه النّظر ثمَّ أستفيض في مناقشته وتناوله ضمن الموضوع الّذي أنا بصدد كتابته سواء كان شعراً أو نقداً أو ترجمةً، لكنّ الأمر يختلفُ تماماً أثناء لحظة ولادة هذه التَّدفّقات وليس أثناء كتابتها لأنّني لا

أستطيع خلال تدفّقها أن أستعيد ما قد يتوارى أو يفلت منها، لأنّ هذه الأخيرة غالباً ما تكون عندي هادرة كشلّال يتقدّمُ إلى الأمام أبداً، ولا يعود إلى الخلف بأيّ حال من الأحوال، لذا وإذا كان التَّدفّق يعنيني حقّاً وأثار انتباهي بشكل من الأشكال لفرادته وجِدّته فإنّني أدوّن رؤوس الأقلام منه في ورقة وأضعها على طاولة المكتب إلى أن أعود إليها بعدما تسمح انشغالات اليوم بذلك. لأنّ حياة الكتابة علّمتني أنّ ما كلّ ما يتدفّقُ تجبُ كتابته أو الأخذ به على محمل الجدّ، وللوصول إلى هذه الدّرجة من الوعي لا بدّ للكاتب أن يُصاحبَ عقلَه، ويعرفَ كيف ومتى يُفكّرُ هذا الأخير، وما الّذي يريده حقّاً منه في كلّ لحظة من لحظات اليوم، فلربّما بعض التَّدفّقات هي مجرّد تنفيس ليس إلّا. أمّا التَّدفّقُ الحقّ الّذي يجب الأخذ به والإنصات إليه حقيقة فهو ذاك الّذي ينبع من الرّوح لا من الفكر، وهذا له أوقاته الخاصّة جدّاً، ولا يأتي كلّ يوم، وإنّما يحدث في حالات الصّفاء والوجد، وهو النّوع من التَّدفّق الّذي لا أدعه ينسكبُ دون أن أصغي إليه، وقد يحدث أن أستيقظ من نومي لأدوّنه وأعيد فيما بعد النّظر فيه بصبرٍ وتأمّل لأستوعب رسالته الّتي غالباً ما تكون على شكل دروس وتعاليم يلقيها الحرفُ البِكر.

***

٨٦) ماذا يعني لكِ الزّمن، العمر، رحلة الحياة، كيفَ تنظرينَ إلى دقائق الحياة بكلِّ تفاصيلها؟!

لا أفصلُ في الحياة بين الأزمان والأعمار، ولا أحبّ أن أنظر كثيراً إلى السّاعات الحائطيّة أو اليدويّة، ولا أن تكون أمامي المفكّرة اليوميّة الّتي فرضها الإنسان علينا من باب مفهومه المغلوط عن الزّمن والحياة، وكثيراً ما أتساءلُ عن سبب كلّ هذا التِّيه، في الوقت الّذي من المفروض أن أكون أنا الزّمن، وأنا من أقرّر ما الّذي أريد أن أفعله به، أو أين أقضيه؟! صحيح أنّ الحياة في عُرف العديد

من النَّاس مواعيد وأوقات وأيّام وشهور وسنين وشواغل لا حصر لها، لكنّها في عرفي مفهوم لا بداية له ولا نهاية، لأنّ الحياة نفسها لا تنتهي، إنّما هي فقط البرازخُ الّتي تفصل بين واقع وآخر، وبين عالم وآخر. لذا فإنّه لا يُمكنني كإنسان من صنع الله أن يحدّني زمان ولا مكان، فالأزمنة تمضي، والأمكنة تتحوّل، وأبقى بكينونتي الإلهيّة خالدة لا أتغيّر ولا أتبدّل، وهي فقط القوالب والأشكال والمواعين المتبدّلة والمتغيّرة بالموت أو التَّحوّل من حال إلى آخر، لكنّ الجوهر يبقى هو هو، عمرُه من عمر الإله، وحياته من حياته، ولأجل هذا حينما يسألني غيري من حين لآخر: (كيف الحال يا أسماء؟) فإنّي أجيب: (سبحان المُتصرِّف في العباد، يُغيِّرُ أحوالَهم ولا يتغيّر، حيٌّ لا يموتُ، وقيُّومٌ لا ينامُ، سبّوح قدّوس ربّي وربّ الملائكة والرّوح).

وعلى هذا الأساس أقول إنّ حياتي مفتوحة على الأبديّة، وروحي فيها متأهّبة لاختبارات وتجارب متعدّدة، ولن تتحقّق لي العودة بشكل نهائي إلّا بعد أن يتحقّق موتي عن كلّ اختبار وتجربة، أي حينما أسمو وأرقى بالشَّكل الّذي يذيبني تماماً في الذّات الكونيّة العظيمة، ويجعلني فاعلة في الكون بطاقتي الخلّاقة الهائلة في فضاء يفيض بالمحبّة والسّلام الإلهيَّيْن. لأجل هذا أكرّر وأقول أنّني مازلت لليوم بذرة لم تتبرعمْ بعد، وكلّ ما أنا فيه مازال لم يخرجني من عتمة الرّحم الكونيّ، إنّني جنين في طور التَّخلّق، ولا يُمكنني أن أدّعي غير هذا، ورحم اللهُ عبداً تَفكَّر فاعتَبَر وعرف قدر نفسه فوقفَ عندهُ.

***

٨٧) أيُهما أكثر تأثيراً على البنين، ثقافة الأسرة أم ثقافة الشّارع والأصدقاء والمدارس والجامعات؟!

اسمح لي أن أغيّر صيغة سؤالك وأقول: أيّهما أكثر تدميراً للبنين، ثقافة الأسرة أم ثقافة الشّارع والأصدقاء والمدارس والجامعات؟!

وجوابي سيكون ما الّذي فعلناه بهذه الآلاف المؤلّفة من الأسَر البشريّة إلى اليوم؟ أينَ هُو الإنسان؟ ماذا فعل به الشّارعُ والمجتمع؟ وماذا فعلت به المدارس والجامعات؟ الدّمار الشّامل أيّها الصّحب والإخوان. اذهبوا إلى المستشفيات واحصوا عدد المرضى النّفسيين، وعدد المرضى بكلّ علّة وداء بما فيها السَّرطانات الّتي أصبحت تفتك كلّ يوم بالبشر وفي كلّ مكان من الأرض، واذهبوا إلى السّجون وستجدونها مكتظّة بالتّعساء والحزانى ممّن جنى عليهم المجتمع والأسرة والشَّارع والجامعة، وادخلوا إلى البيوت وانظروا إلى الأمّهات التَّعيسات السّجينات وراء الجدران يفنين أعمارهن في الغسيل والكنس والطّبخ، واخرجوا إلى الشَّوارع وانظروا فيها إلى النّاس، واقرأوا ما على صفحات الأوجه من ألم وحزن وضنك عيش وقهر، وحاولوا ولو لمرّة واحدة أن تجرّدوا بعضهُم من مظاهر الخداع، والأصباغ والمساحيق والألبسة الجميلة وسترون كم من الهشاشة داخل كلّ واحد منهم وكم من الخوف والضّعف. إنّه إنسان هذا الزَّمان وكلّ زمان: مازال يحبو في أرض من شوك، ويقول إنّه أدرك السّعادة والجنان. وهو الّذي لم يفلت من أيّ شيء: الدّياناتُ وغسلت وغيّبت عقله، والثّقافاتُ وشوّهت روحه وفكره، والمدارس والجامعات وعطّلت كلّ ذرّة تفكير سليمة بداخله؛ إنّنا في مجتمعات الإنسان الآليّ، والماريونيت الموجّهة عن بعد: التّلفزيون وكبتَ كلّ قدرة على الإبداع والتَّجديد، ثمَّ تبعه بعد ذلك الكمبيوتر، والألعاب الإلكترونيّة، وفي الختام الهواتف الذّكيّة والإنترنيت. أيننا من طاقة الإنسان الأوَّل الَّذي كان يبني الأهرامات والمعابد العظيمة والمدن المعجزة في جبال من صخر، وأخرى بشوارع من ياقوت وزمرّد. انتهى الإنسان، وانتهت علومه

الأولى، ولم يبقَ على الأرض سوى آلة لا تنفّذ سوى الأوامر: الأب في الأسرة يأمر وينهي، والرَّئيس في العمل يفعل الشَّيء نفسه، وكذا الرَّئيس في الحزب، والنّاس قطعان تركضُ خلف قطعان، برؤوس محنيّة لا ترفعها عن الهواتف والأجهزة اللّوحيّة، إنّه زمن العبوديّة والاستعباد والاستلاب الفكري بامتياز. ثمّ ماذا غير هذه المصائب الَّتي لا أوّل لها ولا آخر؟ إنّني بتُّ أتفادى الخروج إلى شوارع مدينتي الَّتي يزداد فيها عدد المتشرّدين يوماً بعد يوم، والفقراء في كلّ مكان، والنّاس أصبحوا يكلّمون أنفسهم ولا فرق فيهم بين صاحب جاه ولا فقير حال. والمحلّات التِّجاريّة تعلن عن إفلاسها كلّ يوم وتغلق نشاطاتها بشكل يدعو إلى الأسف والحزن: أينَ أنت ماضٍ أيّها الإنسان؟ ماذا بعد كلّ هذا وقد أصبحتَ تبحثُ عن لقمة يومك في الحاويات؟! هذه هي أوروبا اليوم، وهذا هو العالم في كلّ يوم؟ ما الّذي حدث، وكيف الحال يا ابن آدم؟ إنّك في الدّرك الأسفل من الجحيم، فلا تدّعي غير هذا أيّها الإنسان. وسأظلُّ أسألك كيف الحال؟ إلى أن تستفيق من سباتك وتعود إلى فطرة الأجداد.

***

٨٨) هل توافقيني الرَّأي أن هناك تقصير كبير في نشر ثقافة السَّلام عبر المناهج الدِّراسيّة في الشّرق والغرب أيضاً عبر كافّة المراحل الدِّراسيّة ابتداءً من المرحلة الابتدائيّة حتّى المرحلة الجامعة وما بعدها؟!

نعم، هذا أمر أكيد، وإنّي لأعتقد أنّ التَّقصير قبل أن يكون في المناهج الدّراسيّة فهو موجود بالأساس في تكوين الأساتذة والمعلّمين أنفسهم، فما الّذي سنفعله بتغيير المناهج وتوجيهها نحو ثقافة السّلام دون العمل على تغيير عقليّة ونفسيّة الأستاذ والمعلّم؟! أن تدخلَ إلى قاعة ما وتجدَ فيها المُدرّسَ وهو يلقي درسه عن السّلام، أو عن التَّسامح وكيفيّة العيش في وئام مع النّاس والكون والطّبيعة هذا شيء جميل

جدّاً ومثير للبهجة والفرح، لأنّه يعِدُ بتغيير جذريّ ينطلق من الحاضن الثّاني للإنسان؛ المدرسة والجامعة بعد ذلك. لكن ماذا لو تكتشف أنّ ما يقوله المعلّم أو الأستاذ هو مجرّد كلام يلقيه من ورق، في حين أنّ فكره غير ذلك تماماً لأنّه يتعامل بالمحسوبيّة مع تلاميذه ويُميّز بين الغنيّ فيهم والفقير، أو أنّه لا يملك من رهافة الحسّ ولا الرّقيّ في التّفكير شيئاً وكلّما جلست أمامه بادرك بالصّراخ والكلام الفاحش وما إلى ذلك؟! افتحوا أدبيّات المدارس والتّعليم في العالم العربي واقرأوا ما يصفه الرّوائيُّون من أهوال في هذا الصّدد: من أين يأتي السّلام، والمدارسُ تضجّ بالظّلم والهوان من قمّة الإدارة إلى آخر تلميذ في آخر صفّ؛ إنّها وحشيّة وقسوة ما بعدها قسوة، ابدأوا بالأساتذة، واعرضوهم على المصحّات النّفسيّة، وجدّدوا في عقلياتهم وتربيتهم وإعدادهم، وحسّنوا من مستواهم ووضعهم المعيشي والوظيفيّ قبل أن تسلّموهم مقاليد تدريس وتربية النّشء. لا ينفع مثلاً أن تنتظر من أستاذ مهووسٍ بضرب الأطفال وتعذيبهم أن يكون رجل سلام ويلقي دروساً عن المحبّة والوئام، ولا ينفع أيضاً أن تكون هناك أستاذة تهتمّ بتربية ابن المدير أو ابنة الوزير وتترك ابن الحارس للجحيم: لا سلام في الأفق أيّها الأصحاب، ولا خير فيكم وفي مناهجكم وإن غيّرتموها ما لم تفشوا العدل والخُلق الحميد والنّزاهة والنّبل والشّهامة بين التّلاميذ. لا سلام في الأفق وهناك في العالم أطفال يعيشون في ظروف قاسية داخل قاعات تدريسيّة بدون مقاعد ولا تهوية ولا تدفئة مركزيّة، وإذا أمطرت السّماء بلّلتهم بالماء، لا سلام في الأفق وإن غيّرتم مناهجكم، والشّبان لا يجدون عملاً بعد تخرّجهم من الجامعات يقيهم الفقر والسّؤال. لا سلام في الأفق يا أهل السّلام، وقد تسمّم العِلم، والبئر الّتي يُغرف منها الحرفُ. لا سلام في الأفق أيّها الأصحاب والقلوب قد فرغت من صاحب السّلام، والأرض تنوء تحت ثقل الحروب والمجاعات والأمراض، لن يجدي في شيء تغييركُم للمناهج، فالكلام على الورق كثير، لكن أينهُ التّغييرُ يا أصحاب التّغيير؟!

٨٩) هل أنتِ قادرة على تجسيدِ رؤاكِ وما يجولُ في مخيالكِ عبر الكلمة أم أنَّ الخيال أكثر رحابةً؟!

الخيال مطيّة من لم يعرف بعدُ طريق النّمو الرّوحيّ الحقّ. تذكّر أنّه حيث يوجد الخيال فإنّ هذا يعني غيابَك عن الحاضر والواقع، وحريّ بكَ أن تكون من أهل الحضور لا من أهل الغياب. عليكَ أن تأتي، لا أن تذهب، ابق هنا وحاول ألّا تشغل الفكر، وسترى أنّ الرّوح ستستيقظ، وبها ستدخل عالماً غير العالم تُعَبِّر عنه إمّا عن طريق الكلمة أو الموسيقى أو الرّقص أو اللّون أو بشتى مختلف وسائل التّعبير الإنسانيّة الأخرى. تذكّر أيضاً أنّه إذا كان لابدّ من استعمال الخيال، فلتفعله فقط من أجل بناء عالمك الرّوحيّ السّعيد الّذي به تستطيع أن تلج إلى واقع مفعم بالفرح والمحبّة والسّلام، لا تتخيّل أبداً الأشياء السّلبيّة، حتّى لا تؤذيَ نفسكَ بذلك، لأنّ للخيال قوّة لا يجب أن تستهين بها، لأنّه كما يبنيك يُمكنه أيضاً أن يدمّركَ، لذا قبل أن تستيقظ مثلاً، فكّر بسعادة، وقبل أن تنام أيضاً تخيّل فقط أنّك بين يدي الرّحمن، وأنّك ترقدُ في حضنه بأمن وأمان، واترك كلّ تفكير سلبيّ وراءك، جرّب هذا ولو لبضعة أيّام، وسترى أنّكَ ستخلقُ واقعاً من حولك يشعّ أماناً ومحبّة ويُمكنكَ أن تكتب عنه أو تغنّيه أو ترسمه متى شئت ذلك.

***

٩٠) كتاباتُكِ تمنحُني الفرحَ والسَّلام والهدوء والأمل، هل تكتبينَ من أجلِ أن تمنحي قرّاءَك الفرح والأمل؟!

حينما أكتبُ لا أفكّر بالقارئ فهُو قد يرجُمني قبل أن يرحمني، وقد يُحاكمني قبل أن يفهمني حتّى وأنا أكتبُ عن الفرح والسّلام والهدوء والأمل. ولتتذكّرْ أنّ أوّل السّلام هو ذاك الّذي يبدأ من ذاتِكَ أنتَ قبل أن تتقاسمه مع الآخرين. حينما أكتب أكون أنا الكاتبة والقارئ، أنا الحرف والورق، أنا السّاكبة والمسكوب، وحينما أقول

(عزيزي القارئ) فإنّي أقصدني قبل أن أقصد أيّ أحدٍ آخر، وحينما أقول (تذكّر بأن تفعل كذا وكذا)، فأنا المقصودة بالحرف لا الآخر. نعم، إنّني أكتبُ لأحكي للّه كلّ شيء، لأتحاور معه، وأعبّر له عمّا يجول بخاطري بشأن قضايا عديدة من ضمنها السّلام الّذي هو موضوع هذا الجزء الثّاني من (رحلة المئة سؤال وجواب). إنّني أنا الشّاهدة والمشهود، وأنا المُشاهِد والمَشهد، وأنا النّون والقلم، وأنا السّلمُ والسّلام الّذي به أحيا وأعيش.

***

٩١) كيف تفسّرين هذا التَّنوّع في بوحك الرّوحي لدرجة أنّهُ يُخيّلُ للقارئ أنّكِ تنتمين إلى كلّ الأديان، ولربّما إذا قرأكِ المسيحيّ اعتقدَ أنّك مسيحيّة، وإذا اطّلع على أشعارك وترجماتك ونصوصك النَّقديّة العبريّ اعتقد أنّكِ على ملّته، والمُسلمُ قبلهما معاً؟!

هذا صحيح، حتّى البوذي يُمكنُه هو الآخر أن يعتقد أنّني على ملّته، وهذا راجعٌ إلى سببيْن رئيسيْن؛ أوّلُهُما ثقافتي الغزيرة، وسعة اطّلاعي على أمّهات المصادر والمراجع لمعظم الدّيانات والكتب المقدّسة، وتفاسيرها وما كتبه بشأنها الفلاسفة والحكماء والعرفاء ورجال اللّاهوت وبلغات مختلفة، لأنّني أعتقد أنّه لا بدّ لكلّ إنسان أن يوسّع دائرة معارفه لكي يفهم دينه أوّلاً، وتتضّح له الرُّؤيا حول تاريخ العقيدة واللّاهوت الإنسانيّ ثانياً. أمّا السّبب الثَّاني فهو إيماني التَّامّ بأنّ إنسان السّلام لا يُمكنه أن يكون كذلك حقّاً ما لم يُصبح قلبه مقاماً للتّوحيد الدّيني الكونيّ، لا خلاف ولا اختلاف، وإنّما كلّ نابع من حيّ قيّوم أزليّ في كلّ الدّيانات، غير هذا فإنّ الإنسان سيجدُ صعوبة كبيرة في الحوار مع الآخرين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وتقبّلهم واحترام معتقداتهم واعتبارها سبباً من أهمّ أسباب ثراء الفكر والوجود الإنسانيَيْن، وهي الفكرة التي أكّدتَها أنت أيضاً أيّها الفاضل صبري يوسف

حينما قلتَ في أحد أجزاء موسوعتك الحواريّة (حوار مع الذّات، ألف سؤال وسؤال): ((لو كانَ منهج البشر في العالم العربي من طينة الأديبة والمترجمة والنّاقدة المبدعة، التّنويريّة الصّوفيّة المغربيّة د. أسماء غريب، لكُنّا بألف ألف خير، ولما نشبت حربٌ أو صراع ولا تمَّ إطلاق رصاصة واحدة في الشَّرق أو الغرب أو في أيّةِ رقعة جغرافيّة في العالم، فهي مبدعة صوفيّة ولها قلب عفيف رهباني وئامي ومتنوِّر بالمحبّة والعطاء الخلّاق، وروحها صافية صفاء المطر ومبلَّلة بخيرات نعيم السّماء. كم نحن البشر نحتاج هكذا إنسانة بهذا الصَّفاء الرُّوحي والإنساني والعطاء الصُّوفي الرّاقي، كم يحتاج العالم العربي والغربي إلى التَّشبُّع بهذه الثَّقافة الرّوحيّة الرّاقية باستلهام وترسيخ رحيق جوهر الأديان، فقد تمعّنَت المبدعة الخلّاقة أسماء غريب بالأديان السّماويّة، واصطفَتْ من هذه الأديان أرقى ما فيها من تجلّيات السَّلام والوئام والمحبّة بين البشر، وتستشهد بكتاباتها وتطلُّعات آفاقها بما قاله الرُّسل والأنبياء والقدِّيسون من سائر الأديان حتّى يخّيل لمتابعيها أنّها متشرّبة من كلِّ الأديان وكأنّها (يهوديّة مسيحيّة مسلمة) مستنيرة بروحانيّة منقطعة النّظير، إنسانة صافية صفاء نور الصَّباح المنبعث من الشّمس والَّذي يضيء العالم، قرأتِ الأديان السّماويّة والأديان الأرضيّة والآداب العربيّة والعالميّة والفلسفة الشَّرقيّة والغربيّة، ووصلت إلى مرحلة الصّفاء الرّوحي والفكري الخلّاق فيما يخصُّ علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقته بربِّ الأرضِ والسّماء، تدهشني شفافيّة روحها ونقاء قلبها وصفاء فكرها وروعة انفتاحها على كلِّ ما هوّ خيِّر وسلام ومحبّة في الحياة، وتبدو لي كأنّها رسولة المحبّة والكلمة الطّيّبة والسَّلام والوئام بين البشر كلّ البشر، ورأيت فيها مؤمنة كونيّة بكلِّ ما هو إبداعي جميل وروحي وسماوي بطريقة هادئة شفيفة رحيمة حنونة مضيئة مثل شمعة للبشر كلّ البشر، فلا يشعر من يتابع كتاباتها وقراءة أفكارها ومقالاتها وأشعارها وقصصها ونصوصها إلّا وأنّه أمام طاقة روحيّة

فكريّة إبداعيّة صافية ومشبّعة لفعل الخير والفضيلة والمحبّة والتَّواصل مع الخالق رب السّماوات بكلِّ صفاء.))

***

٩٢) هل تستطيعُ اللُّغة أن تترجمَ ما يجيشُ في دواخلنا من جنوحٍ نحوَ أعمق فضاءات السَّلام؟!

قد تكونُ اللّغة قاصرة عن التّعبير عمّا يجيش في دواخلنا بشكل عامّ، لكنّ هذا عليه ألّا يحول دون المحاولة بكلّ حال من الأحوال من أجل إيصال ما نفكّر به وما نُنَظّرُ لهُ بشأن العديد من القضايا من بينها السّلام الرّوحيّ. وذلك لأنّ العالم اليوم هو في أمسّ الحاجة إلى مثل هذه النّقلات النَّوعيّة في التَّفكير من أجل تجديد الفكر الإنسانيّ وضخّ أفكار بنّاءة تقوده إلى روابي السّلام المنشود، بعيداً عن فكر الحرب والتّيه والضّياع. لا بدّ من المحاولة، ولا بدّ من الصّبر والجَلَد وتحمّل الصّعاب لبلوغ الهدف المقصود، ولا ضير إن قلّ المساندون أو المشجّعون، وإنّما كن أنت المساند والمشجّع الرّسمي لنفسك أوّلاً، لأنّ التَّغيير يبدأ بك قبل أيّ أحدٍ آخر.

***

٩٣) اللُّغة، صوت، موسيقى، غناء، فكر، تواصل، كيف ممكن أن نسخِّر هذه الإمكانيّات لخيرِ البشريّة؟!

مَن الأسبق في الوجود اللّغة، الصّوت، الموسيقى والفكر أم الإنسان؟ من يخدمُ من؟ من المُسخَّر لمَن؟ أعتقد أنّ الصّوت أسبق في الوجود لأنّ منه وبه تشكّلت اللّغة، وكذا الموسيقى، والصّوت عتيق وقديم قدم الكون، لأنّه ما من شيء في الوجود إلّا وله صوت وبالتّالي لغة وموسيقى قبل الإنسان نفسه، أي قبل الفِكر

نفسه، الطّائر فوق الشّجرة ليس بفيلسوف لكنّه يُسخّر صوته لإسعاد الكائنات من حوله، وهو لهذا يُمكن اعتباره رسولاً من رُسل السّلام. الماء المتدفّق من السّماء ليس بمفكّر ولا منظّر لكنّ صوتَه هو لغتُه، ولغته سماويّة تفيض بالخيرات، لأنّها نفسها لغة السّلام والمحبّة والوئام مع الكون بأسره، والإنسان مطالب أن يكون مثل المطر والطّير والشّجر، صوتاً ولغةً ونبضاً ساعياً نحو السّلام مع أخيه الإنسان، هكذا فقط يعلو فكره وتسمو روحه نحو الملكوت والأبديّة.

***

٩٤) ماذا يتنابكِ وأنتِ تقرَئين أو تترجمين نصّاً عن حيثيات السَّلام، مثلاً: السَّلام أعمق من البحار؟!

حينما قرأتُ ديوانكَ (السّلام أعمق من البحار) ثمّ ترجمتُهُ بعد ذلك إلى اللّغة الإيطاليّة رأيتُ فيه إلى جانب ما قلتهُ في دراستي النَّقديّة المطوّلة الَّتي افتتحتُ بها الدّيوان، أنّه كُتِبَ بيد راهبٍ متبتّل في محراب الحرف، مشبَّع بتربية النّسّاك والزّهَّاد، ورأيتُ فيه أيضاً أصواتاً متعدّدة لكاتب تواصلَ مع كينونات الكون وأنصتَ فيه بمسماع الطّبيب إلى أنّات الذّات الإنسانيّة وجراحات البشر وهم يواجهون كلّ يوم بشاعة الحروب، وقبح العالم. في هذا الدّيوان بالذّات تبدو رسالتُكَ واضحة لمن يستوعب سرّ الحرف، لأنّ فيه سعياً متواصلاً نحو الآخر، من رجل خبِر الحروب، ورأى وطناً يتشظّى وقد استأسدت عليه كلّ قوى الشَّرّ ومن كلّ جانب. ديوان (السَّلام أعمق من البحار)، جرح نازف، لصوتٍ جريحٍ يحاول قدر الإمكان أن يعرض على الآخرين تجربته، لتكون عبرة لهم، وطريقاً نحو النّجاة، وعدم تكرار الأخطاء ذاتها، فهل من مستجيب؟!

***

٩٥) كيف ممكن أن يكون للأدب والإبداع دور في استنهاض ونشر ثقافة السَّلام في أركان المعمورة؟!

هذا سؤال مهمّ جدّاً، فالأدب والإبداع بشكل عامّ لهما بدون أدنى شكّ دور حيويّ كبير في نشر ثقافة السّلام في أركان الأرض، وعلى كلّ مبدع أن يشمّر عن ساعد الجدّ من أجل تولّي هذه المهمّة الجليلة، ويسخّر أدبه وفنّه عبر تقديم أعمال حيويّة تصبّ في هذا الإطار، سواء في مجال الرِّواية أو الشّعر أو المسرح أو الموسيقى والفنّ التّشكيليّ. وعلى الجامعات أن تتبنّى كلّ الإبداعات الّتي تتناول قضايا السّلام، وكذا دور النّشر ووسائل الإعلام. هكذا فقط يُمكن أن نضمن تغيير الوعيّ الإنسانيّ إلى الأفضل وتحسيسه بأهمّيّة السّعي من أجل حياة أكثر أمناً وسلاماً. وإنّي أعتقد أنّ ما نحنُ بصدد فعله الآن عبر هذا الحوار يدخل في إطار ما يجب على المبدعين فعله والسّير على نهجه.

***

٩٦) هل ممكن استخلاص دين واحد للبشريّة، مستنبط من الأديان كلها أم هذا ضرب من المستحيل؟!

المحبّة هي الدّين الّذي على البشريّة جمعاء أن تعتنقه، لأنّها هي حقيقة جوهر كلّ الأديان، وإذا كان ما حدث من سوء فهم للنّصوص والتَّعاليم الدّينيّة قد أساء للإنسان وتسبّب له في العديد من الحروب والدّمار، فإنّه الآن مطالب بإعادة النّظر في قراءاته وتأويلاته، والعمل على غربلتها من الفكر السّامّ الّذي يحثُّ على البغضاء والكراهيّة والتَّعصّب. كلّ الدّيانات تحمل في باطنها بذرة المحبّة، وكلّ ما أنت مطالب به أيّها الإنسان هو مساعدة هذه البذرة على التّبرعم من جديد والنُّمو وسط تربة صالحة مسقيّة بالتّفاهم والسّلام والمودّة بين كلّ الكائنات والأكوان.

***

٩٧) إنَّ كل رجل دين لديه استيعاب وفهم دينه بحسب ثقافته وعمق رؤاه، بهذه الحالة نكون بحسب فهم وتحليل رجالات الأديان، أمام ملايين التّفاسير والتّحاليل لِمَا جاء في الأديان، كيف نحلُّ هذه المعضلة؟!

يجب هجر الماضي الدّيني بكل أخطائه الفادحة، ويجب على رجال الدّين أن يوسّعوا دائرة معارفهم وينفتحوا على كلّ الدِّيانات مع محاولة دراستها بشكل جدّي وأكثر تعمّقاً وفقاً لمتطلّبات العصر، والحرص على التَّعاون فيما بينهم من أجل فتح الحوار مع الطّوائف المختلفة، كما يجب التّجديد في الهياكل الدّينيّة باستمرار وضخّ دماء جديدة متشرّبة بثقافة التّنوير والسّلام، مع الاهتمام بالعلم ومسايرة تقنيّات العصر وتسخيرها لنشر المحبّة بين النّاس.

***

٩٨) يراودني أنَّ الإنسان لم يفهم حتّى الآن الأديان بكل عمق، وهو مايزال بعيداً عن جوهر الدِّين وإلّا لماذا هذا البعد عن جوهر الدِّين ونرى كل هذه الخلافات فيما بين رجالات الدّين؟!

هذه أمور عارضة، ولا بدّ للإنسان من حالة يقظة وصحوة عميقة جدّاً، لا سيما وأنّه جرّب كلّ شيء، واكتوى بنيران الحروب والفتن والقلاقل، والخسائر الاقتصاديّة الفادحة. إذ لا يُمكن أن تستمرّ الأمور على ما هي الآن، وإنّي لأتوسّمُ الخير في الكثير من النّاس ممّن لهم النِّيّة الصّادقة والخالصة في تجاوز كلّ هذه المحن. ثقوا بالإنسان، واعلموا أنّه فقط بحاجة إلى المزيد من الوقت لكي يتعلّم من خساراته وأخطائه، ثقوا به فهو سيقوم من كبواته، وسيعود قلبه ينبض بالمحبّة كما كان وأكثر: إنّه في طريقه لأن يُصبح إنسان سلام، إنّني أرى ذلك جيّداً فيمتلأ قلبي بالفرح والامتنان للربّ الرّحمان.

٩٩) كيف نروِّج ثقافة الفرح والحب والسَّلام بين البشر عبر الإبداع والعطاء، وتصبح هدفنا في الحياة؟

كلّ شيء يبدأ من الأسرة والمدرسة، لذا أعتقد أنّه من الضُّروريّ التَّركيز على بناء منظومة أُسَرية جيّدة قوامها والِدَيْن على قدر عال من المحبّة وسعة الاطّلاع والتَّشرّب بفكر السّلام، والشَّأن نفسه في المدرسة وبين الأساتذة والمعلّمين، مع الحرص على إعادة النّظر في مناهج التَّعليم، وفي ثقافة الشّارع والمجتمع بشكل عامّ، ثمّ قبل ذلك العمل على تحسين المستوى المعيشي للإنسان، والاهتمام بحقوقه ومتطلّباته الصّحّيّة والغذائيّة وما إلى ذلك.

***

١٠٠) كلمة أخيرة، تريدي أن تقولينها حول السَّلام، وأدب الحوار حول السَّلام لتحقيق إنسانيّة الإنسان!

من بركات هذا الحوار حول السّلام وفكره وثقافته، أنّني أنجزتُه في وقت قياسيّ جدّاً، ربّما لا يتجاوز الشّهرين، وأنا الّتي كنتُ أعتقد أنّني أحتاج لعام أو عامين كما حدث في الجزء السّابق من (رحلة المئة سؤال وجواب) الأولى، على الرّغم من شواغلي الإبداعيّة والثّقافيّة المتراكمة لليوم بين يديّ! ومن بركاته أيضاً هذه الرّوح الوثّابة الّتي كتبتُ بها صفحات هذا العمل، وطاقة من الفرح والهناء تلفّني وتولجني كلّ يوم أكثر فأكثر في عوالم السّلام. لأجل هذا أقول لصحبي في الحرف، جرّبوا هذا النّوع من الحوارات، إنّه يرفع حقّاً إلى سماوات الملكوت، ويملأ العقل بالطّاقة والسّعادة، ويغمر الرّوح بالنّور. ولكم أقول في الختام شكراً لأنّكم رافقتموني في هذه الرّحلة بقلبٍ محبّ مفعم بالبهاء، وشكراً أوّلاً وأخيراً للأديب صبري يوسف الّذي اقترح الرّحلة، وجعل من السّفر تحليقاً نحو السّمو والرّقيّ والكمال.

***

الملحق

مقتطفات من تعقيبات الأديب والتّشكيلي صبري يوسف
على بعض من أجوبة هذه الرّحلة

١) عن الجواب رقم ٠١:

الأديبة المبدعة والنّاقدة والمترجمة الرّاقية: د. أسماء غريب، قرأتُ ردَّكِ: رؤية عميقة، فلسفيّة، روحية، أعمق ممّا يعرفه المرء عن السَّلام، يبدو لي واضحاً أنّني وُفِّقتُ جدَّاً عندما اخترتُكِ لهذا الحوار بعد حواري الأوَّل معكِ حول تجربتكِ الإبداعيّة والنَّقديّة والتَّرجمة، ويبدو لي أيضاً أنّكِ تمتلكين طاقة روحيّة إيجابيّة سلاميّة ونائميّة عميقة الغور والإدراك والوعي، كم أشعر بالفرح عندما أراك تغوصين في أعماق تساؤلاتي، حتَّى أنّكِ تفاجئيني في رؤاك الّتي جاءت تحلِّل الكثير ممَّا لا يفهمه البشر للوهلة الأولى، أو لا يستدرك أعماقك في الكثير من الأحيان، فنحن البشر أو البشر والإنسان لديه طاقات خلَّاقة عميقة الغور لو علم كيف يغوص في كنهها ويسبر غورها سيكتشف ما لا يعلمه الكثير الكثير من البشر، إنّني بدأتُ أجد في إجاباتكِ في هذا الجزء من حواري: حول السَّلام العالمي، فائدة قصوى للإنسان والإنسانيّة ممّن غاب عنهم الكثير من معالم وفضاءات السَّلام الّذي ممكن أن يحقِّقونه وهو غائب عنهم تماماً بحسب مفهومهم السّطحي للسلام، وهكذا أجدني أمام غوص عميق في رؤاك وتحاليلك ووعيك وثقافتك الرّوحيّة الشّاهقة، وكم يزداد اعتزازي بك وبفكرك الخلّاق يوماً بعد يوم، واكتشف فيك ما كان بعيداً عن مرامي تساؤلاتي، حيث تغوصين في أعماق الجواب من محاور كانت حتّى غافلة عنّي في بعض تفاصيلها، لكنّي كنتُ ومازال في قرارة نفسي أبحث عن هكذا إجابات، لأنّني أرى أنَّ الحياة الّتي يعيشها الإنسان بعيدة كلّ البعد عن الوئام الإنساني والسّلام الكوني الّذي أتوخّاه وأتمنّاه، كما أنّني أرى وكأنَّ الإنسان: إنسان هذا الزَّمان غائب في منزلقات التِّيه والضِّياع عن جوهر الحياة، بدليل أنّه غائص في الحروب والقشور والمال بشراهة غير معقولة وترك بهاء السَّلام والفرح والفضيلة والعدالة

والمساواة والحب والنَّعيم، مركّزاً عن جانب واحد وحيد وهو السَّيطرة والغش والعنف والحرب والقتلِ، إلى درجة أنَّني أرى نفسي أمام وحوش كاسرة للكثير من البشر، وتبدو لي أنيابهم بادية للعيان، خاصّة عندما يفترسون بعضهم بعضاً أكثر مما تفترس الحيوانات المفترسة الكائنات الحيّة بوحشيّة شنيعة!

٢) عن الجواب رقم ١٠:

تكتبُ أسماء غريب الأديبة المبدعة الموغلة في الرّهافة والبراءة، كمَن يكتب على الماء الصّافي الزُّلال، كأنّها مبرعمة من هفهفات نسيم الصَّباح البكر، ومن هديل اليمام، وينبعث من مرامي حرفها ومخيالها براءة الماضي الموغل في مسارات بوح الطُّفولة، وهي طفلة كبيرة ، طفلة في روحانيّتها الشَّاهقة نحو زرقة السَّماء الصَّافية، تشبه أزاهير الحنين وهو، أيْ النِّسيم، يهدهد بسمة الصَّباح. كم أشعر بالزُّهوِّ والفخر والاعتزاز أنّني أهمس لهذه القامة الخلَّاقة بهذه التَّساؤلات، كي أستنهضَ ما في معالمها من تجلِّيات، حتّى أنّه يُخيّل إليّ أنّني أعرف هذه الكائنة المبدعة منذ آلاف السِّنين، كيف يشعر الإنسان هكذا شعور في عمق الزَّمن، وهل الزَّمن عند المبدع ينفرش على مصراعيه مثل خياله الجامح على مساحات الكون والأزمنة الغابرة؟

وحده المبدع الشَّاعر الفنّان، الفنَّانة الشَّاعرة المبدعة، وحدها الكلمة الحرف الكتابة تبقى شامخة على وجه الدُّنيا! ... بدأتُ أشعر بعمق أن الكتابة هي الأبقى من كلِّ كنوز الدُّنيا، الآن في هذه الثَّواني أشعر أنَّ هذا الحوار وما قبله وحواري مع الذَّات هي كنوزي الَّتي لا يضاهيها كنز آخر على وجه الدُّنيا!

دمتِ متألقة وشامخة شموخ الحرف الخلّاق، مع عميق بهجتي وامتناني أيّتُها المبدعة في تجلِّيات الحرف والخيال والصَّفاء والبهاء، دمتِ طفلة وديعة شامخة أيَّتها الأديبة المبدعة د. أسماء غريب!

٣) عن الجواب رقم ١١:

لو دقَّقنا في إجاباتكِ، عبر حواري في الرّحلة الحواريّة الأولى حول إبداعك الأدبي والفنِّي، وعبر هذه الرّحلة حول السَّلام العالمي، وعبر أدق تساؤلاتي، نجد أنَّ لديك أفكاراً مبهرة جديدة حديثة غير مطروقة، وهذا ما يميِّزك عن غيرك ممّن يحملون القلم، ففي هذا الجواب لمست فكرة بديعة لم أرَها عند أي مفكر أو باحث أو كاتب آخر، وهي أنكِ كلّما كبرت، أصبحتِ أكثر نقاءً وعمقاً ووعياً ورصانةً ودقَّة وحصافةً، ولا تعتبرين الطُّفولة هي المعين والخزين الأوَّل للمبدع، فإنّك كائن رصين في مراقبة كلّ يوم من حياتكِ وأنتِ والحرف صديقان من لون بسمة الشّمس وبهاء السّماء، تشبهين عذوبة الماء المتجدّد في الصَّفاء في كل يوم، ينبوع فرح وحب وبهاء وعطاء وبحث عن أبجديات الخير والفضيلة والإبداع الرَّصين، في كل جواب أكتشف فيك منارات جديدة مخبوءة في عالمكِ وغافلة هذه المنارات عن الكثير الكثير من البشر، وأكثر ما يجعلني أن أغوص في عالمكِ الرَّهيف هو هذا الشَّغف المبرعم في كينونتك المعبّقة بخصوبة الأفكار المتجدِّدة، وهذا ما يجعلني أن أتوغّل عميقاً في هذه المنارات وأكتشف ما في دنياك من خصوبة إبداعيّة فكريّة تحليليّة نقديّة رهيفة وشاهقة للغاية، فأنتِ كنز ثمين في عالم الكلمة الخلّاقة والفكر الخلّاق! ربّما لم يلاحظ الكثيرون أنّكِ إضافة إلى كونك: أديبة، ناقدة، مترجمة، وتشكيلية، أنّكِ حقيقة الأمر باحثة عميقة ومفكّرة من العيار الصّافي، لأنّك تشتغلين بعمق على مراقبة وتحليل الذّات الجوانيّة ومتطلّباتها الفكريّة وشغفها وطموحها وآفاق رؤاها، وهذا ما يجعلك دائمة البحث والتَّمحيص والقراءة والمقارنة والنَّقد، وهذا ما يجعلك أيضاً في حيرة من أمرك إزاء ما لديك من رؤى غزيرة في الحياة، وهذه الحيرة تتمحور في كيفية تقديم ما لديك للحياة قبل أن ترحلي من الحياة، ولهذا أيضاً أراك غزيرة الإنتاج وعميقة الفكر وباحثة ماهرة عن ذاتك المتناغمة مع روحك وقلبك وطفولتك، وأنتِ طفلة بديعة في صفاء روحانيّتك وفكرك الصّافي صفاء

المطر الهتون المتهاطل من مآقي السّماء، وكل هذا يؤكّد لي أنَّك باحثة عريقة ومفكّرة مجتهدة في رؤيتها ورؤاها في الحياة، لأنَّكِ فهمت الحياة من منظور عميق للغاية وهذا ما يجعلني أشعر أنَّني عثرت على كنزٍ ثمين هو أسماء غريب! أجل أنت باحثة مرموقة في بحوثكِ عبر أعماق الذَّات ذاتكِ، ومفكِّرة شكّاكة شكّاً إيجابيَّاً فيما يتوجّب الشّك فيه، وعبر شكّك وتمحيصك ودقّة رؤاك وتجلِّيات تحليلك لأكبر وأصغر الأمور، تستطيعي أن تصلي إلى نتائج مذهلة ومدهشة وراقية وغير معروفة لدى الكثيرين، وهذا ما يجعلك أن تكوني في المقدِّمة فيما تذهبين إليه. كم أشعر بالفرح والبهجة أنّني عثرتُ عليكِ في هذا الزَّمن الضّحل، اللَّاهث خلف تزّهات الحياة، كي أغوص في أعماق تساؤلاتي وأتركك تنثرين دُرَرَكِ الثَّمينة ونفائسك على وجه الدّنيا، وكم أشعر في بعض الأحيان أنَّكِ أنا، أو أناكِ تتقاطع مع أناي في الكثير من تحاليلك، فهل نحن البشر لدينا رؤى متعانقة مع بعضنا بعضاً ولا ندري، وهل تتواصل هذه الأرواح مع بعضها في صيغة سؤال أو رؤيا أو تحليل؟! أسئلة كثيرة تراودني ممكن أن ندرجها في سياق تساؤلاتي معك عبر هذه الرِّحلة الفسيحة حول السَّلام العالمي والسَّلام مع ذواتنا نحن البشر في زمنٍ غدا الكثير من المبدعين والمبدعات والمفكِّرين والمفكِّرات يلهثون نحو الشّهرة الفضفاضة والغنى الزّائل، حيث أراني في قرارة نفسي أنّني عبر رحلتي الحواريّة هذه من أغنى أغنياء الكون! .. وأنتِ تعزّزين من خصوبة هذا الغنى عبر إجاباتك الرّحبة الَّتي ستبقى ساطعة كإشراقة الشَّمس على وجه الدُّنيا!!!

٤) **رحلة موفّقة حافلة بالتّجلِّيات الإبداعيّة في تدفُّقات رؤاك الصَّافية صفاء المطر المتهاطل من مآقي زرقة السّماء،** أتمناها لكِ في غوصكِ العميق في التَّعبير عن آفاقكِ الشَّاهقة المجنّحة نحو أبهى يراعِ الصّفاء والسُّموِّ والرّقي ودقّة التّحليل والولوج إلى أعماق ما يجول في خاطرك من أفكار ورؤى وتحاليل تصبُّ في آفاق السَّلام والمحبّة والفرح والوئام بين البشر كل البشر، لعلّنا عبر هذا الحوار نحقّق الأهداف

المنشودة في أدب الحوار ونقدِّم معاً الفائدة المرجوّة للقارئ والقارئة، ونعمِّم فكرة أدب الحوار، لأنّنا الآن أحوج ما نكون للحوار مع ذواتنا ومع بعضنا ومع الكون، لأنّني أرى أنَّ البشرية غائبة كليّاً عن أدب الحوار مع الذَّات ومع الآخر، فهي أي البشريّة والبشر في معظم الأحوال منغلقين على ذواتهم ولا يعبِّرون عمّا في دواخلهم، بحثاً عمّا يفيد الإنسان والإنسانيّة وعمَّا يفيدهم أفراداً وجماعات، ممّا أدى هذا التَّجاهل إلى كل هذا التَّداخل والتَّناحر بين الشّعوب والمذاهب والأقوام والقارّات، فولدت الصِّراعات وتنامت الحروب بين البشر، لعدم تفهُّم البشر لذواتهم أولاً ولذوات الآخرين ثانياً، ونحن كبشر برأيي ذاتٌ واحدة منشطرة ومبرعمة إلى ملايين ملايين الذَّوات، لهذا عندما نتواصل مع الآخر كأنّنا نتواصل مع ذواتنا المنشطرة والمبرعمة عنَّا أو عن البشر أنفسهم عبر ملايين السّنين، ونحنُّ لهذه الذّات مثل حنين الطّفل إلى صدر أمه وطفولته وحياته في كنف محبِّيه.

هذا الحوار حول السَّلام العالمي، حوار مع الذَّات ذاتي، لأنّني أشعر وأرى وأقرأ إجاباتكِ، كأنّكِ تحلِّلين ما في أعماقي في الكثير من الأحيان، وأعماق ملايين البشر ممَّن لا يستطيعوا بطريقة أو بأخرى أن يعبِّروا عن أنفسهم، لهذا أشعر بغطبة وفرحٍ وسعادة عميقة، كلّما أقرأ لكِ ردّاً على كلِّ سؤال أسألك إيّاه، حتّى أنّني أشعر في قرارة نفسي أنّ هناك عشرات بل مئات الأسئلة ممكن أن أسألها إيّاك من خلال إجاباتك، وما ينسحب علي ممكن أن ينسحب على الكثير من المتابعين والمتابعات، فيراودهم عشرات الأسئلة أيضاً، وهكذا نكون عبر حوارنا قد خلقنا تفاعلنا مع أنفسنا ومع الآخر ومع الكون المحيط بنا، لأنّنا الآن وغداً وفي كل حين، أحوج ما نكون لهكذا حوار، لأنّه يفتح آفاقنا على ما كان غائباً عنّا على مدى قرون من الزَّمان! فلماذا لا نغوص في أعماقنا الرّهيفة ونقدِّم تساؤلاتنا وإجاباتنا على طبق من فرح ومحبّة وسلام للبشر كل البشر وبطريقة وئاميّة، لعلّنا

نحقِّق الأهداف المنشودة لإنسانيّة الإنسان، ونترك بصمةً على وجه الدُّنيا تليق بنا كبشر بطريقة إبداعيّة وخلّاقة قبل أن نحلِّقَ عبر أرواحنا في زرقة السّماء؟!

٥) عن الجواب رقم ٢٤:

الأديبة والمترجمة والنّاقدة الخلّاقة د. أسماء غريب، إنَّ هذا الحوار حول السَّلام العالمي، هو فعلاً حوار مع الذّات ومع الآخر ومع الكون برمّته، حوار مع ذواتنا نحن البشر كلَّ البشر، فعلينا أن نحمل في أعماقنا كل قيم الخير والمحبّة والسَّلام بأرقى معانيها وتجلِّياتها ونقدِّم لأنفسنا وللحياة أصفى وأغنى وأرقى ما عندنا، وإلّا فأنّني أرى الحياة خاوية لا معنى لها، فما فائدة الإنسان عندما يأتي إلى الحياة ويرحل دون أن يترك أثراً طيّباً وئامياً سلاميّاً مفعماً بالعطاءات الإنسانيّة والمحبّة والكلمة الطَّيّبة؟ وما فائدة كل هذا الخراب الّذي نراه يسود في الكثير من بقاع الدُّنيا وأغلب مراكز القوى وعواصم الكون واقفة صامتة صمت الموتى؟! إنّي أرى وألمس في إجاباتكِ الكثير ممّا يموج في ذاتي، وفي خيالي، وفي أبهى تجلّياتي، نحن البشر نحتاج إلى الكلمة الخلّاقة الَّتي تقودنا إلى السَّلام بأصفى معانيه، وأرى أن دين الإنسانيّة، وقوميّة الإنسانيّة، وقارّة الإنسانيّة، وهدف الإنسانيّة وطموحها الأبقى في الحياة هو السَّلام والوئام بين البشر كل البشر، لهذا سيبقى السَّلام هو أوّل اللُّغات وآخر اللُّغات كما جاء في سياق إحدى مقالاتي ونصوصي، وبدون هذه الآفاق الوئاميّة لا يمكن أن تعيش البشريّة في حرّيّة وهناء وفرح ووئام مع بني جنسها، لهذا على كلِّ البشر أن يسعوا جاهدين لتحقيق السَّلام، كل في موقعه، وسأبقى أسعى لنشر ثقافة السَّلام والوئام بين البشر حتَّى آخر رمق في حياتي، وسأبقى أحاور الآخر وأسعى لتحقيق مرامي السَّلام إلى أن تصل كلمتي إلى البشر، حتَّى ولو وصلت بعد رحيلي بآلافِ السّنين! لأنَّ هدفي من السَّلام ليس محصوراً ضمن الفترة الّتي نعيشها، بل هدفي هو أن يصبح السّلام هدف الإنسان

أينما كان، الآن .. وإلى الأبد! وهل هناك أبد لا نهائي وأزلي في الحياة، أم أن هناك نهاية للدهر والحياة؟!

دمتِ متألقة في توجُّهاتك وتجلّياتك الرّاقية، وكم أشعر بالفرح والغبطة والوئام مع نفسي ومع الحياة من خلال هذا الحوار معك حول السّلام العالمي لأنّنا ننشر رفرفات أجنحة السَّلام بكلِّ محبّة وعطاء من أجل البشر كلّ البشر، وهذا هو الهدف الأسمى من وجودنا على وجه الدُّنيا!

٦) عن الجواب رقم ٥٤:

تكتب الأديبة المبدعة د. أسماء غريب، حرفها بماء الذّهب الصّافي، بالنَّدى، بالماء الزُّلال، بهفهفات هبوب النّسيم، بإشراقة الشَّمس، بانبعاثات أحلام الطُّفولة، بصفاء زرقة السّماء، ببسمة النّجوم وهي تضيء حنين الرّوح إلى البيت العتيق، تكتب وكأنّها في حالة حلمٍ مفتوحٍ على فراديس النَّعيم، رحلات حرفها تموج بغبطة الرُّوح وهي في أرقى تجلِّياتها، تموسق حرفها على إيقاع المحبّة والسَّلام والفرح المنبعث من نور الأزل، تنسج حبورها بحرفٍ مكتنز بماء الحياة، لأنّها تجسّد عبر غوصها في دنيا الحرف الحياة بعينها، بكلِّ جوهرها وصفائها، أشعر وكأنّني عثرتُ على جوهرة نادرة في هذا الزّمان، جوهرة متلألئة بأزاهير الوئام بين البشر، ترفرفُ مثل يمامة بيضاء فوق وجنة الحياة، مفروشة الجناحين وهي تعبر البحار بحثاً عن ضياء الرُّوح المبرعمة في كينونتها منذ الأزل، أسماء غريب رسالة فرحٍ وحبٍّ وعشقٍ للحياة، للحرف، للسماء، للكون، لأجيالٍ قادمة على مدى الأزمان، روحها ترفرفُ فوق قبّة الحياة مثل شجرة وارفة الأغصان، تظلِّلُ أحزان الدُّنيا، تناجي حزانى هذا العالم كي ترسمَ بسمة الحياة فوق وجوههم التَّائهة في تلافيف الغمام، يرتشفُ حرفها حبره من نسغ المحبة المتهاطلة من لدنِ السَّماء، تكتبُ حلماً ساطعاً فوقَ خدودِ اللّيل، أسماء غريب قصيدة مفتوحة على أجنحة الكون، مجنّحة نحو أقاصي حنين السّماء، رسالة مبرعمة من هدوء اللّيل ومن شهقة الصَّباح ومن

زخّات المطر، مطرٌ منساب فوق طين الحياة، تكتب حرفها وهي في أوج شموخها مع ضياء السَّماء، كأنّها في حالة حبورٍ مفتوح على جنان الخلد، تشبه أشجار الجنّة، يتناثرُ حرفها مثلَ ينبوعٍ صافٍ فوق خدود الأطفال، طفلةٌ من لون السَّوسن والياسمين الدِّمشقي، أسماء غريب غابة فرحٍ مسكونة بأزاهير مهجة الرُّوح وهي تتصاعد نحو بركات الأعالي، هي بركة السّماء عبر حبر القصيدة، لونُ المحبّة الصَّافي صفاء الحلم المنساب من مآقي السّماء، تنسجُ حرفها من طين السَّلام وهي في أوجِ صفائها الرّوحي، يرقص قلبها ألقاً وضياءً كلّما تبرعمَ حرفها فوقَ خميلة اللَّيل في صباحٍ باكر، تناجي الكائنات بلغةِ أريجِ الزُّهور، وخيوط الشّمس وهدهدات المطر عبر اخضرار القلب، وتجسِّدُ حرفاً من لون الحلم الغافي فوق أهازيج الرّوح الملأى ببخور المحبّة المنبعثة من جفونِ الأعالي، أسماء غريب مبدعة نادرة من لونِ المحار المزهرة في أعماق البحار، هديّة من نورِ الشَّمس إلى زمنٍ يزدادُ انشراخاً، كأنّها جاءت كي تخفِّفَ من حدَّةِ الانشراخ، وترسمَ في أوج تجلِّياتها طريقَ القصيدة المنساب نحو أبهى مرامي الوئام بين البشر!

٧) عن الجواب رقم ٦٦:

الأديبة والنّاقدة والمترجمة المبدعة د. أسماء غريب، غالباً ما كنتُ أطرح أنَّ السّاحة الشَّرقيّة العربية من المحيط إلى الخليج، تفتقر إلى سدِّ النّقص الكبير في مجال النّقد، ولا يتوفّر متخصِّصين أكاديميِّين في مجال النّقد بما يكفي للمبدعين والمبدعات في التّخصُّصات والأجناس الإبداعيّة، وقد أشار أكثر من كاتب وروائي وشاعر أنَّ هناك بعض الكتّاب الفاشلين في الكتابة الأدبيّة تحوَّلوا إلى نقّاد، فقد وجدوا في الكتابة النّقديّة طريقة سهلة للخروج من فشلهم، ومن باب الطرفة كانوا يقولون عن هكذا نماذج من النّقاد، إذا كانوا كتَّاباً فاشلين في الكتابات الأدبيّة، فكيف سينجحون في الكتابة النَّقديّة، لهذا أحياناً كانت تأتي كتاباتهم كردود فعل من بعض المبدعين والمبدعات، أو تكون قراءاتهم النّقديّة ناجمة عن حالة تصفية حسابات أو ردود فعل انتقاميّة، أو قراءة مزاجيّة يحلِّل فيها رؤيته كما يريد هو:

النّاقد، وليس كما يجب أن يتم التّحليل، وهكذا وجدنا في الكثير من دول العالم العربي ظهور موجة من النقّاد غير المتخصّصين أو حتّى بعض المتخصّصين، غير قادرين على قراءة نقديّة تحليليّة دقيقة، فتأتي قراءاتهم هشّة وكأنّهم يتحدَّثون عن شخص آخر غير الكاتب والشَّاعر والرِّوائي الَّذي يتحدَّثون عنه ويحلِّلون نصوصه وأعماله، وأحياناً يشعر المبدع وكأنَّ النَّاقد يتحدّث عن مبدع غيره وليس هو رغم أنَّ ما قاله المبدع هو كلام جميل ويرغب كل أديب الحديث عنه بهذا الجمال والكلام الطَّيّب، لكن السُّؤال لا يتعلَّق بالجمال بقدر ما يتعلّق بكيفية تحليل النّص ووضعه على مشرحة النّقد البنّاء والخلّاق، لأنَّ النّقد نفسه رؤية إبداعيّة أكثر ما يكون كلاماً جميلاً ومعسولاً ووصف كلام! وبهذا السِّياق أودُّ التّأكيد على أنَّ هناك قلّة قليلة من النُّقَّاد الأكاديميِّين الَّذين يقدِّمون دراسات نقديّة عميقة ورائدة في النَّقد والتَّحليل، فقد حظيتُ حقيقةً بناقد عراقي بديع هو النّاقد د. محمّد صابر عبيد بقراءة تحليليّة نقديّة لثلاث روايات من رواياتي وخمس وعشرين قصّة من قصصي، والأجزاء العشرة من أنشودة الحياة، فقد قدّم دراسات نقديّة عن أدبي الرِّوائي والقصصي والشِّعري بطريقةٍ شعرت بدهشة وفرح ومتعة غامرة وأنا أقرأ ما جاء في تحاليله وقد أصدر عن أدبي السَّردي كتابا نقديَّاً بعنوان: جدل الذّاكرة والمتخيّل، مقاربة في سرديَّات صبري يوسف، كما قدَّم كتاباً نقديّاً عن نص أنشودة الحياة بأجزائه العشرة وأصدره ضمن كتاب نقدي بعنوان: ستراتيجيّة النّص المفتوح، حركيّة الفضاء وملحميّة التّشكيل، كم شعرت أنَّ النّاقد محمد صابر عبيد عميق الرُّؤية في تحاليله ونقده حيث يغوص عميقاً في منعرجات النّص، قصّة كانت أو رواية أو نصَّاً شعريّاً، وكأنّنا أمام عمل أدبي في طريقة عرضه تحاليله النّقديّة، حيث يمتلك رؤية عميقة في التَّحليل والتَّمحيص والنّقد بطريقة أكاديميّة عميقة، مقسّماً قراءاته النَّقديّة إلى فصول دقيقة، مدرجاً رحيق ما جاء في أدبي أو أدب أيّ مبدع يقوم بدراسة تحليليّة نقديّة عنه، ولكن كم من النّقاد والنّاقدات بهذا الحجم، ممكن أن نرى في العالم العربي، فهناك نسبة كبيرة ممّن طرح نفسه ناقداً أو ناقدة ربّما ليس لهم

أيّ علاقة بالنّقد والتَّحليل، وكم أشعر بأنّني حظيتُ بقراءة نقديّة من قبلكِ، حول أدبي فيما يخصُّ أدب السَّلام وأدبي بشكل عام شعراً وروايةً وقصَّةً وحواراً، أدهشتني دراستك العرفانيّة حول أدبي وفنّي، وظللتُ طويلاً ومأزال مندهشاً من طريقة دراستك العرفانيّة حول تجربتي الأدبيّة والفنّيّة، ولا أنسى يوم اقترحتِ عليّ أن أكتبَ مقدِّمةَ هذه الدِّراسة، وشعرت أنّني أمام مسؤوليّة كبيرة، فكيف سأقدّم كتاباً نقديّاً بهذا الحجم الرَّاقي والعميق، وهو يتحدّث عن تجربتي! أتذكَّر في حينها ظلَلْتُ في حيرةٍ من أمري، هل ألبّي طلب النَّاقدة أم أعتذر عن كتابة المقدِّمة، لأنّني في حينها شعرت في بادئ الأمر أنّني غير قادر على تقديم هكذا كتاب نقدي سواء كان عنّي أو عن غيري، لكنّي أثناء قراءتي الثَّانية له، وضعتُ بعض الأفكار حول الكتاب، وبدأت أكتب وجهات نظري فيما جاء في الكتاب وبعد مراجعتي لما كتبته مرّة ومرّتين وثلاث مرات، عدت وعمّقت قراءتي ومقدِّمتي، فجاءت منسابة وكأنّها أحد فصول الدِّراسة النَّقديّة وفي اليوم الثَّالث وبعد أكثر من عشر مراجعات وقّعتُ على المقدِّمة، ووجدتها مناسبة لتقديم هكذا كتاب، ولا أخفي على القارئ والقارئة أنّني لأوّل مرة أجد من يدخل في أعماق أعماقي في قراءة نصّي، مثلما دخلتِ عبر قراءتك العرفانيّة البديعة! وكم فتحتِ لي مغاليق كانت غامضة عليّ قبل قراءة رؤاك النَّقديّة العرفانيّة عن أدبي وفنّي، وجاءت منسجمة مع آفاق انسياب حرفي ولوني بدقَّة متناهية وكأنّكِ غِصْتِ في أعماق كينونتي وتجلِّيات خيالي وجموحي وتدفُّقات انبعاث النَّص، وهذا يقودني إلى القول، كيف سنجدُ هكذا نقَّاد من طينتِكِ وطينة النّاقد محمّد صابر عبيد، ونقاد آخرين ممَّن لهم مكانتهم في النَّقد أمام العديد من النُّقاد الّذين لا يحملون رؤية نقديّة دقيقة، ولا أيّ عمق في تحليلهم سوى حفظ بعض المصطلحات واستخدامها بطريقة هشّة وغير دقيقة وبعيدة كلّ البعد عن فضاءات عوالم المبدعين والمبدعات!

٨) عن الجواب رقم ٩٠:

الأديبة المبدعة د. أسماء غريب،

خالص التّهاني القلبيّة، لكل ما قدَّمتينه من تألّق وإبداع في إجاباتك، التّسعين والمئة قريباً، كم أشعر بالفخر والاعتزاز لهذا التّفاعل والتَّجلِّي في الحوار، حتَّى أنّني أشعر أنَّ تساؤلاتي حملت في الكثير من ثناياها ما يمكن أن نكتب عنه مجلَّدات، وكم كنتِ بديعة ومبدعة في اختزالك وتحليلاتك وإجاباتكِ، حتَّى أنّني شعرت وكأنَّ الحوار، أشبه ما يكون حواراً مع الذّات، وهذا ما يجعلني سعيداً في دقّة السُّؤال عندما أجد رهافة الإجابات وتدفُّقات مدهشة ومنسابة من رحيق قلمكِ وآفاق رؤاكِ، كما أنّني بدأتُ أشعرُ أكثر فأكثر بأهمّيّة أدب الحوار، لهذا أجدني منفتحاً ومخصّصاً مساحة طيّبة من كتاباتي لأدب الحوار سواء مع الذّات ذاتي أو مع ذوات الآخرين، ونحن البشر كلّ البشر نحتاج إلى حوار مع الذّات، ألف سؤال وسؤال! سواء شفهيّاً أو كتابيّاً، قبل أن نحاور الآخرين، لأنَّ الّذين لا يحاورون ذواتهم غير قادرين على حوار الآخر، وكم كنتُ أشعر في قرارة نفسي خلال رحلة حواري مع الذَّات أنّني أحاور الآخر، كما شعرت بنفس الوقت أنّني عندما كنتُ أحاوركِ أيّتها المبدعة الرّاقية د. أسماء غريب، كأنني كنتُ أحاور ذاتي، وهكذا تكتمل معادلة أدب الحوار في تحقيق الهدف المنشود!

صبري يوسف

ستوكهولم

الدكتورة أسماء غريب..

أديبة وناقدة ومترجمة مغربيّة، مقيمة في إيطاليا

- تخرّجت سنة ٢٠٠٦ في جامعة باليرمو (قسم الدراسات الشرقية الإسلامية) بإيطاليا، وقد كانت أطروحة إجازتها باللّغة الإيطالية حول "أسرار الحروف النورانية بالقرآن الكريم"؛
- حصلت سنة ٢٠٠٨ ومن الجامعة ذاتها، على شهادة الماجستير الدولية للدراسات العليا بمرتبة الشرف الأولى، تخصّص: دراسات حول البلدان العربية والإفريقية. وكانت أطروحة الماجستير حول "إسراء ومعراج الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام"؛
- في بدايات سنة ٢٠١٢ حصلت بروما على دبلوم في التحرير الأدبي والصحفي من "ستيلوس" مؤسسة علوم التحرير الأدبي والصحفي باللغة الإيطالية؛
- نالت في يومه الخميس ٨ شعبان ١٤٣٣ الموافق لـ ٢٨ حزيران ٢٠١٢، بروما بجامعة المعرفة (La Sapienza) تخصّص (حضارات وثقافات دول إفريقيا وآسيا)، شهادة الدكتوراه بدرجة امتياز وبمرتبة الشرف الأولى عن أطروحتها الموسومة بـ (الحداثة في المغرب من التاريخ إلى الأدب: محمد بنّيس أنموذجا للدراسة والتحليل)؛
- شاركت في العديد من الأنشطة الثقافية الخاصّة بحوار الأديان بأهمّ المؤسسات التعليمية بمدينة إقامتها؛
- نالت جائزة الشعر العالمي بجزيرة سردينيا الإيطالية عن قصيدتها (السلطعون الناسك) عام ٢٠٠٩، وذلك في إطار فعاليات مهرجان أكتوبر للشعر العالمي بمدينة ساسري؛

إصداراتها:

- خرجَ ولمْ يعُد (مجموعة قصصية)، ط١، مطبعة الحقّ، آسفي ــ المغرب، ٢٠٠٦/ ط٢، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٦؛
- بدونك، (ديوان شعري) باللغتين العربية والإيطالية، كليبسيدرا، إيطاليا، ٢٠٠٩؛

- مقام الخمس عشرة سجدة (ديوان شعري) باللّغتين العربية والإيطالية، ط١، دار نووفا إيبسا إيديتوره، إيطاليا، ٢٠١٣ / ط٢، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٦؛

- تجليّات الجمال والعشق عند أديب كمال الدين، (كتاب نقديّ)، منشورات ضفاف، لبنان، بيروت، ٢٠١٣؛

- تانغو ولا غير، ديوان شعريّ مشترك (أسماء غريب وسعد الشلاه)، منشورات آريانا، إيطاليا، آذار ٢٠١٤؛

- ٩٩ قصيدةً عنْكَ (ديوان شعريّ)، ط١ وط٢، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٥/٢٠١٦؛

- أنا رع، (مجموعة قصصيّة)، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٦؛

- ما لمْ تبُحْ بهِ مريمُ لأحدٍ، ويليهِ متون سيّدة، (ديوان شعريّ)، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٦؛

- الأمانةُ العظمى في الدّفاع عن تراث وتاريخ الأمم: المُحقِّقُ علي عبد الرضا أنموذجا (كتاب نقديّ)، منشورات العصرية للطباعة والإعلان، العراق ٢٠١٦؛

- حكايةُ القلبِ الرّائي والذّاكرة المُشتعلة: قراءات في مسارات ومحطّات التاريخ عند الدكتور عبد الرضا عوض، (كتاب نقديّ)، دار الفرات للثقافة والإعلام، ٢٠١٧؛

- كواكب على درب التبانة (مقاربات نقدية) الجُزء الأول، دار الفرات للثقافة والإعلام، ٢٠١٨؛

- ترجمتُ لكَ، ج١ و ج ٢، موسوعة في الترجمة الأدبيّة من وإلى اللغتين العربية والإيطالية، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٨؛

- رحلة المئة سؤال وجواب (الجزء الأوّل)، حوار أجراه من ستوكهولم صبري يوسف، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٨؛

- ترجمتُ لكَ، ج٣ وج ٤، موسوعة في التّرجمة الأدبيّة من وإلى اللّغتيْن العربية والإيطاليّة، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٩؛

- قراءات من ذاكرة الحرف (مقاربات نقديّة)، (قيد الإصدار)، دار غيداء، الأردن، ٢٠١٩.

حوارات واستطلاعات صحفية:

- بن رحمون عبد الحق، أسماء غريب تتحدث للزمان عن منابع المعرفة، جريدة الزمان الدولية، عدد ٣٣٤٩ / ٢٠٠٩/٠٧/١٨؛
- ندى ضمرة، حوار مع الشاعرة المغربية أسماء غريب، العرب اليوم، ٢٠١٠؛
- محمد الكلاف، حوار المبدعات، مجلة روافد عدد ٢٠١١/٢٠؛
- بن رحمون عبد الحق، لا ندم في طريق القصائد، جريدة الزمان الدولية، عدد ٢٩ أيلول ٢٠١٢؛
- منى ظاهر وأوس داوود يعقوب، الحصاد الثقافي ٢٠١٣: أين توارى الكاتب العربي في عاصفة التحولات؟ جريدة العرب، عدد ٩٤٢٥، ٢٠١٣/١٢/٣١؛
- القلب، أرض الإنسان وبيته الحق، حاورها الأديب المسرحي ميثم السعدي، مجلة نسائم الأسترالية، (آب ٢٠١٤)؛
- الدكتورة أسماء غريب: الأديبة المغربية التي تغنت شعراً بحب الحسين (ع)/ إنسانة أبدعت فتعددت مواهبها (خاص بوكالة عشتار الإخبارية/ العراق/ حاورها رئيس التحرير فرج الخزاعي)؛
- الدكتورة أسماء غريب في حوار عن الشعر والنقد والتصوف والترجمة، حاورها من الجزائر وليد شموري، (مجلة الشاهد / عدد ٢٢ تشرين الثاني ٢٠١٤)؛
- عن السّلام العالميّ، حوار مع الأديبة د. أسماء غريب، حاورها رئيس تحرير مجلة السلام المبدع والفنان التشكيلي صبري يوسف (سوريا/ ستوكهولم)، (مجلة السلام/ العدد الثاني ٢٠١٤)؛
- عن الأدب والحداثة في المغرب، حوار مع د. أسماء غريب، (جريدة لوسفويّتّينو)، ٢٠١٥؛

مواقعها وقناتها على اليوتيوب:

https://asmaaegherib.wordpress.com/
https://asmagheribblog.wordpress.com/
http://www.youtube.com/channel/UCHtad5pA6GyNR0EkV9Ty4sA

***

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٧
المئة سؤال	٩
كلمة صبري يوسف	١٩
المئة سؤال والجواب	٢٥
الملحق	٢٢٥
سيرة الدكتورة أسماء غريب	٢٣٩
المحتويات	٢٤٣

دار الفرات للثقافة والإعلام – بابل – العراق

السنـــة: ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٠٥٦) لسنة ٢٠١٨م

Al-Furat House for Education and Information

Iraq – Babylon

لوحة الغلاف: (من الفحم إلى الألماس)، من إنجاز د. أسماء غريب إيطاليا، ٢٠١٩م